المختار محمد التمسماني

صِدِّيقُون

ريحانة طنجة سيدي محمد بن الصدِّيق وأنجاله الأشقاء الخمسة الغُمارِيُّون

السادة:

أحمد، عبد الله، محمد الزمزمي، عبد الحي وعبد العزيز

رحمهم الله تعالى

تقديم

فضيلة العلامة الشيخ أبي الفتوح عبد الله التليدي



دار ابن حزم

مركز التراث الثقافي المغربي
الدار البيضاء

صَدِّيقُونْ

ريحانة طنجة سيدي محمد بن الصدِّيق
وأنجاله الأشقّاء الخمسة
الغُمَارِيُّونْ


بسم الله الرحمن الرحيم

صِدِّيقُونَ

ريحانة طنجة سيدي محمد بن الصدّيق وأنجاله الأشقّاء الخمسة الغُماريُّون

السادة:

أحمد، عبدالله، محمد الزمزمي، عبدالحي وعبدالعزيز

رحمهم الله تعالى

المختار محمد التمسماني

تقديم

فضيلة العلامة الشيخ أبي الفتوح عبدالله التليدي

مركز التراث الثقافي المغربي

دار ابن حزم

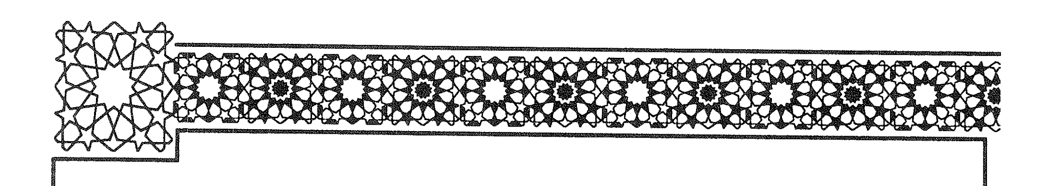
الطَّبْعَةُ الأُولَىٰ
١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م

ISBN 9953-81-411-2

الكتب والدراسات التي تصدرها الدار
تعبر عن آراء واجتهادات أصحابها

مركز التراث الثقافي المغربي
الدار البيضاء - 52 شارع القسطلاني - الأحباس
هاتف: 442931 - 022/ فاكس: 442935 - 022
المملكة المغربية

دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان - ص.ب: 14/6366
هاتف وفاكس: 701974 - 300227 (009611)
بريد إلكتروني: ibnhazim@cyberia.net.lb



بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه وحزبه

الحمد لله على ما ألهم وعلم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

وبعد ففي كتاب الكسوف من سنن أبي داود، وكتاب المناقب من جامع الترمذي عن ابن عباس - رضي الله تعالى عنهما - أنه قيل له بعد صلاة الصبح: ماتت فلانة لبعض أزواج النبي ﷺ - يعني صفية أو حفصة - فسجد قيل له: أتسجد هذه الساعة؟ فقال: قال رسول الله ﷺ: «**إِذَا رَأَيْتُم آيَةً فَاسْجُدُوا**» سنده صحيح. إن موت إحدى أمهات المؤمنين رضوان الله عليهن يعده حبر الأمة آية. والآية هنا العلامة الكونية بنزول العذاب والبلايا والمحن. فذهاب ما تبقى من آثار النبوة وبركاتها ينذر بشر مقبل عاجل. فعن سيدنا ﷺ قال: «**أنا أَمَنَةُ أصحابي فإذا ذهبت أتى أصحابي ما يُوعدُون، وأصحابي أَمَنَةُ أهل الأرض فإذا ذهب أصحابي أتى الناس ما يوعدون**» رواه أحمد **٣٩٩/٤** ومسلم في فضائل الصحابة وأزواج النبي ﷺ ضمن إلى شرف الزوجية النبوية شرف الصحبة، فكانت وفاتهن سَالِبَة للأمنة، وذلك موجب للخوف، فيجب عندئذ الالتجاء إلى الله عز وجل بالصلاة والدعاء.

وإذا كان الأمر كذلك في أمهات المؤمنين، فكيف يا ترى يكون الأمر إذا توالى موت العلماء ودرجوا واحداً تلو الآخر بلا توان حتى لم

يبق إلا رُؤوس الجهل فماذا يقال في شأنهم، وهم لا يقلون بركة، وخيراً، ونفعاً عن أمثال أمهات المؤمنين. وهم ورثة الأنبياء، وحملة الشريعة، وحفاظها.. وحراسها، والقائمون عليها، والذابون عنها، والداعون إليها.. فذهابهم وغيابهم عن هذا العالم من آيات الله العظيمة التي يخوف بها عباده لأن موتهم يؤذن بفشو الجهل، وانتشاره، وذهاب العلم الذي لا يقبضه الله انتزاعاً ينتزعه من العباد، ولكن يقبضه بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالم اتخذ الناس رؤوساً جهالاً، فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا.

رواه البخاري ومسلم في كتاب العلم عن سيد الكائنات ﷺ وإذا ذهب العلم بذهاب علمائه فأي خير يبقى في هذه الأرض بل ذلك يعد من أشراط الساعة واضمحلال هذا الكون. ففي الصحيحين عن سيدنا رسول الله ﷺ قال: «**إن من أشراط الساعة أن يُرفعَ العلمُ ويظهر الجهلُ، ويَفشو الزنا، ويُشرب الخمرُ ويذهب الرجال، وتبقى النساء، حتى يكون لخمسين امرأة قيّمٌ واحدٌ**».. عياذاً بك يا الله.

هذا وقد فقدنا كثيراً وكثيراً من العلوم النافعة التي ذهبت بذهاب أهلها ورزئينا بغياب جمهرة كبيرة من علمائنا الأجلاء الذين عاصرناهم في القرن الماضي ١٤٠٠هـ وتلقينا عنهم، وصحبناهم، واستفدنا منهم أو من كتبهم. وكان أوائل هذا القرن الخامس عشر الهجري في عقديه الأولين من انكب وقت مر علينا في حياتنا الطويلة، فلقد خسرنا فيه كما خسر العالم الإسلامي كثيراً ممن كان قد تبقى من علمائنا الربانيين الكبار على اختلاف ثقافاتهم، وتباين معارفهم وتخصُّصاتهم، من مفسرين، ومحدثين، وفقهاء، وأخلاقيين ومربين، وأصوليين، ومفكرين، وأدباء، ومؤرخين... وكان فيهم مؤسسو جماعات ومنظمات وأحزاب.. وكان كل واحد منهم سيد قومه وإمام جماعته، وقدوة أصحابه ومُرَبِّ أجيال من أمته، كانوا يعيشون في الشرق والغرب.

ولما كان من أولئك الأعلام الأجلاء، الأشقاء الخمسة الصديقيون

الغماريون[1] المغاربة: السيد أحمد، والسيد عبدالله، والسيد الزمزمي، والسيد عبدالحيّ، والسيد عبدالعزيز[2] أنجال السيد المبجل السيد محمد بن الصديق رحمهم الله تعالى ورضي عنهم، وكنا ممن تشرفنا بالأخذ عنهم وعشنا معهم عقوداً وسنين طوالاً فقياماً بشكر النعمة كنت شرعت في جمع تراجمهم وأخبارهم، وما كنت عرفته عنهم، وشاهدته منهم، وكنت قطعت في ذلك شوطاً، لكنني توقفت عن ذلك عندما فوجئت بكتاب قيم لأخ كريم، ذلكم هو الأخ الصديق الحبيب العلامة الجليل الباحث المفيد الأديب الأستاذ السيد المختار محمد التمسماني الذي قام بدوره بجولات حول هؤلاء الأشراف الأعلام، أورد فيها ما عرفه عنهم وبلغه علمه من أخبارهم، وما أوحاه إليه ضميره، وما يكنه قلبه نحوهم من حب وتقدير وإكبار،

---

(١) نسبة لغمارة وهي عدة قبائل وقبيلة هؤلاء الأشراف بنو منصور وموقعها الجغرافي شمال المغرب الغربي القريبة من ساحل البحر الأبيض الجنوبي وتكتنفها عدة قبائل غمارية فتحدها جنوباً قبيلتا بني سلمان، وبني خالد، وشرقاً قبيلتا بني سميح وبني جرير، وشمالاً بنو جرير أيضاً وغرباً قبيلتا بني بوزرة وبني سلمان والقبيلة جاءت في قمم الجبال بعيدة عن المدن والمواصلات وعرة الطريق وقرية الأشراف تُجْكان وأشرافها لا يتجاوز عددهم مائة نسمة ويمتاز أشراف هذه القرية بقوة الذاكرة والحفظ وفيهم خارج القبيلة علماء ودكاترة وأئمة وخطباء ودعاة وأساتذة ويوجدون بكثرة بتطوان، وطنجة، وقلة منهم بوجدة والرباط وسلا وفاس وبلجيكا.

(٢) ويعتبر وجود هؤلاء العلماء الأشقاء الخمسة مع باقي إخوتهم وهما السيد الحسن، والسيد إبراهيم من نوادر التاريخ، فإننا لا نعلم وجود سبعة إخوة كلهم علماء شرعيون خمسة منهم أشقاء أبناء رجل واحد جمعهم رحم واحد، ثلاثة منهم من كبار محدثي زمانهم، وباقيهم كل وتخصصه العلمي فهذه من النوادر التاريخية التي لا ثاني لها فيما اطلعنا عليه.

نعم يوجد في التاريخ أكثر من عشرة إخوة لكنهم ليسوا كلهم علماء وقد وجد ثلاثة أشقاء علماء وهم أبناء الجزري: المبارك أبو السعادات صاحب جامع الأصول والنهاية، وضياء الدين نصر الله الأديب، وعز الدين صاحب أسد الغابة والكامل..

لكن هؤلاء الأشراف لهم امتيازات لا توجد في غيرهم، وهذا من بركة والدهم سيدي محمد بن الصديق بل من جملة كراماته وآياته التي أكرمه الله تعالى بها كما أكرم أهل طنجة والأجيال بعده.. ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

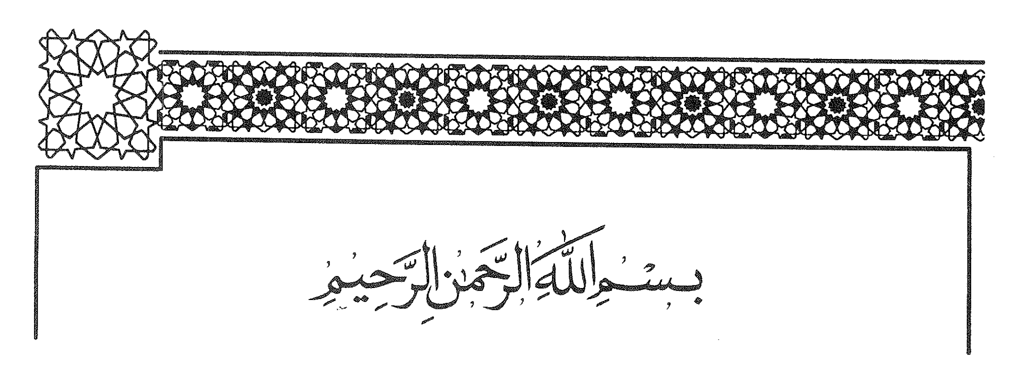
فاستهل جولاته بذكر حياة ريحانة طنجة ونورها وآيتها شيخ الإسلام العارف أبي عبدالله سيدي محمد بن الصديق الغماري رضي الله تعالى عنه.

ثم قفاه بذكر أنجاله الأشقاء الخمسة البررة فذكر لكل واحد منهم ما يليق بترجمته وحياته، وما لكل منهم من مواقف عرف بها، وتآليف وإنتاج وآثار وكتب ذلك بقلمه الأدبي السلس، العذب، الجذاب، فجاء بحمد الله وتوفيقه كتاباً قيماً حافلاً بالفوائد والأحداث التاريخية التي عاشها مؤلفنا الجليل معهم وشاهدها منهم طوال عقود من الزمن، فجزى الله تعالى أخانا المختار محمد التمسماني على ما قام به من إحياء ذكريات أشياخه وأساتذته، وأثابه على هذا العمل الهام الذي يعد بروراً بشيوخه، وشكراً لما أسدوه إليه من علوم ومعارف، ووفاء بحس العهد **«وحسنُ العهد من الإيمان»** كما قال سيدنا ﷺ.

ختم الله لنا وله بالسعادة وحشرنا وإياه ووالدينا وأشياخنا وأحبتنا مع نبينا سيدنا محمد ﷺ في جملة النبيّين والصديقين والشهداء والصالحين وحَسُنَ أولئك رفيقاً..

وكتب أبو الفتوح عبدالله عبدالقادر التليدي بتاريخ **٢٤** رجب عام **١٤٢٥هـ** بطنجة المغرب.





مقدّمة

هذا كتاب يكاد يتحدث عن نفسه بنفسه..

صديقون:

إنها التفاتة إلى معالم في الطريق من حياة أئمة ستة تعرَّقوا من دوحة الشرف.. من المعدن الكريم.. من المنهل العذب..

إنها زورة خاطفة لموكب أعلام أمناء انتهت إليهم في العصر الحديث الزعامة في الإرث النبوي الخالد، والبسطة في الاجتهاد.. أئمة صدور من ألمع مصابيح مدينة طنجة التي أصبحت ببركة علمهم الشريف تعرف «بمدينة أهل الحديث».. أئمة جهابذة نشروا علمهم في الناس وما كتموه، وأسهموا بأبحاثهم واجتهاداتهم في إنارة الفكر الإسلامي، وأغنوا مكتبة الدراسات الإسلامية بإنتاجهم الفياض الذي ناهز سبعمائة مؤلف بين الصغير والمتوسط والكبير بعضه في أجزاء.. أئمة تركوا بصمات متألقة على غرة جبين التاريخ جَرْيَ الدهر..

صديقون:

لم تعبّد طريقهم ورودا ورياحين، بل امتحاناً وابتلاء.. نثرت فيها أشواك الإحن التي وغرت بها قلوب قوم أوصدوا عليهم ـ يوم كانوا ـ باب الإنصاف والسَّداد، وألحقوا بهم الشذَى والأذى لأنهم صدّيقون دعوا إلى

الحق وقاموا به، وجاهدوا الباطل وقاموا عليه.. وبسعايات المغرضين ونَيارِبهم دبَّت المآبر إلى بعضهم وتفشت..

صديقون:

هم آل ابن الصديق: سيدي محمد «السيّد» ريحانة طنجة، وأنجاله الأشقاء الخمسة الذين انحدروا من رحم واحد: سيدي أحمد، حافظ العصر.. وسيدي عبدالله، عمدة أرباب العلم.. وسيدي محمد الزمزمي، الداعية الصدر، العالم العامل.. وسيدي عبدالحي، المجتهد النحرير.. وسيدي عبدالعزيز، مفخرة الشيوخ وكوكبهم اللامع.. رحمهم الله..

والكتاب:

- تراجم لهم مقتضبة من ذكريات وتأملات وانطباعات..
- وكلمات في مناسبات..
- وتقديمات لبعض كتبهم..

وبعد،

فلأقل مع أبي الحسن المرغيناني:

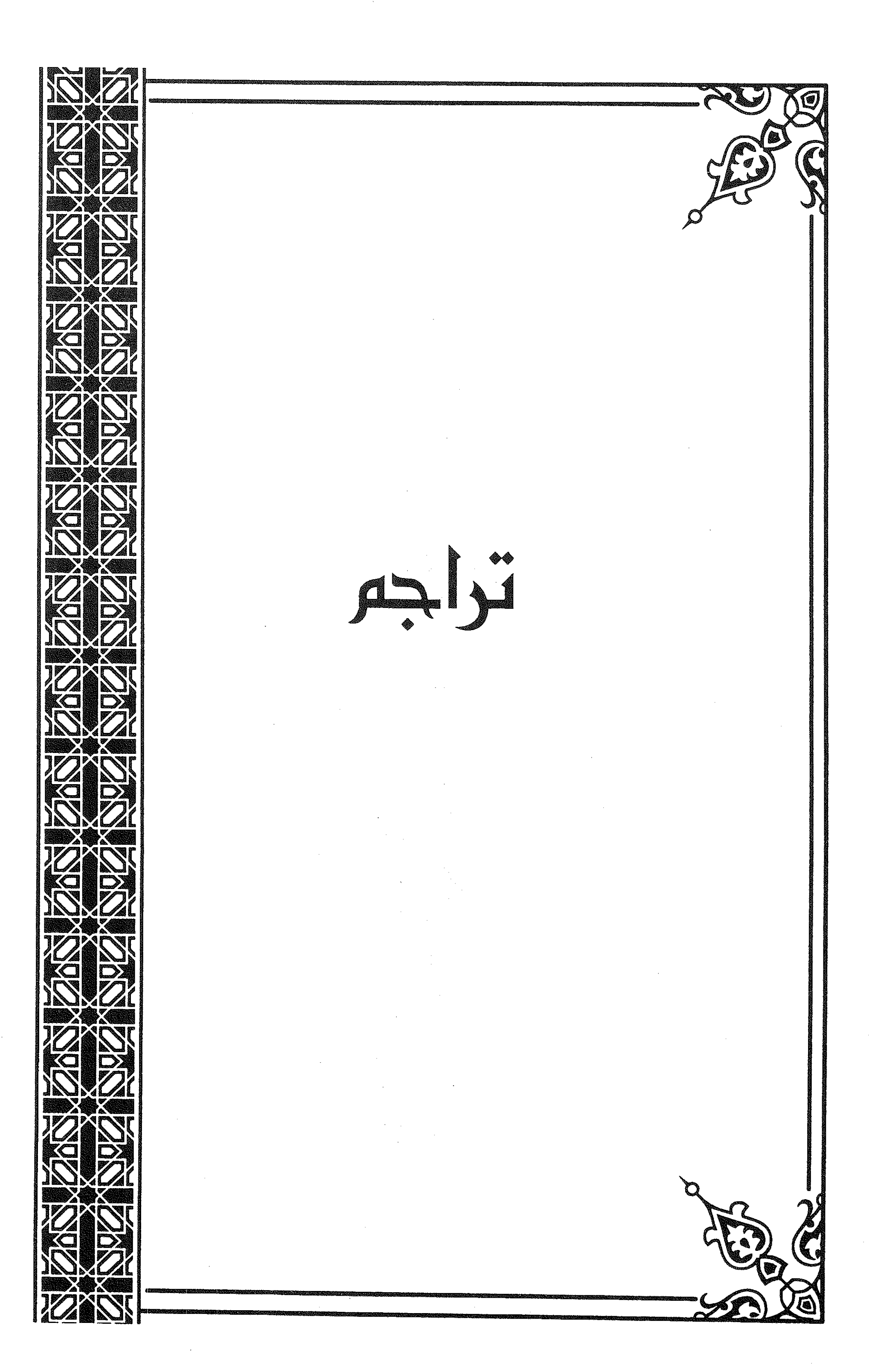
سقى الله أَجداثاً أجنَّت معاشراً   لهم أبحُرٌ من كل علمٍ زواخرُ

ولأردد مع ابن أبي حفصة:

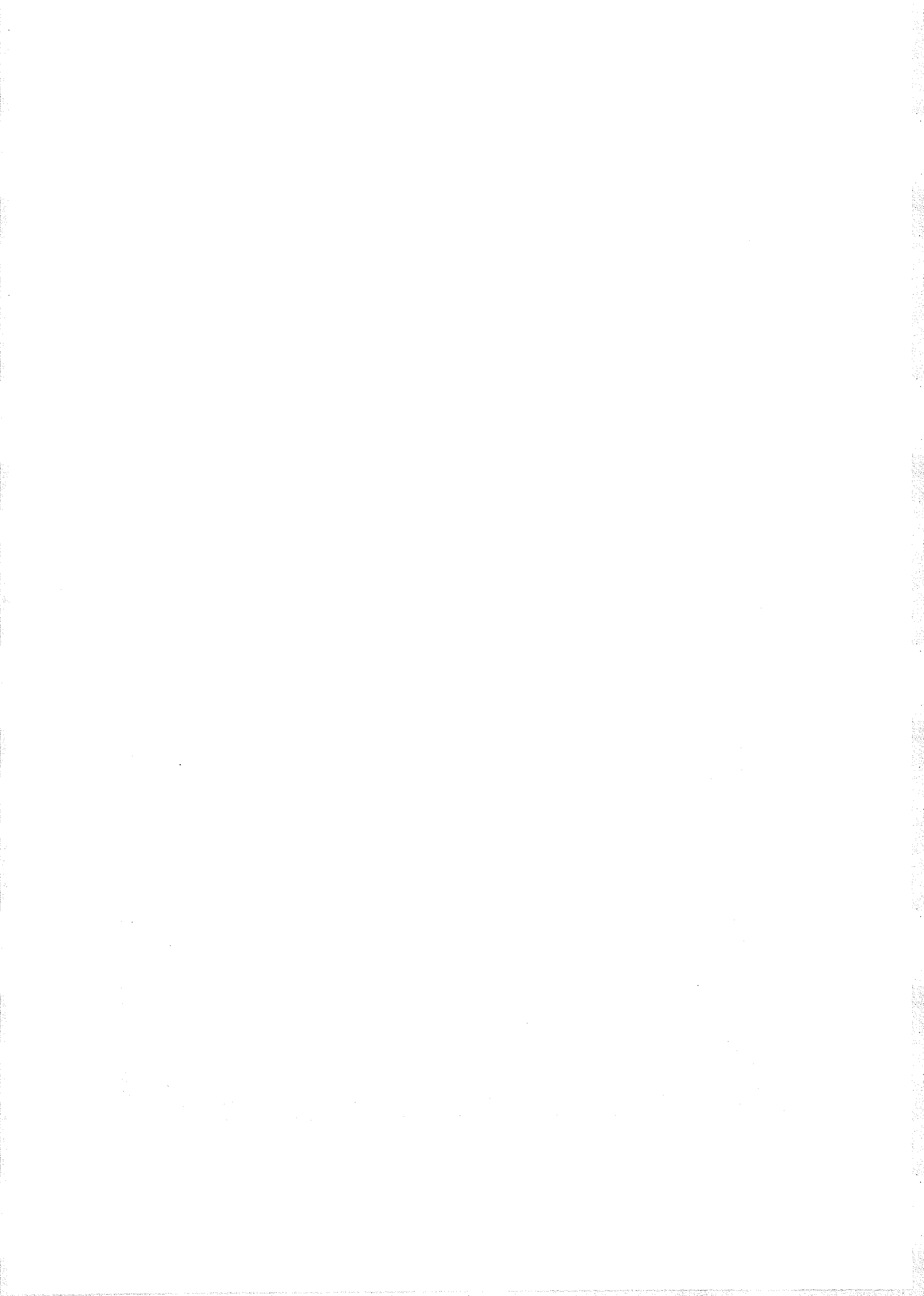
هم القوم إن قالوا أصابوا وإن دُعُوا   أجابوا وإن أَعْطَوْا أطابوا وأجزلُوا
ولا يستطيع الفاعلون فعالَهم   وإن أَحسنوا في النائبات وأجملُوا

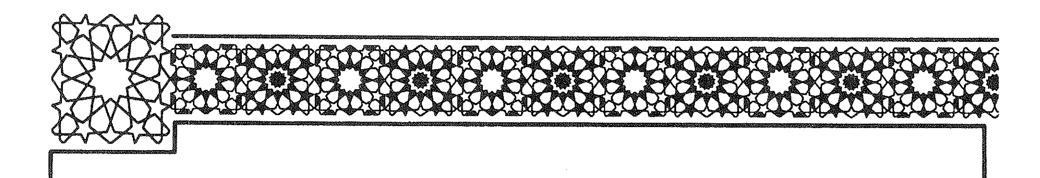
طنجة في ٩ ذي الحجة ١٤٢٤
٣١ يناير ٢٠٠٤
المختار محمد التمسماني
رعاه الله وعفا عنه





تراجم





بسم الله الرحمن الرحيم

ريحانة طنجة:
محمد بن الصدّيق[1]
(١٨٧٨ - ١٩٣٥م/ ١٢٩٥ - ١٣٥٤هـ)

أتى «السيِّدَ»[2] ذات يوم أحد عملاء الإقامة الفرنسية مبعوثاً ناصحاً له أن يكفَّ عن مقاومتها، وألاَّ يعارض سياستها بنقد، ولا يجاهرها بعداء!. وقال له أخيراً في تحذير لا يخلو من تهويل: لقد تألَّب عليك الكلّ، يا

---

(١) عن حياة الشيخ سيدي محمد بن الصديق انظر:
- «سبحة العقيق بذكر مناقب الشيخ سيدي محمد بن الصديق» أحمد بن الصديق - خ -.
- «التصور والتصديق بأخبار الشيخ محمد بن الصديق» أحمد بن الصديق - ط -.
- «نبذة التحقيق» محمد بن العياشي سكيرج - خ -.
- «نسمات وادي العقيق» العربي بوعياد - خ -.
- «حادي الرفيق» محمد بن الأزرق الزياتي - خ -.
- «حياة الشيخ سيدي محمد بن الصديق وجهاده ضد الاستعمار» عبدالسلام بن العربي بوعياد - ط -.

في «مذكرتي» تفاصيل كثيرة عن حياته ومناقبه كنت سمعتها من شيخيّ العلامة الأصولي سيدي عبدالحي بن الصديق، والعلامة المحدث سيدي عبدالعزيز بن الصديق رحمهما الله.

(٢) بهذا اللقب اشتهر الشيخ سيدي محمد بن الصديق وبه ذاعَ صيته.

سيدي، وصرت الآن عدوّاً لليهود، والنصارى، والمسلمين[1]، ولم يبقَ معك سوى الله تعالى!! فأَهنَف «السيد» وقال له: إذاً.. بَقِيَ معي كل شيء، وحُزنا النصر على كل أحد والحمد لله![2]. فرُدِعَ الذي «نصح» وخاب سعيه..

وإني كفيلٌ بالنجاءِ من الأذى لمن لم يَبِتْ يدعو سوى اللّهِ ناصرًا[3]

فمن هو هذا «السيد» الذي هابته الدوائر الاستعمارية، ورشقه بعض أذنابهم بأوضار الاغتياب، وماذقه آخرون في ودٍّ كَذِبٍ وهم يَتَقَتَّرون له؟ ومن هو هذا الذي تداعت له القلوب في وفاء، وخلُصت له النفوس في محبّة، وأكبرتْه في إعجاب، واطمأنّت إليه في أُنْس؟.

إنه الإمام العلامة المجتهد العارف شيخ التربية أبو عبدالله سيدي محمد بن الصديق، يتصل نسبه الشريف بسيدي ابن داود بن إدريس بن إدريس بن عبدالله الكامل بن الحسن المثنَّى بن الحسن السِّبط بن سيدنا علي وسيدتنا فاطمة الزهراء بنت مولانا رسول الله ﷺ..

كان «السيّد» معتدل القامة مع ميل قليل إلى الطول، متوسط الجسم، ليس بالسمين ولا بالنحيف، مستدير الوجه إلى إسالة، كبير العينين أسودهما، في أشفاره وَطَف، واسع الفم، مفلج الثنايا، أبيض اللون مشرباً بالحمرة، كثّ اللحية يخضب بالحنّاء، على جبهته دينار واضح المعالم من أثر السجود، سليم الأعضاء، واسع الصَّدر بعيداً بين المنكبين، يمشي الهَيْدَبى دون التفات يَمْنَة أو يَسْرَة، في عنقه سبحة غليظة حبَّاتها، وبيده عصا طويلة..

كان لأسلافه الشرفاء في مسيرة التاريخ شَأو عريق مع الجهاد والعلم والفضل والتقوى..

---

(١) أي من أهل طنجة.

(٢) «التصور والتصديق» ١٦٩ ـ بتصرف.

(٣) للشريف المرتضى.

ففي أواخر القرن الثاني عشر - الخامس الهجري - قدم من الأندلس أحد أجداده الذين كانوا قد دخلوها غزاة مرابطين في الفتوحات الإسلامية الأولى، وأقام ببيدر بأحواز تلمسان في قبيلة مسيردة المغنية.. وطوى الزمان هناك بعائلته أحقاباً إلى أن برز في أواخر القرن السادس عشر - التاسع الهجري - الولي الصالح الشهير بأبي القَبْرَيْن سيدي عبدالمؤمن الكبير..

وفي أواسط القرن السابع عشر - العاشر الهجري - انتقل حفيده سيدي عبدالمؤمن الصغير إلى شمال المغرب، ونزل بتُجْكَان - إحدى قُرَى قبيلة غمارة - فتبوَّأها مُستقرًّا ومُقاماً، وقد قابله أهلها بكثير من الحفاوة والتَّرحاب.. فذاع فضله، واستفاضت كراماته إذ كان يتحلَّى بأدب الإسلام قولاً وسلوكاً.

ومن تجكان بدأ شريط حياة «السيد».. ففيها رأى النور يوم ٥ رجب ١٢٩٥ (١٨٧٨).. ودخل الكتاب، وحفظ القرآن، وأتقنه بالروايات السبع.. ثم أخذ مبادىء العلم الأولى من أخيه العلامة العارف سيدي القاضي[1] ومن ابن عمه العلامة المحقق سيدي زين العابدين بن محمد المؤذن.

ولم يكد عمره يدنو من عتبة السابعة عشر حتى رحل إلى فاس صحبة والده، ونزل بمدرسة الشراطين في بيت من بيوتها مع طلبة زملاء من قبيلته. وكان من دَماثة طبْعه، ورَضِيّ أخلاقه يخدمهم، ويهيىء لهم الطعام.. وظل شهوراً وهو يتردّد إلى جامع القرويين ويرتوي من حياض علومها.. ونزل به مرض، وأثبته.. وذات يوم وهو طريح الفراش جاءه الإمام العالم المربِّي

---

(١) القاضي بن الصديق: (؟ - ١٣٢٠/ ؟ - ١٩٠٢) علامة محقق متواضع عابد، كريم الأخلاق، منشرح الصدر، سخي. كان خطيباً بمسجد القصبة، يدرس النحو بزاوية أهل تقيت الكتانية بحي دار البارود قبالة دار الشرفاء الوزانيين، ويقرىء الفقه، والبردة، والحكم العطائية بالزاوية الحراقية الموجودة قرب ساحة دار البارود. أخذ الطريقة من الشيخ العارف سيدي الحاج عبدالقادر بن عجيبة دفين قرية الزميج. توفي رحمه الله يوم الاثنين ٢٦ شوال ١٣٢٠، ودفن في الزاوية الحراقية المذكورة.

المرشد سيدي محمد بن إبراهيم[1] ـ أحد شيوخ القرويين ـ وأخذه عنده إلى زاويته، واعتنى به ورعاه. ولما أَبَلَّ من المرض دلَّه الشيخ على مختارات المتون، فحفِظَها وحملها سائغة على طرف لسانه.. ثم سلك به طريق المجاهدة وآداب أهل الصَّفْوة، وأحوال أهل الحق، ليجمع بذلك بين دليل الشريعة وكشف الحقيقة، ويربط بين نور العقل النظري وإشراق القلب الشهودي.. فتراه مُيَمّماً جامع القرويين وهو يذكر الله جهرة في الأزقة، وفي عنقه سُبْحة، وغالباً ما تجده صائماً.. واستمرّ على هذه الحال سنوات ثلاث يوافق بين رسوم العلوم وحقائق المعارف.. بين الشريعة الظاهرة والحقيقة الباطنة.. بين طريق البرهان ومَحَجَّة الإشراق.. بين قرائن المعقول وسرائر الروح وشواهده.. بين التحصيل والتجريد.. بين التدبير والتسليم.. والغاية الغائية من هذه التربية الفذَّة هو أن يتحرَّر من ذاتية «الأنا» ويَنفتحَ على الوجود بفكره وشعوره كي يصبح إنساناً يُحِسّ بسرٍّ هذا الوجود من حوله، وينسجم معه، ويعيشه على هدى من الله..

وتراه في رحاب القرويين ينتقل بين حلقات المجالس العلمية وهو في إصغاء واعٍ، وتفكرٍ عميق فيما يتلقاه من شيوخه الأثبات الجهابذة الذين يعُجُّ بهم الجامع أمثال السادة الأفاضل: محمد بن جعفر الكتاني، وأحمد بن الخياط ـ شيخ الجماعة ـ والفاطمي الشرادي، وأحمد العلمي، وخليل بن صالح الخالدي ـ سيبويه زمانه ـ والكامل الأمراني، وأحمد بن الطيب الفيلالي، ومحمد بن التهامى كنون، والمهدي الوزاني، وأحمد بن الجيلالي، والمأمون العراقي، وإدريس عمور، ومحمد جْنِيوْن، وعبدالملك العلوي الضرير، ومحمد بناني الديوان[2].

---

(١) محمد بن إبراهيم (؟ ـ ١٣٢٦/ ؟ ـ ١٩٠٨) ولد بفاس وبجامعها درس نحو أربعة أعوام، ثم انتسب لطريقة الإمام مولاي العربي الدرقاوي، وتجرد، وأقبل على العبادة. فأوذي وسجن لأنه أبى أن يعود إلى التدريس بالقرويين. وانقطع إلى مريديه يقرأ معهم «تاج العروس» و «التنوير» و «إيقاظ الهمم» و «تفسير الجلالين». كان متواضعاً ساكناً تحت مجاري الأقدار. أقعد في أواخر أيامه وذهبت عيناه. دفن بزاويته.

(٢) ترجم الدكتور عبدالهادي التازي لهؤلاء العلماء وغيرهم في كتابه «جامع القرويين» الجزء الثالث.

وفي سنة ١٨٩٧ ـ ١٣١٥هـ رجع إلى تجكان. ولم يلبث فيها غير أشهر معدودة حتى عاد إلى فاس وقد راودته تجليات اليقين بأن علوم الأذواق لا تؤخذ من الأوراق!. ولزم شيخه في الطريق سيدي محمد بن إبراهيم مُعْتكِفاً في زاويته لا يكاد يبرحها إلا للضرورات.. هي ثلاث سنوات قضاها بين طاعات وأذكار، بين قلب حاضر، وقصد خالص، وهمة صادقة حتى فاضت سرائره وأسراره..

وحلّت سنة ١٩٠٠ ـ ١٣١٨هـ فكانت طفرة تاريخية في حياته: لقد قصد طنجة حيث خاله الوليّ الصالح سيدي عبدالحفيظ بن أحمد بن أحمد بن عجيبة الذي زوّجه ابنته الفاضلة الجليلة السيدة فاطمة الزهراء شريطة أن يقطن مدينة طنجة، فنزل عند رغبته واتخذها داراً.

وبدأ «السيد» حياة جديدة، في مجتمع جديد..

وشرع في نشر علومه بين الناس، وكان له قَدَمٌ راسخ في الفقه والأصول والكلام والتصوف والتفسير والحديث والنحو والصرف والبلاغة والمنطق والتاريخ والجغرافيا[1] والتراجيم والطب والأنساب والسياسة الشرعية وسرّ الحرف وخواص الأسماء.. هذه العلوم اجتذبت الناس إليه، وتهافتوا على شهود مجالسه.. مجالس يسمعون فيها ما لا عهد لهم به من رقائق تنفذ إلى صميم الأفئدة، ودقائق تهتزُّ لها الأفهام باستشهاداتها وبراهينها.. مجالس تُثْري العقول في إقناع، وتُنعش النفوس في مَطيَبَة وسَلْوة.. مجالس يفيض فيها «السيد» إرسالاً بتحقيقات علوية كأنه القطر ينساب أناقة ونصاعة، لا يلوك الكلام، ولا يتلعثم، ولا ينطق إلا بعربية فصيحة رصينة لا تتداخلها كلمة عامية، ولا رتيبة من حواشي الخطاب والاستدراك، اللهم إذا نبَّه فيرسل تلك القالة السائرة وهو يصفق بيده: رُدّ بالك!. هي مجالس ترى فيها كيف يَمتزج التوجيه الصوفي الحق بالعلوم الظاهرة في تكامل وتناسق

(١) أخبرني شيخي العلامة المحدث الكبير سيدي عبدالعزيز بن الصديق رحمه الله أنه كان شغوفاً بعلم الجغرافيا، فكان يسأل «السيد» والده عن مواقع البلدان ومناخها وكبار رجالاتها فيجد عنده الجواب الراسخ الدقيق.

جنباً بجنب.. وكيف يتمخَّض عن هذا التلاحم توازن عجيب كان له أثر في حياة الناس العملية، وفي سلوكهم.. مجالس هي صورة حيّة ناطقة بمنهجية مدرسة جديدة قائمة الذات، لها أتباع من مختلف الطبقات رجالاً ونساءً، هي المدرسة الصديقية التي تمتاز بالوسطية السلفية عقيدة وتربية.

أَحيَا قلوبَ العالمين بعلمهِ　　　وعن النُّهَى ظلماتِ الجهلِ قد نَفَى[1]

ولنصغ قليلاً إلى شاهد عيان لهذه المجالس، هو العلامة الأديب الشاعر الخطيب أستاذنا الجليل سيدي محمد كنون[2] رحمه الله، يقول:

«..حضرت مجلسه ذات يوم في زاويته ليلة المولد الشريف، وهو يشرح حديث الصحيح: «كلمتان حبيبتان إلى الرحمن، خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم..» فأتى بالعجب العجاب، واستمر يملي من حفظه نحو الساعتين كأنما يقرأ في كتاب، فقلت: تبارك الخالق الوهاب، يُؤْتي الحكمة من يشاء، ومن يُؤْتَى الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً وما يذكر إلا أولوا الألباب. ورحم الله ابن مالك إذ يقول: وإذا كانت العلوم مِنَحاً إلٰهية ومواهب اختصاصية، فغير مستغرب أن يدّخر لبعض المتأخرين ما عَسُر على كثير من المتقدمين»[3]..

ولعلك تسأل، قارئي الكريم: متى انطلقت هذه المجالس، وكيف نشأت، وما هو أُسّ منهجها؟.

بدءاً أخبرك أن «السيّد» لما نزل طنجة كان يجالس معارفه بدكان

---

(١) من قصيدة للأديب الشاعر الموهوب سيدي عبدالله بن الهاشمي الوزاني (؟ - ١٩٤٣) ولد بطنجة وفيها توفي. ضاع كثير من شعره الذي كان يجيش به خاطره سجية وعفوية.

(٢) محمد بن عبدالصمد كنون (١٣١٥ - ١٤١١/ ١٨٩٧ - ١٩٩٠) علامة أديب شاعر خطيب. ولد بفاس، وانتقل مع والده وعمه في هجرتهما إلى طنجة سنة ١٩١٤. من مؤلفاته: «نفحات الأزهار في بدائع الأشعار» قصائد و «حقيبة الفوائد للأولاد والحفائد» و «مواكب النصر وكواكب العصر».. توفي بطنجة.

(٣) «مواكب النصر وكواكب العصر» ص٣٨.

الرجل الصالح سيدي محمد الجزيري[١]، رفيق أخيه العلامة سيدي القاضي بن الصديق، فيذاكرهم ويلقنهم ورد الشاذلية. ولما كثر عليه جمعهم وضاق بهم الدكان اختار الزاوية الحراقية بدار البارود مقرًّا لمجالسه.. وشرع يقرأ معهم «رسائل» جدّه الإمام سيدي أحمد بن عبدالمؤمن[٢]، و «رسائل» القطب مولاي العربي الدرقاوي[٣]، و «العهود» للعارف الشعراني، و «المباحث الأصلية» لابن البنا بشرح[٤] العارف سيدي أحمد بن عجيبة[٥]، وجملة تفسيره من «البحر المديد» وشرحه للحكم العطائية. وظل بهذه الزاوية تدريساً ومذاكرة إلى سنة ١٩٠٨ ـ ١٣٢٦ حيث بنى زاويته الواقعة بطريق القادرية، وانتقل إليها.

---

(١) محمد الجزيري (؟ ـ ١٣٢٤/ ؟ ـ ١٩٠٦) زاهد ناسك عفيف سليم الصدر سخي. كانت له دنيا في أول أمره، فزواها الله عنه، فكان يعيش بكدّ يده في صنع النعال بدكانه راضياً بقضاء الله، لا يفتر لسانه عن الصلاة على مولانا رسول الله ﷺ وقراءة دليل الخيرات. أحب «السيد»، فكان يشاطره ما يرزقه الله من مال. توفي بطنجة.

(٢) أحمد بن عبدالمؤمن (١٢٠٠ ـ ١٢٦٢/ ١٧٨٥ ـ ١٨٤٥) علامة عابد عارف كبير. أعجوبة عصره، تلميذ مولاي العربي الدرقاوي. له كرامات شهيرة. دفين تجكان. ترجم له الإمام الحافظ سيدي أحمد بن الصديق في كتاب أسماه: «المؤذن لمناقب سيدي أحمد بن عبدالمؤمن» ـ خ ـ.

(٣) العربي الدرقاوي (١١٥٠ ـ ١٢٣٩/ ١٧٣٧ ـ ١٨٢٣) إمام صوفي كبير مجاهد. دعا إلى تصوف عملي سلفي. شارك في محاصرة مدينة سبتة المغربية السليبة سنة ١٢٠٥هـ. زاره غير ما مرة بقبيلة بني زروال الأمير عبدالقادر الجزائري قبل ثورته. واتصل به مولاي العربي بالجزائر وأخذ منه البيعة الشرعية للسلطان مولاي سليمان ـ هو شيخ سيدي محمد الحراق ومولاي أحمد بن عجيبة. ضريحه مزار شهير ببو بريح ببني زروال.

(٤) المسمى «الفتوحات الإلٰهية في شرح المباحث الأصلية» ط .دار الشباب للطباعة ـ ١٩٨٣.

(٥) أحمد بن عجيبة (١١٦٠ ـ ١٢٢٤/ ١٧٤٧ ـ ١٨٠٩) الإمام الصوفي الجليل العارف الورع المفسر، أخذ العلم بالقصر الكبير وتطوان وفاس ثم قام بالتدريس. تنسك على يد تلميذ مولاي العربي الدرقاوي الشيخ العارف سيدي محمد البوزيدي.. من مؤلفاته: «البحر المديد في تفسير القرآن المجيد»، و «إيقاظ الهمم في شرح الحكم» و «أزهار البستان في طبقات الأعيان» و «الفهرسة».. ضريحه شهير بقرية الزميج من قبيلة أنجرة.

وتراه في الصباح يقصد المسجد الأعظم، فَيَحومُ حوله طلبة العلم ويتكدسون ليسمعوا جولاته الدقيقة في «لامية الأفعال»، وغوصه العقلاني في مسالك «المنطق». ثم قبل الظهر بساعة ونصف يشرع في درس «ألفية» ابن مالك بشرح المكودي، فيضيف ويعلق ويطرح نوادر نحوية قلَّما ينص عليها كتاب.. وينتقل بعدها إلى «مختصر» خليل، فيستبحر في تبسيط غوامضه، وبيان مسائله تحريراً واستقصاءاً إلى أن يؤذن للظهر. فتراه، بعد الأذان، يقوم من مجلسه ويصعد الكرسيّ، وينطلق في قراءة «صحيح البخاري» تعظيماً للحديث النبوي الشريف، فيعتريه جلال يُضْفِي على الدرس مهابةً وتبجيلاً..

تأمَّل إمامَ العلم آية حِفظه ... كبَدرٍ على الكرسيّ يُضيء على الصَّحْبِ
وقد أجلس ابنيه العزيزين قُربه ... كما هو شأن الفَرقدَيْن مع القُطْبِ[1]

ويعطي إشارته للسارد السيد العربي التمسماني[2]، فيروي الحديث.. ثم ينطلق «السيد» في الشرح، فيُفِيء عليه ظلال العلوم والحكم، فيبهر عقول الحاضرين من علماء وفقهاء وأعيان وطلبة وعوام، ويملك قلوبهم، ويستعبد أسماعهم، وكل ينشد منه ليلاه! ثم يربط «الصحيح» بـ «شمائل الترمذي» ربطاً متقناً محكماً قبل اختتام الدرس..

وهذه الفيوضات في علوم الصرف والمنطق والنحو والفقه والحديث والسيرة إنما يمليها «السيد» ـ كما لاحظت دون شك ـ في مجلس واحد تتواصل حلقاته على مدى أربع ساعات فأزيد، وتتعاقب آخذة كل حلقة بذيل أختها في سَعَة اطلاع، وقوة حُجّة، وسرعة استحضار!.

---

(١) هما للشاعر سيدي عبدالله بن محمد الهاشمي الوزاني في «التصور والتصديق» ١٧٦. وابناه اللذان بقربه هما الإمامان سيدي أحمد وسيدي عبدالله رحمهما الله.

(٢) العربي التلمساني (١٢٩٩ ـ ١٣٨٩/ ١٨٨١ ـ ١٩٦٩) عالم فاضل أديب. عين في الخامسة والعشرين من عمره كاتباً في اللجنة المكلفة بتتميم أشغال مؤتمر الجزيرة الخضراء بطنجة، ثم تولى منصب باشا طنجة فقاضيها. له شعر في الإخوانيات والمدح، ومؤلف أسماه: «التنويه بقدر النبيّ الكريم في آي الذكر الحكيم» وتقييدات ومجموعة خطب. توفي بطنجة وقبره بضريح سيدي محمد الحاج بوعراقية.

بَنَيْتَ لعلم الحقّ بُنيانَ واصلٍ   مُدَاوٍ لِداءِ القلب نافي الشدائدِ
وقمتَ بعلم الفقه حفظاً محرراً   وعلم أصولٍ مع دليل العقائدِ
وعلم الحديث والفنون جميعِها   ونحوِ اللسان والحروف الزَّوائدِ
أتيتَ لعلم الشرع والحق ناصراً   فأنت بهذا العصر قُطبُ الأماجدِ[1]

وسِرّ سموّ هذه الفيوضات التي قلّما تُطاوَل أن «السيد» ـ بقطع النظر عن غزارة علومه وتضلُّعه ـ يعيش درسه قلباً وقالباً: ينشرح في تلذذ لما يقرره، وينبسط في نشوة لما يحرره وكأنه في حضرة قدسية.. يمعن في التحقيق ويتبحَّر، ويغوص حتى يُجلي مَخابِئَ المسائل، ودخائل فروعها ومقاصدها..

عجيبٌ يُشَمُّ النِدُّ من جميع درسه   وما نظرتْ عينٌ لدرسه من نِدِّ[2]

وأما عن مجلسه في التفسير فيكفيك دليلاً على غزارة مادته وتعمقه، واستقرائه، وإشاراته، وحفظه أنه استغرق طيلة شهر رمضان يقرر في فاتحة الكتاب ولم يَتَعَدَّ قوله عز وجل: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾!.

وإزاء مجالسه العلمية ومذاكراته العامرة كان يخطب بالزاوية الناصرية.. وحدثني شيخي الإمام العلامة سيدي عبدالحي بن الصديق ـ تغمده الله برحمته ـ أنه كان عذب الإلقاء، مؤثراً، كأن الحكمة تتدفق ينابيع من لسانه الفصيح الطليق، فتنساق معه القلوب في رضًى، وتسكن إليه في يقين..

وخطابه يَشفي النفوس كأنَّما   من لفظِه الدرُّ النفيس تألَّفَا
تزداد إيماناً برؤية وجهِه   فكأنَّ ناظرَه يُطالع مصحفَا[3]

---

(١) الأبيات من قصيدة للأديب الشاعر محمد بن الشيخ القاضي في «التصور والتصديق» ١٧٧.

(٢) للشاعر سيدي عبدالله بن محمد الهاشمي الوزاني ـ المصدر السابق ١٧٦.

(٣) نفس المصدر.

أجل، هو:

بليغٌ فلا سَحْبانُ يوم لقائه خطيبٌ ولا قسٌّ له بمُعاندِ[1]

ودَعْنِي أخبرك بما حدثني به الفقيه العدل الفاضل السيد الصديق الفتوح[2] أن عمه الوجيه السيد أحمد الفتوح[3] لما سمع «السيد» - وهو على منبر الخطابة - أخذته هزة وأريحية. فما أن قضيت الصلاة حتى تقدم إليه وأخلى بين يديه كل ما في كيسه وانصرف!.

خطبه.. كانت بنت الساعة، تجاري الأحداث وتسايرها.. فكم نبَّهت في تحذير على مخاطر زَحْف الغرب في غارة مبيتة على الأمة الإسلامية.. ولْنُطِلَّ، قارئي الكريم، لحظة على سجل التاريخ، هناك حيث يخبرنا الإمام الحافظ سيدي أحمد بن الصديق، رحمه الله، فيقول:

«..أرسل الفرنسيون قبل احتلالهم المغرب بعض الشياطين من أذنابهم إلى طنجة، ففتحوا بها مدرسة لتعليم الأولاد اللغة الفرنسية توصلاً بذلك إلى ما بعده. فسارع بعض المغرورين الراغبين في الدنيا إلى إدخال أولادهم فيها، فلما علم الشيخ بذلك خطب خطبة بليغة حذر فيها المسلمين من إدخال أولادهم مدارس النصارى، وبيَّن ضرر ذلك في الدين، وما يترتب عليه من المفاسد في الاعتقاد والأخلاق ومصالح البلاد، وبالغ في ذلك وأطنب وأطال.. فأثرت خطبته في الناس، وسارع جلّ من أدخل

---

(١) نفس المصدر - وسحبان وائل وقسّ بن ساعدة من كبار الخطباء الفصحاء، يضرب بهما المثل في البيان والحكمة.

(٢) الصديق الفتوح (١٩١٣ - ١٩٨٩) تولى وظيفة خليفة القاضي الشرعي بدار النيابة. كان أنيقاً في هيأته، ظريفاً، محبوباً، صاحب نوادر. أفردت له في كتابي «في رياض الأجوبة» كثيراً من لطائفه. له صوت رخيم مطرب متميز في حلقات الذكر والعمارة. توفي عزباً ودفن بجوار السيدة والدته - خالتي - بالزاوية الحمدوشية.

(٣) أحمد الفتوح (؟ - ١٩٣٤) فاضل جليل ديّن، فيه جدّ، سخي، له مكانة وكلمة في الأوساط، يقضي حوائج الناس ويشفع لهم عند ذوي السلطة، عمل كاتباً بالقنصلية الإنكليزية. كان بينه وبين «السيد» صحبة وتبجيل. مات عزباً ودفن بالزاوية الصديقية.

أولادهم المدرسة إلى إخراجهم منها، فاغتاظ لذلك سفير فرنسا، واحتَدَّ غضباً لأنها أول بذرة بذروها في المغرب لحصد الشر والفساد منه، فأفسدها عليهم الشيخ بخطبته.. فأرسل إلى الباشا ـ وهو حاكم المدينة ـ يأمره بعزل الشيخ من الخطبة، ويتوعّده بما لا تحمد عقباه إن لم يفعل، فداخله رعب شديد، وكانت فرنسا إذ ذاك متحفزة للوثوب على المغرب. فأرسل الباشا بعض أعوانه إلى الشيخ يطلب منه القدوم ليكلمه في ذلك، فلم يصل إلى الشيخ حتى شاع الخبر في الناس بأسرع من لَمْحِ البصر. فاجتمعوا وتوجهوا إلى الباشا والشيخ معهم. فلما وصلوا إلى المحكمة شرعوا في قراءة سورة «الفتح» بلسان واحد، رافعين بها أصواتهم. فارتجت المحكمة، ودهش الباشا، وبقي في انتظارهم إلى أن ختموا السورة، فقال: ما مرادكم؟. فقالوا: أن يبقى الشيخ على حاله ولا يُعزَل من الخطابة، وطَلَبُ فرنسا لذلك تَدَخُّلٌ منها فيما ليس هو من شأنها، بل من شأن ديننا ونحن أحرار فيه!. فأجابهم بالموافقة.. ثم أقبل على الشيخ وأخبره بما ألزمه السفير المذكور وما توعَّده به مع ما عنده من أوامر السلطان بمراعاة سفراء الدول.. وبالغ في الاعتذار، فقَبِل الشيخ عذره، وانصرف مكرماً معززاً مستمراً على خطابته إلى أن تركها بعد ذلك باختياره.. فكانت هذه القضية أول حجر في أساس الخلاف بين الشيخ وفرنسا..»[1].

إنه الجهاد.. جهاد ذاق منه «السيد» الأَمَرَّيْن لأنه قاوم في صمود ويقظة محاولات التغريب والسطو مقتفياً بذلك سيرة الطريقة الدرقاوية التي تميزت منذ نشأتها بثوراتها المتواصلة ضد أي غَزْوٍ أجنبي[2].. جهاد قوض مضجع فرنسا في حبك نسيج سياستها بطنجة، كانت له بالمرصاد، وكان لها عدوّاً لَدُوداً لا يكترث لترهيبها، ولا يعبأ بترغيبها، بل يُبَكِّتُها بتصرفاته وأقواله.. حقاً، لقد جاهد وقاوم، وما وني وما استكان كلما وجد إلى ذلك سبيلاً!.

---

(١) «التصور والتصديق» ٢٩ ـ ٣٠.

(٢) انظر على سبيل المثال الباب الرابع من كتاب «إشكالية إصلاح الفكر الصوفي في القرن ١٨ و١٩» عبدالمجيد الصغير.

وفي سنة ١٩٠٤ (١٣٢٢هـ) عقد العزم على زيارة شيخه سيدي محمد بن إبراهيم بفاس، فرحل بحراً إلى العرائش، ثم بَرًّا على البهائم مروراً بالقصر الكبير. . كما قصدها في رحلة أخرى سنة ١٩٠٦ (١٣٢٤هـ).

وجاءت سنة ١٩١١ (شعبان ١٣٢٩) فتوجه إلى الحجاز لأداء فريضة الحج في رفقة ضمت تسعة وعشرين من أصحابه. فأبحروا من طنجة إلى جبل طارق، فالجزائر العاصمة، فجينوه - حيث مكثوا فيها يومين - فبور سعيد. وهنا منعوا من دخول مصر لأنهم حجاج من الدرجة الثالثة وليسوا بتجار[١]! . فأيمنوا مضطرين من البحر الأحمر نحو عدن، وفيها قضوا تسعة أيام، ثم توجهوا إلى مصوع[٢]، وظلوا فيها ثمانية عشر يوماً حيث قضوا عيد الفطر. ثم إلى جدة، فمكة المكرمة وقد وصلوها في نصف شوال، وأقاموا فيها شهرين كاملين حيث مناسك الحج. وكانت وقفة عرفة هذه السنة يوم الجمعة! ثم قصدوا المدينة المنورة، ودخلوها في فاتح محرم ١٣٣٠. وأَلَبُّوا بها ثلاثة أشهر. ثم ذهبوا إلى الشام، فبيروت، فالقاهرة التي أقاموا فيها مدة أربعين يوماً. وتوجهوا بعدها إلى بور سعيد، فظلوا بها قرابة شهر[٣]. . ثم أبحروا عائدين إلى طنجة. . كانت رحلة شاقة مضنية غير أنهم ما حلوا بمدينة - بعد بور سعيد - إلا كانوا محطّ عناية وتكريم من قبل العلماء والأعيان تبجيلاً لإمامة «السيد»، واعترافاً بمكانته العلمية السامقة. . وممن اجتمع به من كبار أعلام الإسلام الشيخ الإمام محمد بخيت - مفتي الديار المصرية - والعلامة الشاعر الشيخ يوسف النبهاني، والشيخ أحمد رافع الطهطاوي مسند القطر المصري وغيرهم كثير. .

وعاد «السيد» إلى طنجة، فصادفت عودته إبرام معاهدة الحماية مع فرنسا التي وقعت في ٣٠ مارس ١٩١٢.. دهمه هذا الأمر، وصدمه، فاغتم له. .

وبدأت وقتئذ مرحلة جديدة من حياة الشيخ. .

---

(١) انظر تفاصيل هذا الحدث في «نسيم وادي العقيق» ط٨٣. فما بعد.

(٢) مصوع: مدينة ساحلية بإيرتريا، قريبة من أسمره العاصمة.

(٣) بهذه المدينة في ١٣ جمادى الأولى ١٣٣٠ ازداد «للسيد» ولد هو العلامة الداعية الشيخ سيدي محمد الزمزمي رحمه الله.

وقامت الحرب العالمية الأولى.. وحركت ألمانيا خيوطها السياسية تُجاه فرنسا في المغرب تحت غطاء الدعوة إلى الجهاد ضد دولة غازية كافرة، وذلك بواسطة السلطان المولى عبدالحفيظ الذي كان وقتئذ مقيماً بإسبانيا بعدما تنازل عن العرش في ١٤ غشت ١٩١٢.. فأرسل إلى «السيد» وأبلغه نوايا الحكومة الألمانية في دعم ثورة إسلامية ضد المستعمر الفرنسي[١].. وفي خِضمِّ المناوشات السياسية ـ والحرب على أشدها ـ ارتأى «السيد» أن يسافر إلى غمارة، فتعرضت الإقامة الفرنسية لمراده لأنها تعلم مدى قوة نفوذه في هذه القبيلة المجاهدة، وتخشى وخيم مغبة التمرد المسلّح ضدها.. مانعت وتصلبت في المنع.. واستقرَّ هو على عزمه وأصرّ.. فتراقت الأزمة، واشتدت بين الإدارة الفرنسية ومحيط «السيد»، ووقعت حوادث.. وإذا بالفقراء الصديقيين يقتنون أسلحة أعدُّوها ليوم خروج «السيد» إلى غمارة في حالة تعرضه لمكروه من قبل الشرطة الفرنسية.. وتصاعد التوتُّر، وأنذر بكارثة.. وإذا بمراسلات تجري بين الصدر الأعظم بالرباط وبين «السيد»، وإذا بإذن سلطاني يخول له السفر إلى غمارة وذلك في يوليوز ١٩١٥ (شعبان ١٣٣٣)[٢].. فسافر وأقام بها مدة ثمانية أشهر.. وقابل بتطوان المندوب السامي الإسباني في شأن مصالح سكان هذه القبيلة..

وبرًا بالتاريخ، أرى ـ قارئي الكريم ـ أن نلقي السمع إلى ذاك الحوار الذي دار بين «السيد» والمندوب الإسباني في هذا اللقاء لنكون على بصيرة من واقع الأمر:

«.. قال المندوب «للسيد»: نحن يبلغنا أنك تأخذ المال من الفرنسيين لتكون ضدنا!. فقال له «السيد» في حذاقة الخاطر وعزة المؤمن: وهل آخذ منكم مالاً؟. قال: لا.. قال: فكذلك لا آخذ منهم لأنهم يقولون أيضاً:

---

(١) محاولات كثيرة أعدها المولى عبدالحفيظ لالتقائه «بالسيد»، فما أفلحت. انظر بعض تفاصيلها في «التصور والتصديق» ٣٧، ٣٨.

(٢) تفاصيل هذا التوتر ونص المراسلات في المصدر السابق، ٣٧.

إني آخذ منكم لأكون ضدهم، فإن كان زعمهم أني آخذ منكم المال حقًا فيمكن أن يكون ما تقول حقًا أيضاً، وحيث إنك تعلم أني لا آخذ منكم شيئاً وأن زعمهم باطل فكذلك زعمكم أيضاً باطل!»[١].

هذه حقيقة تاريخية ترفع عن «السيد» إِصْرَ الأقاويل والأراجيف التي روّجها أذناب الاستعمار، ونقموها عليه.. كما أطلقها مكيدة فيه خصومه وخصوم الحركة الإسلامية السلفية التي لا يحاربها إلا كل أَفَّاك أثيم مُراوغ خدَّاع، صاحب دنيا لا غير!. هي ذي الحقيقة، وكل كلام يأتي بتحويرها أو تأويلها إنما هو قالة سوء ووَهْم فارغ أجوَف، وقصد أَزْرَف منخور!. فقل لي بربك:

كيف يستقيم «للسيد» أن يُثْنِيَ كفَّه على «ريال»[٢] خبيث أو «فرنك»[٣] وسخ، وهو يعلم علم اليقين أن ما مسَّ أحد نقود المستعمر في قصد غير مشروع إلا ببذل عرضه، وإذالة وجهه، وإهانة كرامته، وخيانة وطنه؟!.

الحرُّ يأبى أن يبيعَ ضميرَه ... بجميع ما في الأرض من أموالِ
ولَكَمْ ضمائرَ لو أُريد شراؤُها ... مُلِكَتْ وأغلاها بِرُبْعِ رِيالِ
شتَّانَ بين مُصَرِّح عن رأيه ... حرٌّ وبين مخادعٍ خَتَّالِ
يرضَى الدناءةَ كلُّ نَذْل ساقطٍ ... إن الدناءة شيمةُ الأنذالِ[٤]

وكيف تَشِفُّ نفسه إلى مثل هذا المكسب الحقير وهي دائماً تردّد:

إذا ما مَدَدْتُ الكَفَّ الْتَمِسُ الغِنَى ... إلى غير مَن قال: اسألوني، فَشُلَّتِ[٥]

---

(١) نفس المصدر، ٣٣.

(٢) ريال real: عملة إسبانية تساوي خمس بسيطات، والبسيطة peseta هي أيضاً عملة إسبانية.

(٣) فرنك franc: عملة فرنسية.

(٤) للشاعر الإسلامي محمد الفراتي - بتصرف في البيت الثاني.

(٥) للشيخ الصوفي إبراهيم الخواص (؟ - ٩٠٣/ ؟ - ٢٩١هـ) في «طبقات الأولياء»، ١٩.

وكيف وهو يعلم أن حلال الدنيا حساب وحرامها عذاب؟![1].

وكيف وهو يعلم أن العالم طبيب الدين، والدنيا داء الدين. فإذا كان الطبيب يجرّ الداء إلى نفسه فمتى يبرىء غيره؟![2]. وهو الذي كان يقول لمريديه: لا تمنعوا العصاة من التقرب إلينا، ومن دخول الزاوية، إنما هم مرضى ونحن أطباء!.

وكيف وهو الذي صان نفسه بالمراقبة، والمجاهدة، والإخلاص قولاً وعملاً، وشعاره: الله معي، الله ناظرٌ إليّ، الله شاهدٌ عليّ؟!.

وكيف وما كان المال في نفسه ربًّا، وما كانت للدنيا في قلبه هوًى، وما كان لجراثيم الطَّمَع في مقاصده سبيل؟!.

وكيف يتذلل وقد عُرف عنه أن في أخلاقه عفَّةً ونزاهة وطهارة ومروءة لا ترقى إليها أدنى ظِنَّة؟!.

وكيف وهو لا يفتر يدعو الناس في مجالسه وخطبه إلى مقاطعة المناصب الحكومية الاستعمارية لأنه حرام على المسلم مساعدة الكافر أو إعانته على أخيه المسلم، أو مسالمته وهو حَرْبٌ عليه؟!.

وكيف وقد تعرض مرتين للاغتيال من قبل أذناب الاستعمار وخونة الوطن، إحداهما بمدشر الزمِّيج، وأخرى بمدشر بني مجمل حينما كان يحاول أن يؤسس خلية جهادية تقاوم المحتل الفرنسي والإسباني على السواء؟![3].

وكيف.. وكيف.. ترى، هل يحتاج ضياء الشمس إلى شهادة أحد؟.

---

(١) من كلام الحارث المحاسبي (؟ ـ ٨٥٧) صوفي كبير وواعظ مؤثر مبكي ـ له عدة مؤلفات.

(٢) من كلام الفضيل بن عياض (٧٢٣ ـ ٨٠٢/ ١٠٥ ـ ١٨٧هـ) أحد الشيوخ الأقطاب في: «الفتوحات الإلهية». مقدمة.

(٣) انظر كتابات الدكتور سيدي محمد الحبيب التجكاني عن الحركة الجهادية بمنطقة تجكان.

ورجع «السيد» إلى طنجة بعد هذا الغياب الطويل في غمارة، ولم يسترح غير أيام معدودات حتى شرع في قراءة صحيح البخاري:

محدثُ عصرٍ عاد والعودُ أحمدُ لدرس حديثِ المصطفى خيرِ من يهدِي[(١)]

وصار يتعرض لمكانة الجهاد، وأنه ذُرْوة سَنام الإسلام، ولباس التقوى إذ: «**ما تركه قوم إلا عَمَّهُم الله بالعذاب**»[(٢)] . . و . . «**سلَّط عليهم ذُلاً لا يَنْزِعُه حتى يرجعوا إلى دينهم**. .»[(٣)] و . . شَمَلَهم البلاء ودُيِّثوا بالصَّغار والقَماء[(٤)] . . وتسمعه ينادي بالذَّوْدِ عن دار الإسلام من احتلال صليبي، من حضارة كافرة، من حماية باغية، ويستنهض هِمَم الناس إعلاءً لكلمة الله، وفداءً لوطن مغتصب. . تسمعه ونفسه تتأجج حمية إسلامية وطنية ضد كل غازٍ أجنبي، حمية بعثها الشيخ مولاي العربي الدرقاوي شعْلة لا تخمد في نفوس مريديه يحملونها جيلاً بعد جيل بأن العزة لله ولرسوله وللؤمنين، وأن هذه العزة هي أشد وطْأً على الغزاة الأعداء الذين لا مهادنة ولا مصافاة معهم!.

جاهر «السيّد» فرنسا بالعداء، وحمل على مكاييدها يكشفها، وعلى مخازيها يفضحها، ويدعو عليها بالدمار والهلاك، والناس يؤمِّنون، ولسان الشاعر يردد في احْتِدَام:

هبُّوا لخدمته يا أهلَ بلدته قوموا لدعوته يا قومَه قومُوا[(٥)]

واشتد النزاع بين أنصار «السيّد» ومحبيه، وبين أتباع الطاغوت الفرنسي وأصفيائه. . وامتد حبل النزاع قرابة أربع سنوات.

---

(١) «التصور والتصديق» ١٧٦.

(٢) حديث رواه الطبراني «الترغيب والترهيب» ج٢/٣٣١.

(٣) من حديث رواه أبو داود وغيره ـ نفس المصدر ٣٢٩.

(٤) من خطبة لسيدنا علي كرم الله وجهه. ديثه: ذلّله، القماء: التحقير. نفس المصدر ٣٤١.

(٥) «التصور والتصديق» ١٧٨.

وحلت سنة ١٩١٨ (١٣٣٧هـ) وإذا بمكيدة تحبك ضد «السيد» بيتها كبار المسؤولين عن شبكة المخابرات الفرنسية ليتخلَّصوا منه على أساس أن. . «الدرقاويين متعصبون لا يتفاهمون معهم، وأنهم أصحاب نظام خطير، نجدهم غالباً وراء كل العمليات المدبرة ضد الحكم. .»[١] وتسديداً لهذه المكيدة دعوا ثلّة من «أعيان البلد» إلى اجتماع بمسجد القصبة قدم لهم خلاله باشا المدينة عريضة هي شكوى بتصرفات «السيد» ومريديه، مدعية أنها تخل بالأمن، وتثير الفوضى، وتفتح باب الفتن!! فذيلت بتوقيعاتهم، ورفعت إلى الحضرة السلطانية بالرباط. . وإذا كان التاريخ لم يَكشف لنا ما أسفرت عنه هذه العريضة ـ عريضة الخزي والعار التي حامت حولها تكهنات وتخرصات ـ فقد حدثنا أن «السيد» اتخذ موقفاً حاسماً لم يَجْر في خاطر أحد البتة: لقد قرّر أن يلزم بيته ويشغل بنفسه، وقال لمن حوله: لقد حملنا لأجل طنجة أثقالاً جساماً، فالآن أنزلناها من ظهرنا واسترحنا، وتركناهم في خوضهم يلعبون![٢]. وكأن لسان حاله يردد:

تحاملتِ العِدَا جَوْراً علينا وتَمَّ لها اتحادٌ واتفاقُ
ومُنْكَرَ قولِها فينا تعاطتْ وفحواه اختلافٌ واختلاقُ[٣]

ويقول:

سَلِّمْ على الخلق وأرْحَلْ نحو مَولاكَا واهجرْ على الصِّدق والإِخلاص دُنياكَا[٤]

ومنذئذ لم يخرج إلى زاويته، ولم يلق درساً، فخسر الناس خيراً كثيراً، وفقدوا ركناً متيناً مكيناً!.

---

(١) «إشكالية إصلاح الفكر الصوفي. .» ٤٧.
(٢) انظر تفاصيل هذه المكيدة في «التصور والتصديق» ٤١ بما بعد.
(٣) من قصيدة للفقيه الأديب الشاعر الحاج الطيب عواد (١٨٦٤ ـ ١٩١٩) في «شعراء سلا» للحاج أحمد معنينو، ٢٢.
(٤) ليحيى بن معاد الرازي (؟ ـ ٨٧١/ ؟ ـ ٢٥٨هـ) أحد كبار الوعاظ وشيوخ التصوف. «طبقات الأولياء» ٣٢٣.

منذئذ استهلت مرحلة أخرى من حياة «السيد» كانت بداية نهايتها.

هي عزلة.. امتدت سبعة عشر عاماً إلى يوم وفاته.

عزلة.. علَّه أراد أن يطبق بها أصلاً من أصول التصوف، ألا وهو: الإعراض عن الخلق إذ لا أسلم من الوحدة![1].

عزلة.. لم يبرح بيته خلالها إلا مرات معدودات، منها بوجه خاص:

- سفره لحضور مؤتمر الخلافة الذي انعقد بالقاهرة في ١٣ ماي **١٩٢٦ (١٣٤٥هـ)** بدعوة ملحة من الحكومة المصرية، مؤتمر كان قبلة رجاء المسلمين.. حضره «السيد» لأنه كان جميل الظن بنتائجه، يرجو أن تتوحد كلمة المسلمين، وتتقوى صفوفهم وقد اعتراهم ضعف وهوان وتفكك وانحلال.. كان يرجو أن يعيدوا مجدهم التليد في ظل خلافة إسلامية حقة تمثل الحضارة الإنسانية الشرعية الخالدة ميراثاً وتراثاً.. خلافة كان كيانها يملأ جوانح نفسه.. حضره.. لكن المؤتمر انتهى بفشل ذريع مهَّدت لانهياره عوامل كثيرة من أهمها:

* معارضة الحكومة الإنكليزية، من وراء ستار، في بعث خلافة إسلامية شرعية بعد سقوط «الرجل المريض»..

* انقسام ذوي الرأي حول مفهوم الخلافة، وتعيين الخليفة إذ كان كل حزب يدِبّ للآخر الضرَّاء..

وانفصل «السيد» عن المؤتمر قبل جلسته الختامية متيقناً من عدم جدواه، وأن لا حظ فيه لرجاء ولا مغمز لما رأى وسمع من تخاذل وتنافر

---

(١) أصول التصوف خمسة: تقوى الله في السر والعلن - اتباع السنة قولاً وعملاً - الإعراض عن الخلق - الرضا من الله بما قل أو كثر - الرجوع إلى الله في السراء والضراء - انظر مقدمة «الفتوحات الإلٰهية» أحمد بن عجيبة.

ومكايدة! وتوجه إلى بيت المقدس، فبيروت حيث زار شيخه العلامة المحدث سيدي محمد بن جعفر الكتاني[1]، فالإسكندرية، فالقاهرة، فدسوق، فطانطا في زيارات أضرحة الأولياء والصالحين والأئمة. وأقام اتصالات بأفذاذ العلماء أمثال العلامة المحدث الشيخ محمد زاهد الكوثري الذي قبل يد «السيد» تبركاً به وإعجاباً لفضله، والشيخ أحمد الرفاعي، والشيخ محمد السمالوطي وغيرهم.

ثم قفل راجعاً إلى طنجة بعد غياب دام ثلاثة أشهر..

وعاد إلى عزلته، ولزم بيته..

وتقاطر عليه الزوار والضيوف، فيجالسهم في ذكر ومذاكرة، ويقضي مآربهم في شفاعة أو توسط.. ومكث على هذه الحال إلى أن انقطع إلى جوار ربه في دار الكرامة يوم الأربعاء ٦ شوال ١٣٥٤ (يناير ١٩٣٥). فصلي عليه بالمسجد الأعظم، ثم حمل في مسيرة جنائزية لم يسبق لها مثيل في طنجة إلى زاويته حيث دفن، أفاض الله عليه سجال رحمته ورضوانه..

ورثي بقصائد أختار منها مرثية الشاعر الأديب محمد بن الطاهر الفاسي، يقول:

خَبِّروني هل غاب نجم السُّعودِ	أم تسامَى إلى مقام الخلودِ
كان عهدي به يَبُذُّ الثريا	كيف أمسَى رهينَ هذي اللحودِ
أُندُبوهُ وابكوهُ علَّهُ يَرثي	لبكائكم فيَرعوي عن صُدودِ
ليت شعري أَيُصبح الناس فَوْضَى	في ظلام في شقوةٍ في رقودِ
قد أخذنا بالأمس منه عُهوداً	أَتُراه يَفِي بتلك العهودِ

(١) محمد بن جعفر الكتاني (١٨٥٧ ـ ١٩٢٧/ ١٢٧٤ ـ ١٣٤٥هـ) علامة محدث مؤرخ صوفي. ولد بفاس. هاجر بأهله إلى المدينة المنورة عقب عهد الحماية، ثم انتقل إلى دمشق، وعاد إلى المغرب سنة ١٣٤٥ حيث توفي بمسقط رأسه. له عدة مؤلفات بلغت الستين، منها: «الرسالة المستطرفة..» و «سلوة الأنفاس» و «الأزهار العاطرة» و «نصيحة أهل الإسلام»..

سَئِم الناس بعدك العيشَ حتى شُغلوا بالبكا ولَطْمِ الخدودِ
كنتَ فينا تُبيدُ كلَّ ظلامٍ وضلالٍ وبدعةٍ وجمودِ
كنتَ فينا تدعو بكل صلاحٍ باذلاً في الصلاح كل الجهودِ
لم تكن تبتغي سوى نصرة الدِّيـ ـن جهاراً وملةِ التوحيدِ
في سبيل الإلـه ما قد نُلاقي من شقاءٍ ومحنة وهُجودِ
إن في القلب لوعةً واحتراقا ومعاني الأسى والحزنِ الشديدِ
لا تقولوا قد مات إني أراه يُمَتِّع الطَّرْفَ في جنان الخلودِ
لا تقولوا قد غاب إن سَناهُ في ازدياد ونُورَه في صعودِ
إن يَغِبْ في بَنِيهِ خيرُ عزاءٍ سِيَمَا أحمد كريمِ الجدودِ[1]..

وبعد،

فتتميماً لسيرة «السيد» المقتضبة اقتضاباً في هذه الترجمة المختصرة أرى أن أشير ـ ولو في لمحات قصيرة ـ إلى بعض أحواله ومكارم أخلاقه.. منها أنه كان:

ـ يحث على العمل بالكتاب والسنة والأخذ بالدليل من غير نظر إلى مخالفيه من أصحاب المذاهب التي كان له يد طولى في معرفة دقائق فروعها..

ـ يدعو إلى الاجتهاد ونبذ التقليد، يناظر كبار الفقهاء ويحاورهم.. وجميل بنا أن نصغي إلى نجله الحافظ الشيخ سيدي أحمد بن الصديق يحدثنا عن لقاء جمعه والشيخ حمدان الونيسي الجزائري بالمدينة المنورة، قال:

« ..وقعت له مناظرة بالمدينة المنورة مع حمدان الونيسي الجزائري في محفل عظيم من العلماء فيهم شيخنا الإمام سيدي محمد بن جعفر الكتاني، والشيخ توفيق الأيوبي الشامي، والشيخ أمين سويد الدمشقي،

---

(١) «التصور والتصديق» ٢٠٩.

والشيخ عمر حمدان المحرسي، والسيد أبو القاسم الدباغ وما يقرب من عشرين عالماً كانوا مجتمعين بضريح سيدنا حمزة ـ رضي الله عنه ـ، وبعضهم يسرد تفسير ابن عجيبة، فمرت مسألة انجرّ البحث فيها بينهم إلى مخالفة المذهب، فتكلم الونيسي بكلام أراد به التنكيت على سيدي أبي القاسم الدباغ لأنه كان من المعلنين بنبذ التقليد والعمل بالسنة، وظن الونيسي أنه منفرد بذلك من بين الحاضرين. فانبرى له الشيخ ـ رضي الله عنه ـ وناظره مناظرة بهرت عقول الحاضرين ـ ومكثوا يتحدثون بها طول عمرهم كلما جرى ذكر الشيخ ـ رضي الله عنه ـ حتى ذكره كل من السيد أبي القاسم الدباغ والشيخ عمر حمدان على الانفراد في أوقات مختلفة، قالوا: ما كنا نمثل الونيسي أمام الشيخ إلا كهر صغير بين يدي أسد عظيم ـ فلما ألزمه الحُجَّة ولم يجد من يد الشيخ مفرًا قال في حمية وغضب للتقليد والشيطان: ما قاله الله ورسوله أضعه تحت قدمي، وما قاله خليل أجعله فوق رأسي!!. فقال له الشيخ: الآن سقط الكلام معك، ولو أخبرتنا بهذا من أول وهلة ما ناظرناك لأننا كنا نظن أنك تناظر عن جهل بالمسألة، وخطأ في النظر والاعتقاد، وحيث وصلت إلى حدّ الكفر والردة والعناد فلا كلام لنا مع من هذا حاله!»[1].

ـ يقتني الكتب ولو بأثمان باهظة.. يستدين أو يبيع شيئاً من لوازمه الضرورية ليشتري كتاباً أعجبه!

ـ يكره التكلم بغير اللغة العربية، لغة القرآن والسنة وأهل الجنة..

ـ يحترم حملة العلم وشيوخه، ويكرم حفظة القرآن الكريم ومعلميه، ويُبجِّلهم ويغدق عليهم..

ـ يحب أهل البيت، سفينة نوح، ويعظمهم، ولا يشترط فيهم صلاحاً ولا علماً ولا فضلاً ولا تقوى، ويقول: علينا أن نقوم بواجبهم ونَكِلَ أمرَهم إلى الله تعالى.. ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾. وهاك مثالاً

---

(١) نفس المصدر ـ ٦٠.

واحداً من أمثلة عدة يبدي لك جميل تصرفه وسمو إحسانه مع الأشراف..

«ذلك أن شريفاً صدر منه ما يوجب تأديبه من الحكومة التابع لها، فَفَرَّ وجاء إلى الشيخ مستجيراً، فآواه، وأكرمه، وأنزله في منزل مجاور لبيته مع بعض أنجاله، وجعله واحداً منهم. فلما طالت عليه المدة واشتاق إلى أهله ووطنه صار يسعى في ذلك، فاتصل ببعض الجواسيس فأرشده قائلاً: إن الطريق التي يمكن رجوعك بها وعفو الحكومة عنك هو التجسس على الشيخ وتقديم أخباره وأسراره إليها!! فأجابه إلى مراده.. واستصدر له العفو من الحكومة.. فصار يتردد إليهم وينقل لهم أخباراً يفتريها حتى أدّى به الطيش إلى أن نسب إلى الشيخ أمراً عظيماً في السياسة، ثم جاء إليه يريد أن يحتال عليه في الموافقة على أمر يحقق له دعواه وكذبه على الحكومة. ففطن له الشيخ وصار يلاطفه ويعده ويُمَنِّيه مع إكرامه وبره المستمر معه.. فلما صدر منه هذا الأمر العظيم ـ وكان قد سبق منه أمور كثيرة هي أخف من هذا ـ دخل بعض الفقراء على الشيخ متضجراً من أفعال ذلك الشريف طالباً منه الإذن في طرده وأمْرِه بعدم الوصول إليه. فقام الشيخ في وجهه وغضب من قوله، وصار يقول له: ماذا نفعل مع جده ﷺ؟. أيتصور في ذهنكم أننا نؤذي شريفاً ونطرده من بابنا ولو فعل بنا من الإذاية ما فعل؟. وهل رأيتم إذايته وصلت إلينا ولحقنا من ضررها شيء؟. فلم يكن من ذلك الفقير إلا أن يستسمح الشيخ مما صدر منه في حق ذلك الشريف..»[1] هذا الشريف، غفر الله له، افترى على «السيد» أمراً سياسياً خطيراً يوم كانت عيون الاستعمار، على شقيه، تُذكَى عليه راصدةً لا تطرف وهو لا يحفل بها.. حقاً، كم من مخبر أفاك أُركِس في خيبة بعدما قال وقال تعلقاً بنقود معدودة أو بكيس من دقيق!.

ـ يحلم من طبعه، ويلين في سماحة، ويعفو في إحسان، ويخفض الجناح في رحب صدر ووداعة خلق.. كانت له خادمة فيها أنفة وغطرسة، فتثير بخلقها هذا غضب أولاد «السيد» الذي كان ينتصر لها عليهم وإن كان

---

(١) نفس المصدر ـ ١٠٢.

هو أيضاً يتضجر من فعلها، ويصفح ويقول: «أمرنا الله تعالى بتحمل أخلاق السفلة وعدم معاملتهم بالمثل، ونحن نرى أن لو طردناها لما وجدت من يتحمل خلقها ويقبلها على كبريائها وعظمتها، وهي لا لوم عليها في طبعها لأنها جاهلة، وإنما اللوم على من يدعي العلم والطريق واتباع السنة، فهو الذي يجب عليه تحمل خلقها..»![1].

- يسعى في قضاء حوائج الناس ومصالحهم، ويهتم بشؤونهم..

- لا يدعو أحداً باسمه المجرد دون سيادة أو موالاة..

- لا يذهب إلى أهل الدنيا والغنى والرئاسة..

- يكره الوظائف الحكومية، ويحث مريديه على التجارة والكسب الحلال..

- يربي أولاده على الزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة، ويكره كل ما له صلة بالغرب في الملبس والمأكل وغيرهما.. حكى لي شيخي العلامة سيدي عبدالحي بن الصديق قال: أهدى لي أحدهم ذات يوم مصورة، ففرحت بها مبتهجاً، وعلم مولانا الوالد - رضي الله عنه - بالأمر، فدعاني وأخذ مني الآلة وكسرها، ووبخني توبيخاً فيه عِظَة وتقويم ما نسيته قط!.

- يحب البساطة وهي أشهى إليه من العيش الرغيد! بساطة في الملبس: فلا كساء، ولا برنس، ولا سلهام، ولا قفطان، ولا جوارب!. بساطة في الفَرش: فلا زرابي بل حصير، ولا زليج على الجدران، ولا.. ولا!. بساطة في الأكل إذ لا يأكل في اليوم إلا مرتين: أكلة في الصباح، وأخرى بعد العصر! وما أكَلَ قط حلواء من صنع غربي، ولا ذاق يوماً الشوكولاتة!.

- فيه سخاء فياض، تأخذه الأريحية عند النوال، فتراه يستدين ليعطي سائله باعتبار أن الفضل والمنة للسائل لأنه كان وسيلة للعطاء!. ولذا توفي مديناً..

---

(١) نفس المصدر - ١٠٦.

كـريـم جـواد عـالـم مـتـواضـع لـكـل جـلـيـس مـن قـريـب ووافـدِ
سـخـي فـلا مَـعْـن يـبـاهـى وحـاتـم لـكـفّ نَـداه فـي مـجـال الـمـحـامـدِ
فـكـفّ الـسَّـخَـا لا تـسـتـطـيـع لـقـاءَه مـخـافـتـهـا مـن جُـوده الـمـتـواردِ
وبـحـر الـنَّـدَا أمـواجُـه مـتـأدبـاً لِـفَـيْـض عـظـيـم بـالـمـعـارف سـائـدِ[1]

ويحكى في هذا الصدد أن أحد مريديه رأى على «السيد» جلابة ظهر عليها أثر القدم، فاشترى له أخرى وأتاه بها.. قال: فبينما أنا معه بالطريق نظرت إلى يده فإذا الجلابة ليست معه، فسألته عنها فقال: أعطيتها لفقير طلبها مني! قال المريد: فذهبت في الحين واشتريت ثوباً وخِطت له منه أخرى.. ثم جئت بها إليه، وألححت عليه أن يلبسها في الحين. فأجاب سؤالي، فاستبشرت بذلك، ولكن بعد يومين رأيته عاد إلى القديمة فلبسها، فسألت عن السبب، فقيل لي: خرج من الدار فلقيه غريب ادعى أنه شريف، وتبع «السيد» يسأله إياها، فساقه معه إلى الدار وخلع الجلابة، فدفعها إليه، ولبس القديمة![2].

وأخرى أن العلامة الأديب السيد الحاج محمد العياشي سكيرج[3] حكى فقال: دخلت عليه يوماً فألفيت بيده جزءاً من تفسير السيد محمد صديق حسن خان القنوجي[4]، أَحد أمراء الهند في وقته، فلمح مِنِّي أني

(١) من قصيدة مدحه بها الشاعر السيد محمد بن الشيخ القاضي «التصور والتصديق» ١٧٧.
(٢) نفس المصدر - ١٣٧.
(٣) محمد سكيرج (١٨٧٥ - ١٩٦٥) علامة مشارك أديب شاعر. تقلب في عدة وظائف. ترك قرابة خمسة وستين مؤلفاً في فنون شتى. قبره بضريح سيدي الحاج محمد بوعراقية.
(٤) محمد صديق حسن خان القنوجي (١٨٣٢ - ١٢٤٨/١٨٨٩ - ١٣٠٧) من رجال النهضة الإسلامية الحديثة. ولد بالهند وتزوج بملكة بهوبال، له مؤلفات تفوق الستين بالعربية والفارسية والهندية. منها: «حسن الأسوة في ما ثبت عن الله ورسوله في النسوة» و «أبجد العلوم..» و «فتح البيان في مقاصد القرآن» في التفسير و «عون الباري» في الحديث و «البلغة في أصول اللغة..».

استحسنته. فلما عدت لمنزلي وجّهه إلي بتمامه، وهو في أربعة مجلدات بطبع الهند، وهو قليل الوجود بالمغرب! كما أكرمني مرة أخرى بكتاب «مطالع الزهراء في نسب بني الزهراء» وهو بخط ملوكي جليل، وهو للعلامة النسَّابة سيدي الزكي العلوي، ألفه لقريبه السلطان مولاي عبدالرحمن بن هشام(١)..

وكان «السيد» إذا أهديت إليه هدية ومعه جليس شاركه فيها، وربما تنازل عن جميعها لذاك الجليس لأنه كان يستحي أن يستأثر بشيء من الدنيا(٢)..

- شديد الحياء، يتواضع تواضع العارفين بالله، يخدم ضيوفه بنفسه في أُنْسٍ وطيب كلام، ويقدم لهم النعال بيده، ويجالس المساكين، ويخفض لهم جناحه.. ولا يؤم الناس في المجالس والمحافل.. يستشير أصحابه وخدمه وأولاده، ولا يستبدّ برأي..

- لا يمدّ رجله أمام أحد ولو مع أهله، ولا يرفع إحداهما على الأخرى، ولا يستلقي على قفاه: إنه كمال المروءة والأدب مع الله في السرّ والعَلَن..

وبعد البعد،

فلربَّ سائل قال: لِمَ لَمْ يؤلف «السيد» مع غزارة علمه؟. أقول: لقد سئل «السيد» عن هذا فأجاب: لم يبق شيء تحتاجُهُ الأمة إلا وقد ألف فيه من قبلنا، فما علينا الآن إلا أن نشتغل، ونقرأ، ونعمل بما كتبوه وحققوه!. فقيل له: إن نجلك مولاي أحمد ينوب عنكم في التأليف!. فقال: وهو كذلك إن شاء الله..(٣) وكان كما قال.. بل أرادت مشيئة الله أن يخرج من

---

(١) و«المطالع» هو المادة العظمى والعمدة الكبرى لأبي العلاء الفضيلي (؟ - ١٣٢٤هـ) في كتابه «الدرر البهية في أنساب الحسنية والحسينية» المطبوع بفاس في مجلدين. «التصور والتصديق» ١٨٩.

(٢) «نسيم وادي العقيق» ٢٧٢.

(٣) «التصور والتصديق» ٦٦. يقول الشيخ الآبلي: إنما أفسد العلم كثرة التواليف وإنما أذهبه بنيان المدارس.. «نفح الطيب» ج٥ /٢٧٥.

صلبه سبعة علماء جهابذة هم الشيوخ السادة: أحمد، وعبدالله، ومحمد الزمزمي، وعبدالحي، وعبدالعزيز والحسن وإبراهيم، ولم نعرف في تاريخ الإسلام أن مَنَّ الله عز وجل على رجل بهذه المفاخرة الجليلة..

غير أن «للسيد» رسائل عديدة ذات فوائد جَمَّة[1].. وله قصيدة في «خمرة الحضرة» يقول فيها ـ رضي الله عنه ـ:

شربنا مع ذكر الحبيب حلاوةً فَهِمْنَا بها عن كل ما يَشغل الفِكْرَا
ونزَّهنا أفكار العقولِ عن السِّوَى وَتِهْنَا دَلالاً عند سماعِنا الذِّكْرَا
ومالتْ منَّا الأطرافُ شوقاً إلى اللِّقَا ففاضَت دموع العين والقلبُ في البُشْرَى
وبدا لنا سِرٌّ جَمَع قلوبَنا فَغِبْنَا به عن كل مَن يزعُم النُّكْرَا
ذهبتْ عنا الأكدار فلم يَبقَ لنا معَ الذكر شيءٌ يُؤلِمُ سرًّا أو جَهْرَا
عليك بذكر الله يا مَن يُرِدْ خيراً فبِه تَزكُو الأحوال وتُكْسَبُ العِبْرَا
فَعَمِّرْ به الأنفاسَ في كل لحظةٍ وإياك أن تَصْغَى لمن هو في حَيْرَا
وداوِمْ عليه في أمورك كلها فسوف ترى إن دُمتَ من أمرك خَيْرَا
فلا يَشْغَلَنْكَ الدفع إن نزَل البَلاَ فلا شيءَ مثل الذكر في الدَّفع لِلْوَرَى
ودُونك أهلَ الذكر فالزَمْ جَنابَهم فإن الذي تهوَى لديهم ولا فَخْرَا
فَجَليسُهم حازَ السعادةَ والمُنَى وعنه انْتَفَى الشقاءُ كما وَرَدَ خُبْرَا
فزُرْهم ولا تسأَم واخْدُمهم ولا تَخفْ وأَنْفِقْ عليهم ما لَدَيك ولا خُسْرَا
فبذاك تَبلُغْ مَقاماً تكُن به غَنِيًّا عن المخلوقِ في الدنيا والأُخْرَى

وأخيراً..

أستسمحك، قارئي الكريم، في أن أحكي لك، وصدِّقني: فمن سنوات خلت رأيت فيما يرى النائم أن «السيد» أقبل عليّ وضمَّني ضمة محبة وتكريم، فاسترْوحتُ منه نَشْر المِسك وقد غَلَّ أطرفي.. ولما

(١) توجد هذه الرسائل ـ وهي قل من كثر ـ في «التصور والتصديق» و «نسيم وادي العقيق».

استيقظت وجدت، والله، أَرِجه الذي ظلّت رائحته ترافقني أياماً وأنا في نشوة من نفسي، إي والله![1].

وختاماً..

فهذه نبذة من سيرة «السيد»[2] ـ رضي الله عنه ـ تطل علينا من شرفة تاريخ طنجة ما دام أبناؤها يعنون بأمجاد أهاليها وعلمائها ونبغائها.

وآثارُ الرجال إذا تناهتْ ... إلى التاريخ خَيْرِ الحاكمينَا
وأخذُكَ مِن فَمِ الدنيا ثناءً ... وتَرْكُكَ في مسامعها طَنِينَا[3]
تَرِفُّ أوْقاتُنا فيها رَيَاحِينَا[4]

ولقد كان «السيّد» حقًّا ريحانة طنجة..

طنجة في ١١ أكتوبر ٢٠٠٢

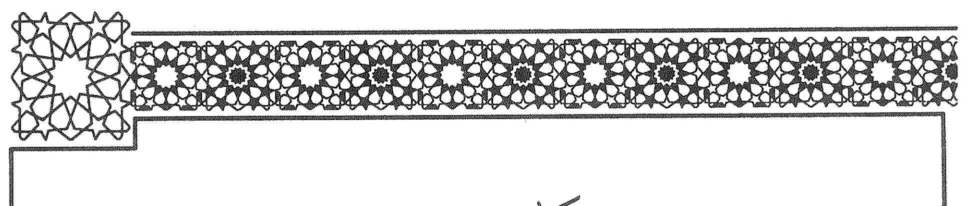


(١) حدث شيخي أن «السيد» كان يستعمل الطيب النفيس وبخور العود الممتاز.

(٢) كنت تعرضت إلى بعض مكارمه وأحواله لم أذكرها هنا في هذه النبذة، وذلك في كلمة ألقيتها سنة ١٩٧١ بالزاوية الصديقية بمناسبة إحياء ذكرى وفاته. وممن شارك بكلمة أيضاً العلامة الصوفي سيدي محمد التجكاني رحمه الله وهو صهر «السيد».

(٣) «الشوقيات» ج١/٣٣٦.

(٤) «الشوقيات» ج٢/١٣٠.



بسم الله الرحمن الرحيم

الشيخ أحمد بن الصديق
(١٣٢٠ - ١٣٨٠/ ١٩٠١ - ١٩٦٠)

وتابع الطفل خطى والده الإمام وهو يصعد سلم الكعبة المشرفة، وبداخلها أخذ «السيّد» مفتاحها الطاهر، ووضعه في فم ابنه، وابتهل ودعا: اللهم اجعله سيوطيّ عصره.. وأمّن الحاضرون.. قال محدثي: قال لي مولاي أحمد: لقد فُقْت والحمد لله درجة السيوطي!

إنه حجة العصر، وأحد أعلام الحفاظ النوابغ، الإمام الشيخ سيدي أحمد بن محمد بن الصديق.. أرومتُه من الدوحة النبوية.. فهو شامخ النَّسب، عالي المطلب..

ولد سنة ١٩٠١ بضواحي طنجة ببني سْعِيدْ في رحلة لوالده الإمام إلى غمارة في بيت عريق في الدين والعلم والزهد والتصوف والجهاد..

كانت شخصيته جذابة، قوية، ملهمة، تملأ العين إجلالاً، وتثير في النفس بهجة وروعة!

وكانت الفضيلة عصارة حسَبه، وسَرِيَّ خِلاله.. وهذه الخصلة عِبْءٌ ثقيل، وثقيل جداً، ينوء بنوادر الرجال ونُجَدائهم، فلا يطيقه إلا الأبطال من

ذوي العزائم الراسخة الوطيدة، والشيخ بطل فذّ، لا أظن الدنيا تسمح بأن يبرز له ضَريب!.

وكانت الأمانة همَّته العالية.. جُبل عليها منذ صغره، فشبَّ نقي الدِّخْلة، ما دَسَّ بغَدْر، وما ركبت نفسه على خيانة..

وكان الحق صورة قلبه، أوقف عليه لسانه وقلمه، فلا يخشى فيه لومة لائم، ولا يداهن فيه ولا يخاتل.. وسماعك، قارئي الكريم، إلى هذه الواقعة التي يرويها فيقول: دعاني الشيخ الأحمدي الظواهري، شيخ الأزهر، لتناول الغذاء عنده مرة لما حضر الشيخ عبدالحي الكتاني إلى القاهرة في طريقه إلى الحج سنة ١٣٥١هـ وحضر الدعوة وكيل الجامع الأزهر الشيخ عبدالمجيد اللبان، ورؤساء الأقسام محمد القطيشي، ومأمون الشناوي، وثالث غاب عني اسمه، والسيد التفتازاني، والسيد الخضر بن الحسين التونسي.. فلما جلسنا على مائدة الطعام ـ وهي إفرنجية الوضع ـ جعل العلماء يأكلون بالشوكة والسكين، وجعلت آكل بيدي، فقال الشيخ الأحمدي: «أنا سآكل بيدي مثل سيّدنا الشيخ ابن الصديق، وإن كان النبيّ ﷺ أكل التوتة بالإبرة!! فقلت له: هذا لم يقع منه ﷺ، والخبر باطل!. فقال: بلى، فقد ذكره ابن المتقي الهندي في «كَنْز العمال»[(١)]! فقلت له: هذا الخبر غير موجود به، ثم التفتُّ إلى الشيخ عبدالحي، وكان بجنبي، فقلت له: هل رأيت هذا الحديث بـ «كنز العمال»؟ قال: لا. فتغيّرت وجوه القوم، واستعظموا ردِّي على شيخهم وشيخ علماء الدنيا في نظرهم، في حق كل من ترأس مَشيخة الأزهر، إلا أنهم لم يجدوا ما يردون به.. فنطق اللبان[(٢)] يريد التنكيت عليّ فقال: إن ابن دقيق العيد[(٣)] اعترض

---

(١) يقع «كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال» للعلامة علاء الدين علي المتقي الهندي (١٤٨٣ ـ ١٥٦٧) في ستة عشر جزء ويحتوي على ٤٦٦٢٤ حديثاً.

(٢) عبدالمجيد اللبان (؟ ـ ١٩٤٢) ولي مشيخة كلية أصول الدين بالجامعة الأزهرية.

(٣) ابن دقيق العيد (١٢٢٨ ـ ١٣٠٢) إمام علامة شاعر خطيب. تولى قضاء الديار المصرية. توفي بالقاهرة.

مرة على سيدي عبدالرحيم القِناوي[1] في مسألة، فقال له سيدي عبدالرحيم: إن في مصحفك آية محرفة أنت تقرأها كذلك منذ سنين ولا تشعر، ثم تعترض علينا!. فقلت له: يا أستاذ، هذا شيء لا يمكن من جهة التاريخ، فإن ابن دقيق العيد ولد بعد وفاة سيدي عبدالرحيم القناوي بنحو أربعين!. فابتدرني الشناوي الذي صار شيخ الأزهر بعد ذلك فقال: هل عندك شهادة الأزهر؟. فقلت له: نحن بمغربنا لا نعتبر شهادة الأزهر وإنما نعتبر العلم!. فغضب الجماعة كلهم، واستعظموا هذه الكلمة أكثر من جميع ما سبق، وقالوا بلسان واحد: لا.. لا! هذا شيء غير مسلَّم!. وحتى الشيخ عبدالحي وافقهم على ذلك فقال لي: بلى، شهادة الأزهر عندنا معتبرة.. فقلت: ومن من علمائنا حامل شهادة الأزهر حتى يظهر اعتبارها بالمغرب؟. فقال: الشيخ شعيب الدكالي عنده شهادة الأزهر. فقلت: ما أخذها شعيب ولا هي معه!. فصدقني الأحمدي على ذلك وقال: نعم، نحن نعرفه، ونعرف أنه لم يأخذ الشهادة من الأزهر.. فلما قمنا لغسل الأيدي سارَّني الأستاذ التفتازاني ـ وكان صديقاً لي ـ فقال لي: قد تهجَّمت على مقام الشيخ وبالغت في ذلك!. فقلت له: لا تهجُّم في تحقيق الحق وإبانة الصواب![2].

أرأيت، قارئي الكريم، كيف كان الصدق يلوِّح لك من ثنايا هذه الواقعة لتدرك أن الشيخ كان أجرأ العلماء صوناً للحق، وألهجَهم به تصريحاً.. صدقه هذا ألّب عليه غائلة كثير من الناس، فَناوَأُوه لأنه يقول للأسود أسود، وللأبيض أبيض!.

وكانت حميَّته الدينية وغيرته على الإسلام همَّه ودَيْدَنه.. يتمنى أن ينهض المسلمون نهضة رجل واحد ليعيدوا سؤدداً خمد، وعزًّا رقد. فكان

---

(١) عبدالرحيم القناوي (١١٢٦ ـ ١١٩٦) من كبار العباد النساك، ولد بترغة ـ قرب تطوان المغربية ـ وتوفي بقنا في صعيد مصر.

(٢) «جؤنة العطار» أحمد بن الصديق ـ ج٨٧/١ ـ طريفة رقم ١٣٦ بإعدادي.. وفي آخرها: ..والحكاية التي حكاها اللبان حكى العارف الشعراني في «طبقاته» أنها وقعت لابن دقيق العيد مع السيد البدوي لامع القناوي.

ما يراه من تهاونهم، وتخاذلهم، وتقصيرهم، و «تَفَرْنُجهم» يُحدث في قلبه حرقة وغمًّا وحسرة.. فلْنسمعه يقول: كنت في حجتي تسع وستين ـ لا جعلها الله أخيرة ـ أزور النبيَّ ﷺ يوماً، وأسأل الله تعالى أمراً عظيماً في صلاح هذه الأمة، فسمعت رجلاً من الزائرين خلفي قال: وَالُ!! ولم يزد عليها. فالتفت هل أرى مغربياً يكلم آخر لأن الكلمة مغربية ولا يعرفها أحد من المشارقة، فلم أر إلا مشارقة متوجهين في الزيارة، مستغرقين في الدعاء والابتهال!. وقبل هذه الزيارة بنحو الثمانية رأيت في رؤيا كأن بيدي عوداً أنكت به الأرض، ومرادي البحث عن الفرج لهذه الأمة، فبعد أن حفرت قليلاً عثرت على أن الفرج قد نُسِخ والعياذ بالله تعالى!. فنسأل الله السلامة والعافية، وأن لا يحقق هذه الرؤيا، وأن يتدارك هذه الأمة برحمته، وشفاعة نبيه ﷺ[1]..

وكانت كراهيته للغرب الصليبي المستعمر المتعجرف الطاغية قد دَفعته دفْعاً إلى الثورة عليه مرتين! كان يقول: مقاومة الاستعمار عبادة وجهاد.

هذه نُثارات خاطفة تدلنا على أن حياة الشيخ كانت شعلة وقادة وحركيَّة مؤثرة تتجلَّيان في محافل العلم والسياسة على السواء.. وعلى أن الدنيا لم تكن له قط موطن سكينة ودَعَة، وسلام وراحة، بل دار كدّ وجدّ، ومقاومة ومصابرة إذ لا حياة عنده للكسالى الواقفين الخامدين المستسلمين!.

بدأ الشيخ تجربته الأولى في مسيرة الحياة سنة ١٩١٠ حين رافق والده «السيد» الإمام إلى الديار المقدسة.. فرأى وسمع، ولاحظ وتنبَّه. وعند عودته تاقت نفسه إلى العلم، فجدّ في طلبه، وأفرغ له كليته، وعكف على إتقان حفظ القرآن، والمتون في مختلف فنونها.. وفي أحضان والده الإمام رضع لبان هذه العلوم من تفسير، وحديث، وفقه، وتصوف، وتراجيم الرجال، وتاريخ وغيرها.. وحَبَّبَ الله تعالى إليه علم الحديث، فارتَسم على قلبه، وانقطع إليه حفظاً وتحصيلاً وتمحيصاً حتى برّز فيه وأدرك مرتبة سامقة

---

(١) «جؤنة العطار» ج٥٦/١ ـ طريفة رقم ٩١.

وهو في التاسعة عشر من عمره. وفي هذا السن المبكر ألَّف «رياض التنزيه في فضل القرآن وفضل حامليه»[1] استئناساً بأمر والده الإمام بأن ينكبَّ الفقراء الصديقيون على حفظ القرآن.. وتحولت رحاب الزاوية إلى كُتَّاب متميز فريد لا تسمع فيه لاغية بلْ دَوِيّ أصوات تترنم بالنبأ العظيم!

وإزاء اعتناء والده الإمام بتلقينه العلوم كان يعتني بتربيته على مكارم الأخلاق، ونبل الشِّيَم، وعلى التحلي بالمروءة، وعلى الرغبة في الآخرة.. فما أغضى جفنه عن عثراته، وما تهاون معه فيها، بل كان يقف منه بالمرصاد! فَلْنُصْغِ إلى الشيخ يحكي لنا - في كلمات - ما تجرَّعه من مرّ العِتاب الأبوي على حادث هو في نظرنا نحن شيء عادي لا حرج فيه ولا مؤاخذة، لكنه ذات دلالات في حياض التربية السامقة والقدوة السامية.. قال الشيخ: ..كان مولانا الوالد قدس سره ينهانا أن نمر من الشارع الذي فيه محكمة القاضي ودكاكين الشهود!. وغضب مرة غضباً لا مزيد عليه حيث علم أني جلست في دكان شهود مرة مع بعضهم.. وكانت هذه المرة الوحيدة![2].

ترى! مجرد جلوس في دكان الشهود جلب عليه ضجَّة كبرى أقعدت عليه الدنيا وأقامتها!. هي التربية في أعلى قيمها.. وهي القدوة التي تأخذ موعظتها من أبسط الأحداث..

وحلت سنة ١٩١٩.. فتوجه الفتى إلى القاهرة حيث الأزهر الشريف. ولازم أجلاء شيوخه الذين عيَّنهم له والده الإمام، وواظب على حضور مجالسهم العلمية، فأعجبوا بسرعة فهمه، وتيقظ خاطره، وقوة إدراكه، ومتانة حفظه، وتعطشه للتحصيل حتى قال له ذات يوم العلامة الكبير الشيخ السقا رحمه الله: أنت تريد أن تشرب العلم! حقاً، لقد كانت خزانة حافظته تُبهر العقول..

---

(١) في مجلد مخطوط.

(٢) «جؤنة العطار» ج١٥٢/٢ - فائدة رقم ٤٢٣.

وعاد سنة ١٩٢١ إلى بلده بطلب من والده الإمام لأن أمه الشريفة الطاهرة حفيدة العلامة العارف المفسر سيدي أحمد بن عجيبة قد أوصبها مرض عُقام. ولم تمض غير أيام معدودة من قدومه حتى أفضت إلى جوار ربِّها.

واستأذن والدَه الإمام في رحلة عبر مدن المغرب والجزائر. فأذن له.. فجال في الرباط والدار البيضاء وفاس وغيرها، واتصل ببعض علمائها الكبار. وأدعوك، قارئي الكريم، إلى أن نصغي معاً إليه وهو يحدثنا عن زيارته للشيخ العلامة فتح الله البناني الرباطي[١]، قال:

.. في رحلتي هذه زرت بمدينة رباط الفتح الشيخ فتح الله البناني، واستجزته فأجازني، ودفع لي كتاباً من مؤلفاته وهو في اتحاد طرق أهل الله وإن تعددت الحقانية[٢]، وقال: اقرأ علي منه شيئاً.. فصرت أقرأ إلى أن مررت بأحاديث موضوعة. فقلت له: كيف ساغ لكم ذكرها وهي موضوعة؟. فقال: لا بأس بذلك، فإن العلماء نصوا على أن المراد من الحديث هو الوعظ والإرشاد والتذكير وإن كان موضوعاً!. فقلت: هذا حرام باتفاق الأمة، وإنما قال به بعض المبتدعة وهم الكَرَّامِيَّة[٣].. فأبى أن يقبل فتركته.. ثم لما كتب الإجازة ودفعها إلي قرأتها فإذا هو ذكر فيها

---

(١) فتح الله بن بوبكر البناني الرباطي (- ١٩٣٣) من بيت علم ودين وصلاح. صنف كثيراً في التصوف خاصة، وفي تراجيم الرجال، والفقه. له أتباع في الطريقة الشاذلية. انظر «من أعلام الفكر المعاصر بالعدوتين: الرباط وسلا». ج٢/٣٧٧ - الجراري.

(٢) اسم الكتاب: «إتحاف أهل العناية الربانية، في اتحاد طرق أهل الله وإن تعددت مظاهرها الحقانية».

(٣) من فرق الابتداع في الإسلام، وهم أتباع محمد بن كرام (؟ - ٨٦٩م) الذي يقول بالتجسيم والتشبيه والجوهر، وبالعصمة المشروطة، وللكرامية في ميدان الفقه حماقات كقولهم مثلاً في صلاة المسافر إنه يكفيه تكبيرتان من غير ركوع ولا سجود ولا قيام ولا قعود ولا تشهد ولا سلام!! انظر «الفرق بين الفرق» للبغدادي ٢١٥ و «الملل والنحل» للشهرستاني ١٠٨.

إلى صحيح البخاري عن شيخه بكري العطار الدمشقي من طريق النجم الغزي عن الحافظ ابن حجر، فقلت له: هذا السند منقطع، فالنجم لم يدرك الحافظ وإنما أدرك والده البدر!. فقال: هكذا كتبه لنا شيوخنا، ولا يمكن أن نغير شيئاً كتبوه!!. أو معنى هذا فقد طال عهدي بذلك..[1].

أرأيت بسطة الشيخ في العلم ونبوغه وتضلعه وهو لم يتجاوز بعد عتبة العشرين من سنه! وأستسمحك، مرة أخرى، في أن نُرْعِيَ له سمعنا وهو يحدثنا - وحديثه ممتع - عن زيارته للشيخ أحمد بن الجيلالي[2].. يقول: ..لما ذهبت إلى فاس في أول رحلة إليها سنة إحدى وأربعين[3] ذهبت لزيارة كبراء علمائها، فكان منهم شيخ الجماعة أحمد بن الجيلالي. فقدمت له نسخة من رسالتي في مسلسل عاشوراء[4]. فلما فتحها يقرأ فيها رأى في بعض أحاديثها قول: أنبأنا فلان.. فقال: ما الفرق بين أنبأنا وحدثنا؟. فقلت: أنبأنا في الإجازة، وحدثنا في السماع.. فقال: فكيف يجوز أن يقول أنبأنا فيما لم يسمع؟ فقلت: هذا اصطلاح للمحدثين.. فقال: هذا لا يجوز عقلاً ولا شرعاً أن يقول أنبأنا فيما لم يَسمع ولم يُنَبَّأ به، بل هو كذب، فلا يجوز أن يكون اصطلاحاً للمحدثين!. وكان معي جزء من «صحيح البخاري» كنت أَعْتَنِي بحفظه.. ولما كنت بالطريق كنت أطالع مقدمة ابن الصلاح، ووضعت منها ملزمة داخل ذلك الجزء ونسيتها. فلما قال كلمته صرت أقلب في جزء البخاري وأعبث به متعجباً من مقالته

---

(١) «جؤنة العطار» ج١/٨٨ - طريفة رقم ١٣٨.

(٢) أحمد بن الجيلالي الأمغاري (؟ - ١٩٣٣) علامة مشارك، شيخ الجماعة بفاس ورئيس المجلس العلمي بها.

(٣) أي ١٩٢١ ميلادية.

(٤) أسماها «لبّ الأخبار المأثورة فيما يتعلق بيوم عاشورة»، وهي تقع في ٣٤ صفحة طبعة سنة ١٩٢١ بمطبعة بن حيون بزنقة القاضي - طنجة - وفي آخر صفحة منها أسماء مؤلفاته التي بلغت إلى حدود ١٩٢١ ثمانية وعشرين مصنفاً. فتعجب من وفرة كتبه وهو في الواحد والعشرين من عمره!.

وجهله بالحديث وعلومه. فوقع بصري على الملزمة، وإذا هي في مبحث الإجازة، فكان عثوري عليها في تلك اللحظة كعثوري على كنْز. فقلت له: هذا كتاب شيخ الفنّ ابن الصلاح، انظر ما يقوله في الإجازة.. وكان حاضراً معنا صهره البكراوي، وهو من علماء القرويين، وكان وقته قاضياً ببعض مدن المغرب وأظنها الدار البيضاء، فتناول الملزمة وقرأ فيها قليلاً، ثم نطق مبتهجاً مسروراً وقال للشيخ: الحق ما قلتم.. ثم جعل يقرأ فصل الوجادة التي لا يجوز للمحدث أن يقول معها: أنبأنا، ولا حدثنا.. فلما أَتَمَّ الفصل قلت لهم: هذه الوجادة غير الإجازة، ولكن اقرأ الوجه الآخر من الملزمة الذي فيه الكلام على الإجازة.. فشرع يقرأه، فسقط في أيديهما معاً، وتبيَّنَ أن الرجلين ما سمعا يوماً من عمرهما شيئاً من علوم الحديث.. والغريب أن ابن الجيلالي يدرس دائماً شرح «جمع الجوامع» لابن السبكي، وفي مبحث السنة منه هذا!. فلما أتم البكراوي قراءة الفصل أصرَّ ابن الجيلالي على أن هذا مخالف للعقل وإن قال به أهل الفن، فإن عقلي لا يقبله!! فقلت له: أنت وعقلك، وإنما علينا أن نثبت ما أنكرت وجوده عند أهل الحديث![1].

أما أبهرك تبصر هذا الفتى، وبعد غوره، وحاضر دليله؟

ومرض وهو بوهران، فقفل عائداً إلى طنجة، ولم يتم رحلته.. ترى، ما كان سبب مرضه؟. إنه سبب يبعث على الإعجاب والإكبار.. ولنتركه يقص علينا هذا الحدث فيقول:

..كنت في بداية اشتغالي بالحديث شديد العناية بمعرفة الصحيح والضعيف والموضوع، وكنت أتألم إذا رأيت أحداً من العلماء والصوفية يورد حديثاً موضوعاً محتجًا به في مسألة.. فشددت الرحلة مرة للاجتماع بالشيوخ، وأخذ الإجازة منهم، إلى أن وصلت وهران، وكنت قاصداً الجزائر وتونس. فدخلت يوم الجمعة لمسجدها الأعظم لصلاة الجمعة، ومن

---

(١) «جوؤنة العطار» ج١/٨٨ ـ لطيفة رقم ١٣٧.

عادتهم أن يقعد رجل على كرسي يقرأ كتاب «تنبيه الأنام لعلوّ قدر سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام» لابن عظوم القيرواني قبل خروج الخطيب والناس ينصتون إلى أن يخرج الخطيب. وكان يومئذ يقرأ الباب الذي يذكر فيه الأحاديث بقوله: اللهم صل على سيدنا محمد القائل كذا.. فاستمعت إلى الباب وإذا هو من أوله إلى آخره موضوعات كأنه وقف على كتاب في الموضوعات فظنه من الكتب الصحيحة فضمَّه ذلك الباب. ومن ذلك قوله: اللهم صل على سيدنا محمد القائل: **خلق الورد الأحمر من عرقي**!. اللهم صل على سيدنا محمد القائل: «**من الجفاء في الدين الصدقة على الأبعدين وتركها على الأقربين**»! في أحاديث من هذا المنكر المخالف لكتاب الله تعالى والمعروف بالضرورة من دين الإسلام. فحصل لي من سماع ذلك تغير شديد، واعترتْني سخونة كانت السَّبب في رجوعي إلى وطني وعدم إتمام الرحلة.. ثم لزمت الفراش عند الوصول نحو ثلاثة أشهر، وكان وقتئذ لم يطبع الكتاب بعد، فلما طبع لم أرفع إليه رأساً، ولا أحببت النظر فيه لسقوطه من عيني بكثرة تلك الأحاديث الموضوعة.. فينبغي أن لا يقرأ، ولا ينظر فيه، أو بخصوص ذلك الباب الذي ذكر فيه تلك المناكر![1].

وظل في طنجة بعد رجوعه من الجزائر إلى سنة **١٩٢٣** حيث عاد إلى القاهرة.. وهنا انزوَى ببيته سنتين كاملتين لا يبرحه إلا لصلاة الجمعة وزيارة الأولياء، وانكب على المطالعة والتحصيل والحفظ والتأليف، صارفاً طاقته كلها للتبحّر في علوم الحديث، يخوض عبابها، ويغوص على دقائقها حتى أحكمها وصار فيها نسيج وحده..

وانعقد مؤتمر الخلافة بالقاهرة سنة **١٩٢٦**، ووجهت الحكومة المصرية دعوة ملحة لوالده «السيّد» الإمام الذي حضر جلساته الأولى ثم عَدَّى عنه إذ لاحت له معالم من مكائد استعمارية تحاكُ في الخفاء إحباطاً لإقامة أية خلافة إسلامية ولو رمزية هشة! وبعد زيارة القدس وبيروت حيث مقام شيخه العلامة سيدي محمد بن جعفر الكتاني، وأَضْرِحة الأولياء سيدي أبي

---

(١) نفس المصدر ـ ج١/١٤٢ ـ طريقة رقم ١٩٩.

العبّاس المرسي[1]، وسيدي إبراهيم الدسوقي[2] وسيدي أحمد البدوي[3] غادر «السيد» مصر، ورجع مع ابنه سيدي أحمد إلى طنجة..

وفي سنة ١٩٣٠ عاد الشيخ في رحلة ثالثة إلى القاهرة رفقة شقيقيه سيدي عبدالله وسيدي محمد الزمزمي كي يتابعا دراستهما بالأزهر. فلبث معهما إلى سنة ١٩٣٥. وخلال هذه المدة صنف كتباً تعدّ قمّة في التأليف الحديثي. فذاع صيته واستفاض في المحافل العلمية ثناءً وإكباراً.. وتردّد عليه كبار شيوخ الأزهر وغيرهم أمثال محمد بخيت، والدَّجوى، والسقا، واللبان، وحمدان.. والتفَّ حوله طلبة العلم والدارسون، فعقد لهم حلقات إملائية بالمشهد الحسيني أحيا بها نهج أعلام المحدثين القُدامى، نَهْجاً كان قد اندثر منذ عشرات العقود لندرة فرسانه! وآخرهم السيد مرتضى الزبيدي العلامة الحافظ اللغوي..

وتوفي «السيد» ـ سقى الله ضريحه ـ في يناير ١٩٣٥. فعاد الشيخ إلى طنجة، وأخذ بزمام شؤون الزاوية خلفاً لوالده الإمام. فجدّد بناءها، ووسع رحابها، وعكف على الإنتاج بإزاء التدريس والتوجيه.. كان له، في مجالسه العلمية، أسلوب جذاب أخاذ متميّز فريد لم يألفه الناس إذ لا عهد لهم به.. أسلوب فيه حركية وقوة وجلال.. فيه تنمية للذوق العلمي والتلذذ به.. فيه دعوة حريصة إلى التيقظ.. إلى حرية الفكر من التعصب والجمود والسُّطْو المذهبي.. إلى التمسك بحجية الدليل على مسار الكتاب والسنة.. هذا الأسلوب تبدو معالمه خاصة في درسه «صحيح مسلم» و «جامع الترمذي» بالمسجد الأعظم.. هنا إذا جلس يبدأ بإملاء أحاديث كثيرة بأسانيدها، من حفظه، فلا يتلعثم، ولا يتوقف. فإذا فرغ منها عاد إلى

---

(١) أحمد بن عمر المرسي أبو العباس (؟ ـ ١٢٨٧) من كبار الصوفية، شيخ ابن عطاء الله الإسكندري، وتلميذ الإمام الشاذلي ـ ضريحه بالإسكندرية.

(٢) إبراهيم الدسوقي (١٢٣٥ ـ ١٢٧٧) إمام صوفي كثير الأخبار. له كتاب «الجواهر». ضريحه بدسوق ـ مصر.

(٣) أحمد البدوي (١٢٠٠ ـ ١٢٧٦) إمام زاهد، مؤسس الطريقة البدوية. ولد بفاس وتوفي بطانطا ـ مصر. له شهرة واسعة.

الحديث الأول، فيتكلم على تخريجه ذاكراً في بيان دقيق أسماء المحدثين الذين توافقوا على هذا التخريج من أصحاب الأمهات والأصول المسندة، فيدل على ألفاظها وطرقها ورواتها معزوّة إلى مُخَرِّجيها، وهو في عرضه هذا المسهب يصحح ويحسّن ويضعّف. ثم ينتقل إلى رجال الحديث فيترجم لكل واحد منهم ترجمة صافية تتضمن مواليدهم ونشأتهم ورحلاتهم وشيوخهم وتلامذتهم وأحوالهم وسِيَرَهم ووفياتهم، ترجمة توحي للسامع كأن الشيخ عاصر هؤلاء الرجال فما ترك صغيرة ولا كبيرة من حياتهم إلا أحصاها! ثم يُعَرِّج على الحديث، فيشرح في توسيع غريبه وألفاظه الشائكة، ويعرب ما يراه ضرورياً، ثم ينتقل لفقه الحديث، ومعناه، ومذاهب العلماء فيه، ويشير إلى دليل كل مذهب مع الإيرادات والأجوبة، ثم يقارن، ثم يصحّح ما هو الحق، ويعضده بالأدلة ويذكرها مخرَّجة معزوة مبينة، ثم يميل أخيراً إلى فوائد الحديث ومضامينه ودرره[1].. أسلوب فذّ لا يُضاهى.. هي نزهة علمية فكرية سامقة ذهبت بذهابه!. هو نمط عزيز مطلبه، تتلاحق فيه فنون الموضوع المطروح أصولاً وفروعاً، وتتماسك ودقائق مسائله التي يتصرف فيها الشيخ نقداً وتحليلاً تصرف الضليع الخبير!.

ومن طريف ما يحكى في شأن دروسه أنه أملى حديثاً تسلسل سنده برواة مرضى وذوي عاهة: حدثنا الأعمش، عن الأعرج، عن الأصم، عن الزَّمِن.. الخ، فلما انتهى من إملائه قال له أحد الظرفاء: بالله عليك سيدي، في أي مستشفى رويت هذا الحديث؟![2].

وأخرى أن أحد علماء طنجة حضر مرة درسه بالجامع الكبير في زحمة من الناس. ولما سمع كيف يسند الشيخ الإمام الحديث ويسلسله من حفظه، ويعقبه بترجمة كل راوٍ على حدة، ويطوف على نوادر حياته ودقائق فكره، أبهرته هذه الاستفاضة وأخذت بمجامع فؤاده، فالتفت إلى من بجانبه

---

(١) «حياة الشيخ أحمد بن الصديق» ص٢٩، بقلم تلميذه المبرز العلامة الداعية الشريف الشيخ سيدي عبدالله التليدي ـ بتصرف ـ.

(٢) «البرهان الجلي في تحقيق انتساب الصوفية إلى علي»، أحمد بن الصديق، تقديم ص١٩.

وقال له: ترى، لو كان للراوي في ذلك العصر عنوان معروف لما غفل سيدي أحمد عن ذكر اسم الزنقة التي قطن بها، ورقم منزله، وحتى رقم هاتفه ونوع سيارته ولونها!!.

ولم تقتصر مدة إقامته بوطنه ـ وهي ما بين ١٩٣٥ و١٩٥٧ ـ على نشر العلم ومزاولة التأليف، بل نرى الشيخ يصب نشاطه صبّاً على مقاومة الاستعمار ونضاله. ولا غرو.. فالشيخ الإمام كان في سنّ مبكرة يحضر بالجامع الكبير دروس والده «السيد» في صحيح البخاري، فيعير أذناً صاغية وقلباً واعياً لشرحه البليغ المؤثر، وهو يحث الناس على جهاد الكفار الغزاة، وعلى التأهب لهم، ويدعو على فرنسا بالخزي والدمار والهلاك.. فترعرع على بغض الاستعمار وكراهيته، فجابهه بروح إسلامية غايتها: إعلاء كلمة الله لأنها الدرع المتين لتحرير الأرض والفكر معاً حتى لا تقع الأمة في بؤرة الوهَن والتبعية العمياء للأطروحات الغربية التبشيرية.. وتصوُّرُه هذا لمفهوم الجهاد صرفه عن الانضواء تحت لواء أي حزب من أحزاب الميمنة أو الميسرة.. و «الحزب الحاكم» حالتئذ كان يدعو إلى نظام الحزب الواحد، حزب «المغرب لنا ولا لغيرنا»، حزب السيطرة التي يقبع وراءها الاستبداد القاهر! حزب يرى ـ في شدة شكيمة وضيق عين ـ أن كل من لم يرفع «علمه» ويجثو تحته رغبة أو رهبة، أو أن يزاحمه في درب سياسته، إنما هو خائن لوطنه مطرود من رحمته، مأواه «دار بريشة»! وموقف الشيخ الإمام من هذا الحزب يذكرني بموقف علامة الديار المصرية ومفتيها الأكبر الشيخ محمد بخيت المطيعي الذي كان لا يميل إلى «حزب الوفد»، الحزب الحاكم وقتئذ بمصر، فكفّره الوفديون، وأجمعوا على مناكدته، وبارزوه بالمماكرة!. فذهب «حزب الوفد» وغطرسته، وبقي الشيخ بخيت طوداً شامخاً بين أعلام الإسلام..

وأعد «الحزب الحاكم» عدته، فأثار في وجه الشيخ الإمام مضايقات الرَّهَج، لكنه ما راع وما توارى، بل جابه الأغوال والمكائد بنفس صامدة هي أشد وطأً ويقيناً من باطل «القوم» لأن الإنابة إلى الله عز وجل هي مفزعه وملاذه، وأن إعلاء كلمته جل جلاله فوق جحافل الاستعمار ومطامع

ذوي الأهواء هو مرامه وبغيته.. وتلاحقت عليه صنوف البلاء تستهدفه من كل صوب.. وكانت ثالثة أتافيها أن أدرج اسمه غداة الاستقلال في لائحة «الخونة» وصودر بيته!. فلم يتصاغر أمام هذه الفاجعة، ومثله لا يَضرَع جَنبُه، فبعث رسالة مفتوحة إلى رئاسة الحكومة يشد فيها النَّكِير على تلك الوشايات الزئبيقية التي ألصقت به، وتناقلتها شيعة «القوم» على حين غفلة من أهل الضمائر الحية، ونشرتها ألَسِنة رخيصة مغرية توهمتها إلى درجة اليقين! رسالته.. أزعجت مرقد نُسَّاج الزور الذين يلبِّسون الحق بالباطل.. رسالته.. بدت كأنها مِكنسة ألقت بمطارح الافتياء في مزبلة التاريخ!. ودعني، قارئي الكريم، أسوق إليك نصها صوناً للحقيقة نفسها.. قال الشيخ:

حضرة صاحب الدولة رئيس مجلس الوزراء بالحكومة المغربية.

المحترم السيد مبارك البكاي.

وبعد،

فبناء على الظهير الشريف القاضي بتثقيف أملاك الخونة والمتآمرين على العرش ومصلحة الدولة.. وبناء على إدراج اسمي ضمن لائحة الذين يشملهم الظهير المذكور، أنهي إلى علمكم الكريم ما يأتي:

إنه لمن المؤسف والمؤلم حقاً، يا سعادة الرئيس، أن تتخذ احتياطات خطيرة كهذه من طرف حكومة مسؤولة دون أن تتوفر على الحجج الكافية لإدانة بعض من تشملهم اللائحة المذكورة طبق أبسط قواعد العدالة والشرع كما هو الشأن في إدراج اسمي ضمن هذه اللائحة مع أنني منذ كنت وأنا حرب على الخونة والخيانة والاستعمار، ولا يمكن بحال أن يثبت عني ولو في قضية واحدة أنني خدمت الاستعمار، أو تعاونت معه، أو أيدته بموقف من المواقف حتى ولو كانت مواقف مجاملة كحضور في حفلة، أو إلقاء كلمة، بل بالعكس، كانت مواقفنا بفضل الله تعالى كلها مشرفة، وضدّ المستعمر، إما في قضايا فردية ـ وهذه لكثرتها تكاد تكون من قبل ما لا يدخل تحت حصر، وملفاتنا في إدارات المستعمر سواء في

الشمال أو الجنوب شاهدة بذلك ـ وإما في قضايا علنية لعل خبرها لا يكون خافياً عليكم. وما محنتنا الأخيرة وتعرضنا للسجن والغرامة والنفي[1] والإذاية والاضطهاد إلا من جراء موقفنا ضد المستعمر، والقيام بعملٍ رجونا منه ـ علم الله ـ القيام ببعض ما يفرضه الدين من إعلان الحرب والجهاد ضد العدو المستعمر. ومع أننا قضينا كل المدة التي حكم علينا بها في السجن، وهي ثلاث سنين ونصف، أي من شهر فبراير **١٩٥٠** إلى متم غشت **١٩٥٣**[2]، لم يهدأ خاطر الاستعمار، ولم ترضه تلك المدة، فعمد إلى الكيد والمكر والاحتيال، وقرر نفينا من جديد من غير مبرر ولا قانون أصلاً، الأمر الذي اضطرنا إلى أن نبيع ما كان في ملكنا من فراش وأثاث وكتب لتسديد بعض ما كان قد ترتب علينا من ديون لأجل الحركة التي كنا قمنا بها، ولقوت العائلة الكبيرة التي تعرضت معنا لتحمل النفي والاغتراب. وعندما كانت خيوط المؤامرة الشنيعة تحاك في الخفاء وتدبر ضد محمد الخامس عرض علينا، ونحن في السجن، أن نوافق على مبايعة محمد بن عرفة في مقابل أن يطلق سراحنا قبل انتهاء مدة الحكم، فرفضنا وتحملنا من أجل ذلك محناً جديدة ومضايقات شديدة يعلمها أهل مدينة أزمور وجميع زوّارنا الذين تردّدوا علينا في أثناء تلك المدة حتى أن منهم من سجن وضرب من أجل زيارته لنا. وهكذا تعرضت لمحنة أخرى داخل السجن بسبب رفضي لمبايعة ابن عرفة، ثم لمحنة النفي المصطنع والسجن والإذاية من جديد وضياع مكتبتي التي كانت أعزّ شيء لديّ. ثم أشياء

---

(١) نفي إلى سجن العادر بين الجديدة وأزمور. وظل قرابة تسعة أشهر في مسكن على شكل فيلا صُغيرة ذات غرفتين وحديقة. ثم انتقل إلى أزمور إلى منزل من طبقتين في حيّ شعبي. وكانت معه أزواجه الأربعة. وقد أعدت الإدارة الفرنسية بجانب هذا المنزل بيتاً للحراسة لمراقبة كل من يزوره. وكان شقيقه العلامة المحدث سيدي عبدالعزيز كثير التردد عليه، كما كان يزوره أيضاً أخواه الدكتور سيدي إبراهيم والعلامة سيدي الحسن الذي أقيم حفل عقد قرانه في هذا المنزل. كما كان يتقاطر عليه زوار يأتونه من أنحاء المغرب.

(٢) حكمت عليه محكمة الإدارة الدولية في طنجة بدعوى أنه أشهر الحرب على إسبانيا التي ما فتئت تسعى إلى أن يسلم إليها.

أخرى يطول شرحها وتعدادها. ولم أتمكن من رجوعي إلى داري الوحيدة التي أملكها إلا في ظل الاستقلال[١]، ولولاه لكنت إلى الآن لا أزال مبعداً من غير قانون أصلاً إلا قانون الانتقام. وها أنا ذا أتحدّى كل واحد يتهمني بالمشاركة في المؤامرة من قريب أو بعيد أن يأتي ولو بشبهة بَلْهَ الحجة تثبت له ذلك، وإن فعل - ولن يستطيع أبداً - فأنا أحكم على نفسي سلفاً ومن غير احتياج إلى محاكمة بالقتل، لا بتثقيف الدار فقط. ولذا فأنا أطلب من سعادتكم أن تعجلوا بمحاكمتي، وأن تجعلوني في طليعة من تحاكمهم المحكمة والسلام.

حرر بطنجة في **١٢ صفر ١٣٧٧/ ٨ شتمبر ١٩٥٧** - الإمضاء: أحمد بن الصديق[٢].

ولم تعقد محاكمة.. وظلت رسالته تحمل تحدياً صارخاً لأي جواب مُرَجَّم متململ غير صريح. فكان السكوت، وإن السكوت في مثل هذا الموقف لَإقرار بمضامينها، ولَدليل الرضا على ما فيها من معالم الحق..

ثم غادر وطنه الذي أحبّه، وناضل وقاوم من أجل استقلاله وحريته، غادره وقد أساء إليه قومه أيّما إساءة، وعاد إلى القاهرة وهو يردِّد: أنا نعمة مكفورة، أنا نُوحِيّ المشرب!

---

(١) مباشرة بعد الاستقلال ذهب إلى الدار البيضاء، ثم إلى سلا، فاستقر بها حيث الزاوية الصديقية. وفي هذه المدينة كان يزوره زعيم حزب الشورى والاستقلال المجاهد الشريف سيدي محمد بن الحسن الوزاني، والأستاذ عبدالهادي بوطالب، والأستاذ أحمد بن سُودة.

ومن أعجب ما حدث خلال مقامه بها أن فدائيي حزب الاستقلال اغتالوا فقيراً صديقياً بإيعاز من أحد أبنائه العاق، وحذروا الناس من المشاركة في تشييع جنازته، لكن الشيخ الإمام سيدي أحمد لم يكترث لهذا التهديد، فهيأ مراسم الجنازة في منزله، وأقام «العمارة» على نعشه، ثم تقدم الموكب إلى المقبرة في ذكر بأصوات مرتفعة. ورجع إلى بيته ولم يمس بسوء!

(٢) «حياة الشيخ أحمد بن الصديق» للعلامة التليدي.

لكنّ رسالته تلك لم تذهب هَدْراً، فقد كانت فاتحة خير إذ قرعت - وبشدة - باب الاحتجاج على المظالم يوم كانت على الأفواه أقفال، وفي الأيدي أغلال، وعلى العيون ضِماد! مظالم كان يحوكها «الحزب الحاكم» بسياط الكبت والقهر ضدّ مواطنين مكافحين، ذنبهم أن منهجهم في معترك النضال ضد الاستعمار لم يكن يسلك رَسْم نهجه هو! وبدأت صَيْحَات تجهر بقول الحق، وأقلام تصدع بكلمة سواء، وتكشف عما أودع سرًّا في مطاوي التاريخ وضمير الزمان، وتطارد أشباح الأفيكة وتهاويلها، فصَرَّح الحَقين عن مَحْضِه، واختفت أصوات الباطل، وانقطعت الألسنة الجارحة!.

وهنا يتسع المجال للإشارة إلى أن ملفات «طمس الحقائق» فيما يخص أحداث طنجة، ما زالت حبيسة الظلام، ستيرة في زوايا السجلات والمستندات والمخطوطات، لكن ذوي الهمم الصادقة سيميطون عنها النقاب، وسيكشفونها للعيان بوثائق ناطقة، ومجلة «الطنجيون» لا إِخالُها إلا منبراً دوياً لمثل هذه النشرات، ووقتها يبدو النَّجيث! ومن خبايا تلك الملفات حادث ٣٠ مارس ١٩٥٢.. ولقد طوَّح بي العجب وأنا أقف على دعوى تغمز الشيخ ومريديه بأنهم كانوا وراء زوبعة هذا الحادث المأسوي.. وأرى التاريخ يُخرج لسانه لهذه الفرية ساخراً منها لأن الشيخ وقتها كان وراء قضبان الزنزانة حيث مكث في السجن من فبراير ١٩٥٠ إلى غشت ١٩٥٣!. عجباً، أو نسي القوم - وما نسي التاريخ - ثورة الشيخ ضد الاستعمار سنة ١٩٣٥ و١٩٤٩؟. أو نسوا - والتاريخ يقظان لا ينسى - تلك المظاهرة العارمة التي قادها الشيخ ضد فرنسا على إثر حوادث الدار البيْضاء سنة ١٩٤٧؟ فكان كلما مرّ بقنصلية للدول المستعمرة سلَّم لمقيم إدارتها رسالة احتجاج على مذبحة الدار البيضاء الوحشية الغادرة! مظاهرة كانت نواتها بالزاوية الصديقية، ومنها انطلقت، وشارك فيها آلاف المواطنين منهم من لا يزال حيًّا يرزق! وفي رحاب الزاوية ألقى الشيخ كلمة حماسية رنانة خلَّدت بعض فقراتها جريدة «الوحدة المغربية»[1].. قالت:

(١) عدد ٥٦٣ - شوال ١٣٦٥ - نقلاً عن المصدر السابق. ٤٢.

..ثم صعد المنبر فضيلة العلامة الكبير الشريف سيدي أحمد بن الصديق - شيخ الطريقة الصديقية الدرقاوية - وألقى على الجمهور المتحمس كلمة جامعة بواسطة مكبر الصوت نظراً للازدحام الكبير، وسعياً وراء تبليغ النصيحة إلى كافة الحاضرين. وقد استهل خطابه بإيراد أحاديث نبوية في وجوب التضامن والاتحاد للدفاع عن مصالح المسلمين، ووجوب الاهتمام بشؤونهم، وعدم غشهم، وحثَّ الجمهور على السير في ركاب كل من ينصب نفسه لخدمة القضية العامة دون فرق ولا تمييز.. ثم وصف حال المسلمين وما نزل بهم من صنوف الإهانة والذل وهَضْم الحقوق مع أن الإسلام يُعدّ المسلمين بأن يكونوا أعزاء.. ثم حضَّ على العمل لرفع شأن الأمة، وبيّن أن من الواجب أن نتألم لبعض أفرادنا إذا أصابهم أذًى، فكيف وأمتنا أصبحت مهضومة الحق، وشريعتنا أصبحت متعذرة التنفيذ كما يريد الله تعالى ويرضى.. وصرّح بأننا أمة واحدة، وديننا واحد، ووطننا واحد، لا شيء يفرقنا ولا يمزق وحدتنا الأزلية الخالدة. نعم، ضيعنا أنفسنا بترك أوامر ديننا، واستكنّا إلى الدعة والكسل، وسكتنا عن المطالبة بحقوقنا، ولذلك قمنا الآن لنطالب بالحقوق المشروعة.. ثم حض على التمسك بالوحدة والتضامن والتآزر في سبيل نيل الحقوق والحريات، قائلاً: فإذا ما أجابت الإدارة مطالبكم فذاك ما نريد، وإلا فدافعوا عن حقوقكم، ورعاية الله تعالى تؤيدكم، وجلالة الملك المعظم معنا.. ثم حمل على من يريد بث التفرقة بين صفوف الأمة مصرحاً بأن الإسلام جمع بين قلوبنا، والمسلمون إخوة أينما كانوا، وعَملُ كل مفسد لا يفيد «ولا يحيق المكر السيىء إلا بأهله».. وتعرض لمسألة المظاهرات والاجتماعات فقال: إن الإدارة تحاول تهديدنا بالقانون الذي يمنع التظاهر في طنجة، ونحن نقول: إن التظاهر الذي يمكن للقانون أن يمنعه إنما هو التظاهر بالفوضى، ولكننا نتظاهر بالنظام والهدوء، ونطالب بحقنا المشروع، ونحن نتظاهر متضامنين شعباً وعرشاً في سبيل نيل أمانينا العادلة، ولسنا بأقل قيمة، ولا أحطّ منزلة من الأمم الصغيرة المستقلة التي تحكم نفسها بنفسها.. ثم ختم كلمته الرائعة، فحض الجمهور على الاستماتة في الدفاع عن حقه بالطرق المشروعة عند الوقت المناسب..

وألْفت النظر إلى وجوب التعاضد والتناصر والوحدة بين جميع الطبقات، وأن يكون الجميع على أهبة واستعداد للتضامن والدفاع عن الحقوق لأن الهدف واحد، والغاية مشتركة، وعلى الجميع أن يسير في ركاب جلالة الملك المنصور بالله، وأن يشد أزر العاملين المجدين الذين يعملون في سبيل إبلاغ الأمة ما تصبو إليه من الحرية والاستقلال..».

ومهما يكن، فإن هيأ الله الأسباب لطبع مخطوطه «البحر العميق» ـ وهو عميق الغَوْر جداً ـ لتبين الصبح لكل ذي عينين!.

هذه نظرة عجلى عن جهاد الشيخ السياسي. فماذا عن جهاده الفكري، وهو جانب آخر وضاء من نضاله الذي أفرغ فيه موهبته ومقدرته، وما بطر ذَرْعه..

لقد نشأ الشيخ على غرار والده الإمام محبًّا للسنة، آخذاً بناصية الدليل، ميَّالاً مع الحجة حيث مالت.. ولذا لم يكن شيء أبغض إليه، ولا أحقر، ولا أسقط في عينه من التقليد، لأن التقليد رِقّ، وعبودية من دون الله، وبدعة مضلة.. إنه التلاجج البغيض.. إنه التمادي في عماية الباطل أمام نور الحق.. إنه العناد المقيت.. إنه الإصرار على التمسُّك بالقول المخالف للنص الصريح المنبثق من الكتاب والسنة.. ثار الشيخ إذاً ضد هذه التبعية العجماء ثورة اتَّسمت في كثير من الأحايين بحمية صديقية، وحدة حَزْمية، وصرامة سَيُوطِيّة.. سبحَ ضدّ تيارها، وشنّ على أساطين أنصار عقابيلها انتفاضة عارمة في حلقات دروسه، وفي مجالسه، وفي مناظراته، وعلى صفحات كتبه، يبيّن ويرشد وينبّه، ويواجه التخاذل باليقين، والتفاهة بالجدّ، والشبهات بوثيق الحجج والبينات الملزمة دون أن يكترث للمضايقات والمناوآت، بل تراه يَسْخَرُ من محرِّضيها، ويهزأ بهم، ومن طريف ما حدث في هذا المضمار أن جماعة أحد شيوخ العلم والسياسة رفعوا إلى جلالة الملك المغفور له محمد الخامس طيب الله ثراه على إثر زيارته التاريخية لطنجة في ٩ أبريل ١٩٤٧ رسالة يطلبون فيها إصدار أمره لإقفال الزاوية الصديقية، فتسرب الخبر إلى الشيخ، فأنشأ جواباً على نَمَطِ

أسلوب الظهائر السلطانية ووجهه إليهم وفيه: . .إننا أمرنا بسد الزاوية الصديقية لمدينة طنجة كل يوم من بعد صلاة العشاء بساعة إلى قبيل الفجر بساعة، لا تفتح في هذه المدة أبداً إلا في المواسم والليالي الفاضلة!! فأبلسوا[١] . .

شق الشيخ عباب التقليد بكل قواه، وأحيا لمعارضته منهج السلف الصالح في التعامل مع النصوص، منهجاً يحرر العقل من سخافة الجحود، وسفالة التزمت، وغطرسة التعصب، وينير له معالم الطريق نحو فقه السنة حيث الحجة والدليل:

إني ذكرتُك والأعلامُ قد غَبَرُوا ... ولم يَعُدْ بيننا من وجْههم قَمَرُ
غابوا فلا سُنَّة المختار تُنعشنا ... ولا الكتاب، به نَبقَى، به نَذَرُ
لم يبقَ دين سوى التقليد منتشراً ... ولا امرؤ لكتاب الله ينتصرُ
عمَّ الجمود بلاداً أصبحت هَمَلاً ... من المعارف حتى نابها السحرُ
فقمتَ تنشر علماً صالحاً حسناً ... قِوامه الهدى والقرآن والخبرُ
حتى ملأتَ بلاد الله في عَدد ... من السنين علومها كلها أثرُ
دعوت للسنة الغراء مقتفياً ... نهج الثِّقات بدرس كله عِبَرُ
هذي تآليفُك الكُبرى وقد ملأتْ ... كل البقاع فمات الجهل والكَدَرُ
هذي دروسك في سمع الزمان وقد ... راقت مسامعنا واستبشر البشَرُ
أنت الهمام الذي أحيا بدعوته ... هدي الرسول إلى قوم له شكرُوا
يا عالم الدين والدنيا وواحدَها ... أنت الإمام وأنت القدوة الزَّفَرُ
جاءت «بتوجيهك الأنظار» بُغْيتَنا ... أنعم به من كتاب زانه النظرُ
أدحضتَ بالعلم والبرهان حجتَهم ... لم يبق شك ولا مين ولا حذرُ
وكيف والقدوة «الصديق» ناقشهم ... فهذه حجج التقليد تحتضرُ
كانت سيوفهم في أرضنا شُرعت ... كانت رماحهم في الجوّ تنتصرُ

---

(١) «جؤنة العطار» ج٣ /طريفة رقم ٧١٣.

فجئت بالحجة البيضاء تفحمهم   فأغمدوا سيفَهم والرّمح ينكسرُ
أدامك الله بالقرآن محتفلاً   وبالحديث فذاك الفوز والظَّفرُ
أدامك الله للإسلام حتى نرى   كل البلاد به تسمو وتفتخرُ
ودمت تروِّي نفوساً كلما ظمِئتْ   كالغاديات إذا جاءت بها مطرُ[1]

ولنصغ إلى الشيخ في نثارات من أقواله وهو يندّد بالتقليد والمُقلِّدة:

- .. يفعل الجاهل بنفسه ما لا يفعله العدوّ بعدوّه.. فالمقلدة لجهلهم بدينهم يَقْضُون بعد كبيرة التقليد فيما هو أكبر منها وأعظم وأطمّ.. فترى المفتي منهم والمدرس والمعلم يقول: حُكْم الله في المسألة الفلانية كذا، ويذكر نصوص فقهائه، وقد يكون ذلك الحكم مخالفاً لنص القرآن والسنة صراحة، وقد يكون مأخوذاً من مجرد الرأي، أو من «العمل الفاسد»[2] كما عند المغاربة ولم يَرِد عن الله ولا عن رسوله ﷺ فيه حرف واحد لا نصًا، ولا ظاهراً، ولا منطوقاً، ولا مفهوماً.. وهم مع ذلك يفترون على الله الكذب، ويقولون عليه ما لا يعلمون، وقد حرم الله هذا وجعله من أكبر الكبائر المساوية للشرك به، فقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ..﴾ فبدأ الله سبحانه وتعالى بالأخف، وهو الفواحش ما ظهر منها وما بطن؛ ثم ذكر ما هو أعظم، وهو الشرك بالله تعالى؛ ثم ختم بما هو أعظم من الجميع وهو القول عليه بلا علم!. ولهذا قال النبيّ ﷺ لسعد بن معاذ عند محاكمة اليهود: «**لا تُنْزِلهم على حكم الله، فإنك لا تدري حكم الله، ولكن أنزلهم على حكمك**». وكان بعض الأئمة من

(١) القصيدة للشاعر الملهم العلامة البليغ سيدي عبدالواحد أخريف في تقريظ كتاب الشيخ «توجيه الأنظار لتوحيد المسلمين في الصوم والإفطار».

(٢) يشير إلى: العمل الفاسي.

السلف الصالح يقول: ليحذر أحدكم أن يقول، أحلّ الله كذا وحرّم كذا، فيقول الله: كذبت لم أحلّ هذا ولم أحرم هذا، يعني في الأحكام المأخوذة من الرأي والاجتهاد لا من النص، وقد قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ..﴾ وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ..﴾ فانظر إلى هذا الوعيد الشديد بجعل الكاذب على الله أظلمَ الظالمين، وإيعاده بالعذاب الأليم، وعدم الفلاح في الدنيا والآخرة مع قرنه القول على الله بلا علم بالشرك بالله تعالى الذي لا يغفره ويغفر ما دون ذلك.. ثم تعجب من قول جهلة المقلدة في فتاويهم ودروسهم ومجالسهم: حكم الله في المسألة كذا، وهو لا يعلم هل هي مأخوذة من القرآن والسنة، أو من الرأي المجرد، أو من الخطأ الباطل المحقق، أو من «العمل الفاسد» الذي هو كفر محقق! فنسأل الله العافية[1]..

ويقول:

- ..من عجيب خذلان الله للمقلدة في بدعتهم أنهم يعتقدون حقيقة جميع ما قاله أئمتهم، وأنه ليس شيء في كلامهم خطأ مهجوراً، بل يجب عليهم القول بجميع ما رأوه في الدين إلا ما صح عنهم وتواتر من ذمهم للتقليد وإيجاب العمل بالنصّ إذا خالفه رأيهم، فإن المقلدة يوجبون مخالفتهم في هذا، وعدم طاعتهم، والعمل بقولهم فيه!! فاعجب لهذا الخذلان العظيم والضلال المبين[2]..

ويقول:

- ..أخبرنا الله تعالى في كتابه أنه شرع لنا نَبْذَ المذاهب، وترك التقليد، كما شرعه لسائر الأمم قبلنا، فقال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا

(١) «جؤنة العطار» ج٢/٢٤١، فائدة رقم ٥٢٣.
(٢) نفس المصدر، ج٢/٢٥٦.

وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ﴾ أي فتجعلوه مالكياً وشافعياً وحنفياً وحنبلياً وأشعرياً ومَاتُرِيدِيًا، فأبى المبتدعة إلا مخالفة ما شرعه الله لهم. ولما علم الله ذلك كائناً منهم أمر نبيه ﷺ بالبراءة منهم، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗا لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍۚ..﴾ فانظر إلى هذا وتعجب!![1].

ونبع من هذه الثورة الفكرية على التقليد مصنف عجيب، فريد في فنّه، يعدّ تحفة من تحف تآليف الشيخ التي لم تجد غالبيتها بعدُ سبيلاً لنشرها في دنيا العلم.. أسماه: «الإقليد في تنزيل كتاب الله على أهل التقليد»[2].. يقول في مقدمته:

« ..فهذا إملاء في تنزيل كثير من آيات كتاب الله تعالى على المقلدة والتقليد، وما تضمنته على ذلك من الوعيد الشديد، والإنذار والتهديد، إما بطريق القصد والتصريح، أو على سبيل الإشارة والتلويح، وضعته من غير مراجعة كتاب، ولا تصنيف سبقت به في الباب، بل هو مجرد إملاء ما جرى على الخاطر العليل، ومحض ما حضر في الذهن الفاتر الكليل، لأننا في سجن واعتقال، وتغرب عن الوطن والآل، وفقد من الكتب والمواد، والمراجع التي يتم بها الاستعداد، لكنه مع ذلك تحفة للعاملين بالسنة، وتكميل لما عليهم من عظيم المنة، يزيدهم في العمل بالكتاب والسنة رغبة، ومن ضلال التقليد ابتعاداً ورهبة..».

---

(١) نفس المصدر، ج٢/٢٥٦.

(٢) كتاب في مجلد ضخم يقع في أكثر من ٧٠٠ صفحة. كتب استعرته من شيخنا العلاَّمة المحدث الكبير سيدي عبدالعزيز بن الصديق ـ رحمه الله ـ قصد نسخه وتحقيقه وذلك في منتصف الستينات.

فلم يسعني الحظ على إتمامه إذ رددته إليه بطلب منه. وعندي ملزمة من مسودته في ٩٦ صفحة بخط الشيخ الإمام نفسه أهدانيها شيخنا الجليل العلاَّمة الصوفي سيدي محمد البقالي متعه الله تعالى بكمال العافية.

وكأن الرغبة تلح عليَّ في أن أوقفك، قارئي الكريم، ولو على نموذج واحد من تفسيره هذا الفذّ كي تقيس بنفسك مدى حرارة الشيخ في مطاردته الصريمة ظلمة التقليد التي هي أشد عليه من ظلمة سجن آزمور وغيهبته!.
يقول:

«.. ثم وصف الله تعالى التقليد بأنه فساد في الأرض، والمقلدة بأنهم مفسدون. فقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾﴾ وإنما كان التقليد فساداً في الأرض لأن صلاحها وصلاح من على ظهرها إنما هو بمدد الله ومعونته وخلقه ورزقه وإيجاده وتدبيره، وهو سبحانه إنما ينزل بركات السماء، ويخرج بركات الأرض، ويدفع عن أهلها الآفات، وينصرهم على الأعداء، ويوفقهم للخيرات بمُوالاته وطاعته والإيمان به وعبادته وحده. ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾.. ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾.. إنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم، بدعائكم وإخلاصكم.. فإذا اتفق أهل الأرض على العصيان والمخالفة والشرك به تعالى بتقديم رأي المخلوق عليه وعلى رسوله ﷺ وما جاء به صرف الله عنهم عونه وتأييده، وحرمهم هدايته وتوفيقه، وأحلّ بهم غضبه ونقمته فوقع في الأرض ما لا يكيّف من الفساد. فلذلك كان التقليد فساداً في الأرض والمقلدة مفسدين.

وفي هذه الآية معجزة ظاهرة، وهي الإخبار بأن العاملين بالسنة لا ينقطعون من هذه الأمة وإن قلُّوا، كما قال النبيّ ﷺ في الحديث المتواتر عنه: «**لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم حتى تقوم الساعة وهم على ذلك**».. والطائفة في اللغة تصدق على الواحد والاثنين. فالقائل للمقلدة: «**لا تفسدوا في الأرض**» هم الطائفة المذكورة. ففي كل عصر يبعث جماعة أو واحداً على الأقل يعمل بالسنة، ويدعو المقلدة إليها، ويوضح لهم الحجة،

ويبيِّن لهم فساد ما هم عليه.. وأنا - ولله الحمد - في عصري منهم. فكم دعوت، وكم ناظرت، وكم جادلت، وكم حاربت، وكم قرأت من الدلائل، وكم سردت من البراهين والحجج، فما آمن معي إلا قليل! فكنا - كما أخبر الله تعالى عنا وعنهم - إذا قلنا لهم: لا تفسدوا في الأرض بمحاربة الله ورسوله ﷺ، ومعارضة الكتاب والسنة، قالوا: إنما نحن مصلحون، وما تدعونا إليه هو عين الفساد والضلال!! فإن القرآن والسنة فيهما الناسخ والمنسوخ، والعام والخاص، ونحن لا قدرة لنا على معرفة ذلك، وإنما يعرفه الأئمة وحدهم وقد غربلوا لنا الدين، وأتونا به مُصَفًّى، مهذباً، منقَّحاً، محرراً، فما علينا إلا تقليدهم حيث قام لنا الدليل على وجوبه وحرمة العمل بالكتاب والسنة لأنه ضلال، وما كان ضلال فهو حرام، فنحن المصلحون وأنتم المفسدون!!

فكذبهم الله تعالى في دعواهم الفاسدة فقال: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾﴾ فذلك لأن بدعة التقليد تمكّنت منهم فأعمت بصائرهم، فهم لذلك لا يشعرون بفسادهم وإفسادهم في الأرض.. فإن ما أنزلتُه عليهم بمشارق الأرض ومغاربها من الخزي والعار والذلّ والهوان وتسليط أعدائهم عليهم إنما هو بسبب التقليد والإعراض عما أنزلته عليهم من كتابي الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وأخبرتهم فيه أنه هدى لا ضلال فيه، وأن من تمسك به لا يضل. وكذلك الإعراض عن نبيّ الهدى الذي بعثته لأهدي به من الضلالة لا لأضل به بعد الهدى. وقلت لهم في حقه: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ...﴾، وهم يقولون: إن نطعه نضل!! وقال لهم رسولي: «**لقد تركت فيكم ما إن تمسّكتم به لن تضلوا بعدي، كتاب الله وسنتي**».. وهم يقولون: إن تمسكنا بهما ضَلَلْنا!! أفلا يستحق أهل هذا الكفر والعناد والإشراك والتكذيب أن أنزل عليهم غضبي، وأحل عليهم نقمتي، فأفسد أخلاقهم، وأبتليهم بحبّ الدنيا، والوقوع في المعاصي، وأميت قلوبهم، وأفرق جمعهم، وأشتت كلمتهم، وأسلط عليهم أعداءهم، فيُذلُّونهم ويستبيحون خضراءهم، بل أجعل اليهود الذين ضربت عليهم الذلة

والمسكنة أعلى جانباً منهم، وأشد رابطة وائتلافاً بينهم، وأشد تمسكاً بدينهم الباطل منهم.. وانظر عصر السلف الصالح - زمن الصحابة والتابعين - الذي لم يظهر فيه بدعة التقليد كيف نصر الله تعالى أهله وأعزهم بدينه وطاعة الله ورسوله ﷺ حتى ملكوا بقاع الأرض من مشرق الشمس إلى مغربها، وتغلَّبوا على أعاظم الملوك والدول بقوة إيمانهم وشدة تمسكهم بالدين وعظيم إجلال الله تعالى ورسوله ﷺ في صدورهم. فلما ظهرت بدعة التقليد من أصحاب أبي حنيفة ومالك، ظهر معهما ابتداء تضعضع أركان الدولة الإسلامية بعد زمان المأمون الذي هو زمان ابتداء التقليد. وكلما ازداد فُشوًّا وظهوراً ازدادت الدولة الإسلامية معه تقهقراً وسقوطاً إلى أن بلغ التقليد منتهاه.. وانظر إلى قطر صقلية والأندلس لما كان أهلها في غاية التمسك بالتقليد والمحاربة للكتاب والسنة كيف عاجلهما الله تعالى بسقوطهما بالكلية، فَاضْمَحَلاَّ من الوجود قبل سائر الأقطار بمئات السنين. فكان أهلها المقلدة هم المفسدين الجالبين نقمة الله تعالى على العباد والبلاد ولكن لا يشعرون!.

فإن قيل: إنما حلَّ هذا بالمسلمين بسبب المعاصي والمخالفات!.

قلنا: صدقتم، ولا مخالفة ولا معصية أكبر من التقليد والإعراض عن الكتاب والسنة، وتقديم الرأي عليهما، واعتقاد أن العمل بهما ضلال!. فما أنزل الله تعالى عقوبته بالمسلمين إلا من أجل هذا خاصة.. أما المعاصي الأخرى فكلها كانت موجودة زمن النبيّ ﷺ والخلفاء الراشدين والسلف الصالح. ولولا وجودها في عصره ﷺ لما نقلت إلينا أحكام الزنا والسرقة وشرب الخمر والقذف وقتل النفس والحرابة والغلول وبيان إثم الكذب والغيبة والنميمة والحسد والحقد وغير ذلك. ويكفي فجور بني أمية وجورهم وظلمهم، هم وعمالهم كالحجاج وبُسْر بن أرطأة وزياد بن أبيه وسَمُرَة بن جندب وأمثالهم، ومع ذلك كانت الأمة منصورة، والدولة عزيزة لأنهم لم يتفقوا على معارضة كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ واعتقاد أن العمل بهما ضلال، بل كان

الدين لا يعرف إلا منهما، والعمل لا يصحّ إلا باتباعهما. فلما ظهر التقليد، واتفقت الأمة عليه ـ إلا من رحم الله تعالى ـ أنزل الله عقوبته بالجميع: «أنُهلك وفينا الصالحون؟ قال: **نعم إذا كثر الخبث**..» أي التقليد لا غيره.. فإن ما كان في الدولة الأموية وأوائل الدولة العباسية من الجور والفجور لم يصل إليه الناس اليوم، كما يعرف من التاريخ. فإذا كان أهل العصر يقومون بالواجبات والمسنونات وسائر أعمال البرّ والخيرات ـ كما كان أولئك يفعلون ـ ثم هم مع ذلك أقل فجوراً وجوراً من أولئك وقد أعزهم الله وأذل هؤلاء، ونصر أولئك وخذل هؤلاء، فما موجبه إلا التقليد الملعون الذي هو عين الفساد في الأرض وأهله هم المفسدون..»[(١)].

أسمعت أعجب من هذه الخواطر في استنباط الدليل تلو الدليل على ضلالات التقليد وأثرها في ماضي الأمة الإسلامية وحاضرها، ولا شك قد انتزع منك قبولاً وإن في تحفظ!

ولقد طفح أثر دعوته إلى اتّباع السنة ونبذ التقليد يوم أن بعث إلى والده الإمام من القاهرة كتابه الفذّ «المثنويّ والبتار في نحر العنيد المعثار الطاعن فيما صح من السنن والآثار»[(٢)] فأقام «السيد» حفلة عظيمة بالزاوية حضرها جم غفير، ابتهاجاً بهذا المصنف الذي عزز بالدلائل النواطق بالحق وجوب وضع اليمين على الشمال في الصلاة، وقد كان الفقراء الصديقيون قريبي العهد «بالقبض» الذي استنكره المقلدة وأنفوا منه! وذاع أمر الكتاب،

---

(١) «الإقليد» ٢٢ من المخطوط.

(٢) طبع الجزء الأول منه بالمطبعة الإسلامية بالأزهر سنة ١٩٣٢ في ٣٤٨ صفحة. وهو ردّ مفحم على كتاب الشيخ العلاّمة محمد الخضر الشنقيطي (؟ ـ ١٩٣٥) مفتي المدينة المنورة، أسماه: «إبرام النقض لما قيل في أرجحية القبض». ثم طبعت مقدمته منفردة سنة ١٩٣٣ في ٣٩ صفحة من الحجم الصغير أسماها: «رفع شأن المنصف السالك وقطع لسان المتعصب الهالك بإثبات سنية القبض في الصلاة على مذهب الإمام مالك».

وتناقل الناس فحواه، وبدؤوا ـ على خجل وحشمة ـ يطبقون هذه السنة النبوية التي أحياها الشيخ وبعثها من مرقدها حتى صار «من قَبَض قُبِض» حكماً سلطانياً يروى!.

أثر جهد الشيخ الدؤوب في حياة الناس الدينية، في فكرهم، في مواقفهم تجاه أعراف وعوائد لا تسير وفق الهدي النبوي، هنا في طنجة وتطوان والقصر الكبير وأزعاير وغيرها من المدن. وأخصب جهده هذا المتواصل فأعطى أكله لأنه سلم من الأهواء، ومن حبّ الذات.. ولنسمعه يطري مريديه العاملين بالكتاب والسنة:

يـا أهـل وُدِّي أنـتـم أهـل الـوَفَـا	بـوجـودكـم هـذا الـوجـود تـشـرفَـا
الله أعـلـى قـدرَكـم وحَـبَـاكـم	مـا خـصَّـكـم بـيـن الأنـام وشـرفَـا
...وبهَذيكم يحيا الأنام ويهتدي	من كان منهم بالضلال على شفَا
طوبى لكم قال الرسول لأنكم	أحيَيْتم من هَدْيه ما قد عفَا
ولكم به فضل الشهادة رحمةً	بجناب مَن هَديَ الرسول قد اقتفَى
لكمُ الهنَا يا ناصرين طريقَهُ	ما الفَخْرُ إلا في اتباع المصطفى[1]

واستَنَّ نهجه في الدعوة إلى العمل بالسنة إخوته أثبات العلم وأرباب الاجتهاد. وسأفرد بحول الله لكل واحد من هؤلاء الأعلام ترجمة تنشر تترى على صفحات جريدة «الطنجيون» الغراء.

وإذا ما كانت وطأته شديدة على التقليد والتمذهب فقد صبَّها صواعق أشد وأعنف على النصب والنواصب! انبرى لأئمة جهابذة أمثال شيخ الإسلام ابن تيمية والذهبي وابن كثير وابن خلدون وابن عربي المعافري والباقلاني وغيرهم رحمهم الله، يميط النقاب عن مواقفهم من آل البيت الأطهار، ويأخذهم في نصبهم أخذاً وبيلاً! وقلما خلا ما قرأت من مؤلفاته من إشارة أو تلويح أو اقتحام نجيد على هذه النزعة! فسماعك قارئي الكريم

---

(١) من قصيدة في سبعة عشر بيتاً أودعها كتابه «جؤنة العطار» ج١٦١/١.

إلى صراحته النادرة وصدقه الجياش وهو يرد على بعض هؤلاء الأعلام واضعاً جلاء الحق في نصابه فيقول بلسان مناضل خبير:

ـ . . أظهر الذهبي في «تاريخ الإسلام» اعتدالاً في حق آل البيت وأعدائهم بني أمية، وأراد أن يخفي أثر النصب الكامن في نفسه فيه بخلافه في كتبه الأخرى، ولكنه لما جاء إلى ترجمة الحكم بن أبي العاص غلبه ما في نفسه فقال: «أسلم يوم الفتح، وقدم المدينة، فكان ـ فيما قيل ـ يفشي سرّ رسول الله ﷺ». . كذا حكى عنه بصيغة التمريض!. ثم قال: «فطرده رسول الله ﷺ وسبَّه». . كذا قال: سبَّه. . والواقع المروي بالطرق الصحيحة أنه: لعنه!. قال: «وأرسله إلى بطن وجّ، فلم يزل طريداً إلى أن ولي عثمان بن عفان، فأدخله المدينة، ووصل رحمه، وأعطاه مائة ألف درهم لأنه كان عمّ عثمان بن عفان. . وقيل: إنما نفاه رسول الله ﷺ إلى الطائف لأنه كان يحكيه في مشيته وبعض حركاته». . كذا يحكي هذا بصيغة التمريض مع أنه مرويّ بالأسانيد الصحيحة. . ثم قال: «وقد رويت أحاديث منكرة في لعنه لا يجوز الاحتجاج بها». . كذا قال، مع أنها أحاديث صحيحة!. والعجب أنه نفسه صحح بعضها في نفس الترجمة، فأورد عن الشعبي قال: سمعت ابن الزبير يقول: ورب هذا البيت، إن الحكم بن أبي العاص وولده ملعونان على لسان محمد ﷺ. . ثم قال: «إسناده صحيح»! ونسي ما قال قبله بِبِضعَة أسطر: إنها كلها منكرة!!

. .ثم قال الذهبي: «وقال معتمر بن سليمان عن أبيه، عن حنش بن قيس، عن عطاء، عن ابن عمر، قال: كنت عند النبيّ ﷺ فدخل عليّ يقود الحكم بأذنه، فلعنه نبي الله ﷺ ثلاثاً». . ثم قال الذهبي: «قال الدارقطني: تفرد به معتمر. .» قلت: وهو ـ أي معتمر ـ ثقة من رجال الصحيح. وأكثر أحاديث الصحيحين أفراد. .

ثم قال: «وعن عبدالله بن عمرو قال: كان الحكم يجلس إلى رسول الله ﷺ وينقل حديثه إلى قريش، فلعنه رسول الله ﷺ ومن يخرج

من صلبه إلى يوم القيامة».. ثم قال: «تفرد به سليمان بن قدم وهو ضعيف».. قلت: كيف يدعي تفرُّده به وهذه الطرق كلّها مثله. وإنما يُدَّعى التفرد فيما لم يأت به غيره. وقد روي خبر لعن النبيّ ﷺ الحكم وبنيه في صلبه من طرق أخرى من حديث جماعة آخرين من الصحابة أعرض عنها الذهبي.

والمقصود التنبيه على تدليس الذهبي في شأن بني مروان، بل التناقض الظاهر والتميّز الباهر. فسبحان من ابتلى أهل الشام بحب بني مروان، والانحراف عن آل البيت الأطهار! ومن رأى كلام ابن كثير عرف أن الذهبي لا شيء بالنسبة إليه[1].

ويقول الشيخ أيضاً كاشفاً عن تدليس الإمام الذهبي في الحديث المتواتر: «**من كنت مولاه فعلي مولاه**»:

ـ ..أورد الذهبي في ترجمة عليّ ـ عليه السلام ـ حديث إبراهيم بن المنذر الخزامي، ثنا إبراهيم بن مهاجر بن سلمان، عن عامر، عن أبيه قال: أما والله أشهد رسول الله ﷺ يوم غدير خُمّ[2]، وأخذ بضبعيه: «**أيها الناس، من مولاكم؟**». قالوا: الله ورسوله.. قال: «**من كنت مولاه فعليّ مولاه، اللهم والِ من والاه، وعادِ من عداه**».. ثم قال الذهبي: إبراهيم هذا، قال النسائي: ضعيف!.

قلت: هكذا يدلس الذهبي في هذا الحديث فيورده من طريق سعد بن أبي وقاص وحده، ويوهم مع ذلك أن الحديث ضعيف، وهو من أعجب ما يحمله النصب عليه! فالحديث متواتر عن رسول الله ﷺ تواتراً لم يرد له من

---

(١) «جؤنة العطار» ج١/٢١ ـ طريقة رقم ٣٣ مختصراً.

(٢) غدير خُمّ: مكان بين مكة والمدينة على خمسة كيلومترات تقريباً من الجحفة، وبه نزل مولانا رسول الله ﷺ في حجة الوداع ـ السنة العاشرة من الهجرة ـ وللعلامة المؤرخ الشيخ عبدالحسين الأميني النجفي الشيعي كتاب «الغدير في الكتاب والسنة والأدب» في ١٥ جزءاً.

الطرق ما يماثله ولا يقاربه إلا حديث «**من كذب عليّ متعمداً**».. وما عداه من الأحاديث التي قيل فيها إنها متواترة لم يبلغ شيء منها طريق هذا الحديث..

أما تلميذه ابن كثير فذكر بعض طرقه، ولكنه سلك مسلكاً آخر افتراه من عنده، وأوحاه إليه نصبه، فزعم أن عليًا ـ عليه السلام ـ لما رجع من اليمن ولحق بالنبيّ ﷺ وهو بمكة في حجته اشتكى بعض من كان مع عليّ باليمن من الصحابة إلى رسول الله ﷺ، وذكروا له أنه ضيق عليهم في بعض الأشياء، قال: فأعرض عنهم النبيّ ﷺ إلى أن فرغ من حجته، ورجع إلى المدينة. فأراد أن يزيل ما في نفوسهم من جهة عليّ، فقام فيهم خطيباً بهذا الحديث لِيَرْدَعَهم عن ذلك، لا أنه أراد به الإخبار عن فضيلة عليّ، وأن هذا من المزايا التي خصه الله بها، فلا تدل إذاً على فضيلته ولا فضله!!

وقد روى الحاكم وغيره بالسند الصحيح عن أحمد بن حنبل ـ رضي الله عنه ـ قال: «ما ورد لأحد من أصحاب رسول الله ﷺ من الفضائل بالأسانيد الصحيحة ما ورد لعلي».. فهذا قول إمام الحفاظ وأهل السنة، ومن الطريف أيضاً أن الذهبي نقل هذا النص عن أحمد بن حنبل وحذف منه قوله: بالأسانيد الصحيحة، مع أنه كذلك في المستدرك ليبقي مجالاً للطعن في تلك الكثرة بأنها غير صحيحة، فلا فائدة فيها مع كثرتها!![1].

وقال الشيخ أيضاً في هذا الصدد:

زعم ابن كثير أن عليًا ـ عليه السلام ـ لم يكن من أهل البيت!! ذكر ذلك في تاريخه، فخرق الإجماع بذلك، وبرهن على أنه إما جاهل بالحديث

---

(١) «جؤنة العطار» ج١/٢٦ ـ طريفة رقم ٤١ باختصار.. يقول المحدث الكبير العلامة الشيخ محمد ناصر الدين الألباني في حديث الموالاة: .. فمن العجب حقًا أن يتجرأ شيخ الإسلام ابن تيمية على إنكار هذا الحديث وتكذيبه في «منهاج السنّة» ج٤/١٠٤ ـ انظر هذا القول في «سلسلة الأحاديث الصحيحة» ج٥/٢٦٣.

والفقه والأنساب كما قال الحافظ في معجمه: «إنه كان حافظاً على طريقة الفقهاء لا على طريقة المحدثين..»[1].

وعن نصب ابن خلدون يقول الشيخ:

لما كنت أردُّ على ابن خلدون في تضعيفه أحاديث المهدي استنشقت من كلامه أنه ناصبيّ منحرف عن آل البيت، فصرحت بذلك في كتابي[2] جازماً به.. ثم بعد أن طبع الكتاب رأيت الحافظ نص على أنه كان شديد الانحراف عن آل البيت، وأنه لأجل ذلك كان يثبت نسب الفاطميين المشهورين بالإلحاد والأعمال السيئة. قال: «وغرضه من ذلك أن يلحق العيب بآل البيت».. فحمدت الله تعالى على ذلك، فإن الحافظ خالطه، وخابره، وعرف أحواله.. ثم أدركت أيضاً من انتصاره لبني العباس، ونفي العيب عنهم، ونفي شربهم للخمر مع كونه أشهر من نار على علم أن غرضه من ذلك التشفي من آل عليّ ـ عليه السلام ـ للإذاية البالغة التي أنزلها العباسيون بالطالبيين.. فلعنة الله على المنافقين»[3].

هذه الثورة التي فيها جُسْأة وقساوة على أهل النصب اتخذها بعضهم ـ وهو ما زال إلى اليوم حيًا يرزق ـ ذريعة لاتهام الشيخ بالتشيع، وندّد به حتى أوقفه على عتبة الرفض، بدعوى أنه يذكر سيدنا عليًا ـ كرم الله وجهه ـ فيقول عقب اسمه: عليه السلام!! وأنه إذا صلى على مولانا رسول الله ﷺ يقول: صلى الله عليه وآله وسلم، ولا يضيف كلمة واحدة على قوله: على آله!! بمعنى أنه لا يصلي ولا يسلم على الصحابة رضوان الله عليهم.. فهذا

---

(١) «جؤنة العطار» ج٢/١٥ ـ غريبة رقم ٢٥٦.

(٢) أي «إبراز الوهم المكنون من كلام ابن خلدون». وسماه أيضاً: «المرشد المبدي لفساد طعن ابن خلدون في أحاديث المهدي» طبع سنة ١٩٣٨ في ١٦٠ صفحة بمطبعة الترقي الدمشقية، أثبت فيه تواتر أحاديث المهدي المنتظر عند أهل السنة والجماعة، وخاض في علم الرجال توثيقاً وتضعيفاً ما يؤكد على بلوغ الشيخ الإمام مرتبة الاجتهاد المطلق.

(٣) «جؤنة العطار» ج٢/١٥ ـ فائدة ٢٥٤ ـ جاء في صحيح مسلم قوله ﷺ لسيدنا عليّ ـ كرّم الله وجهه ـ: **«لا يحبك إلا مؤمن، ولا يبغضك إلا منافق»**.

اتهام لا يقوم إلا على ساق عرجاء، وأخرى بتراء. هو اتهام بارد جاف لا طعم له من علم. ولا أريد أن «اَتهم» قائله بشيء - فهو أدرى بما يوافق «مشرب» نفسه - لأني أسمع الشيخ يهمس في أذني قائلاً: ردِّد على هذا الذي كان تلميذاً لي فعاقَّني، ونبش في عقيدتي ورماني بالميل المتطرف إلى وحدة الوجود - سامحه الله - ردّد عليه ولا تزد قول الإمام الشافعي - رضي الله عنه -:

لَئِنْ كان ذَنبي حبُّ آل محمد فذلك ذنبٌ لستُ عنه أتوبُ
هُمُ شُفعائي يوم حَشْري ومَوْقفي إذا ما بَدَتْ للناظرين خُطوبُ

وقوله:

إذا كان رفضاً حبُّ آل محمدٍ فَلْيشهدِ الثقلانِ أنّي رافضِي[١]

وبعد،

فقد تصافق على مكانة الشيخ العلمية أولياؤه وأعداؤه.. جدّ في عيونهم فبجَّلوه وعظَّموه.. هو طود شامخ أهدى للمكتبة الإسلامية من بنات فكره قرابة مائتين وخمسين مؤلفاً، بين صغير وكبير، بعضها في مجلدات، وأغلبها ما زال مخطوطاً يرقد في الخزانات العامة، وفي رفوف النسيان عند بعض الخواص! وهذه بعض لآلئه:

- المداوي لعلل الجامع وشرحَي المناوي - ط -[٢].
- الهداية في تخريج أحاديث البداية - ط -[٣].
- وشْي الإهاب بالمستخرج على مسند الشهاب - خ -[٤].

---

(١) ديوان الإمام الشافعي - ص٤٨ و٩٣.
(٢) في ستة مجلدات. يعد بحق دائرة معارف في علوم الحديث وقواعده وأصوله. كتاب لم يصنف مثله.
(٣) في ثمانية مجلدات وهو في تخريج أحاديث «بداية المجتهد» لابن رشد.
(٤) في ثلاثة مجلدات ضخام.

- جؤنة العطار في طرف الفوائد ونوادر الأخبار - خ -[١].

- حصول التفريج بأصول الغزو والتخريج - خ -[٢].

- إتحاف الحفاظ المهرة بأسانيد الأصول العشرة - خ -[٣].

- فتح الملك العلي بصحة حديث باب مدينة العلم علي - ط -[٤].

- البرهان الجلي في تحقيق انتساب الصوفية إلى علي - ط -[٥].

- الأسرار العجيبة في شرح أذكار ابن عجيبة - خ -.

- مطابقة الاختراعات العصرية لما أخبر به سيّد البرية - ط -[٦].

- لثم النعم بنظم الحكم - خ -[٧].

- توجيه الأنظار لتوحيد المسلمين في الصوم والإفطار - ط -[٨].

- المنح المطلوبة في استحباب رفع اليدين في الدعاء بعد المكتوبة - ط -.

---

(١) في أربعة مجلدات. اعتنيت به وطبعت منه سنة ١٩٨٢ مجلدين على الساحبة، وبقي مجلدان.

(٢) طبع مؤخراً في مجلد لم يتم. نفيس جدًا لأنه يعلم كيف تصير محدثاً. وقد أرّخ فيه لفن التخريج، وبين قواعده وشروطه. فكان حقاً منشئَه.

(٣) وهذه الأصول هي: موطأ مالك، ومسند الشافعي، ومسند أبي حنيفة، ومسند الإمام أحمد، وصحيح البخاري، وصحيح مسلم، وسنن أبي داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه.

(٤) طبع طبعة ثانية بمؤسسة السعادة القاهرية سنة ١٩٦٩ في ١١٧ صفحة. والكتاب شاهد على تصرف الشيخ الإمام الدقيق المدهش في قواعد التحديث.

(٥) في ٢٥٤ صفحة، بمطبعة السعادة القاهرية سنة ١٩٦٩.

(٦) كتاب عجيب لم يسبق إليه، طبع أكثر من عشرين مرة أولها سنة ١٩٦٠، طبعة محمد عاطف في ١٤٣ صفحة.

(٧) هو نظم لحكم ابن عطاء الله الإسكندري في ٧٧٦ بيتاً، وللعلامة الصوفي الشيخ سيدي محمد البقالي شرح عليه لم يتمه.

(٨) طبع بمؤسسة العهد الجديد في القاهرة في ١٢٠ صفحة - وقد وافق هذا التوجيه فضيلة العلامة الكبير سيدي علال الفاسي رحمه الله في كتابه: «الجواب الصحيح والنصح الخالص عن نازلة فاس وما يتعلق بمبدأ الشهور الإسلامية» الذي طبع سنة ١٩٦٩ في ٣٦ صفحة.

- تخريج الدلائل لما في رسالة القيرواني من الفروع والمسائل - خ -[1].

- إزالة الخطر عمن جمع بين الصلاتين في الحضر - ط -[2].

- الإقناع بصحة صلاة الجمعة في المنزل خلف المذياع - ط -[3].

- إقامة الدليل على حرمة التمثيل - ط -[4].

- شد الوطأة على منكر إمامة المرأة - خ -.

- تحقيق الآمال بإخراج زكاة الفطر بالمال - ط -.

- بيان غربة الدين بواسطة العصريين المفسدين - خ -.

- الاستنفار لغزو التشبه بالكفار - ط -[5].

- إعلام الأذكياء بنبوة خالد بن سنان بعد المسيح وقبل خاتم الأنبياء - خ -[6].

- إياك من الاغترار بحديث اعمل لدنياك - ط -[7].

---

(١) في جزءين. وهو غير كتابه: «مسالك الدلالة على مسائل الرسالة» الذي هو شرح بالحديث على المذهب المالكي - طبع بمصر عدة طبعات.

(٢) طبعته سنة ١٩٤٩ دار التأليف القاهرية في ١٦١ صفحة.

(٣) «الإقناع» طبع في ٥٣ صفحة بالقاهرة بتقديم العلامة المحدث الكبير الشيخ سيدي عبدالله بن الصديق رحمه الله، وهو عجيب فريد.

(٤) أعيد طبعه سنة ١٩٧٩ بدار مرجان للطباعة ومعه «إزالة الالتباس عما أخطأ فيه كثير من الناس» للمحدث الكبير العلامة الشيخ سيدي عبدالله بن الصديق، وهو في نفس الموضوع.

(٥) طبع أول مرة سنة ١٩٦٤ بالمطبعة المهدية بتطوان في ٧٩ صفحة بتحقيق العلامة الصوفي الشيخ سيدي عبدالله التليدي. وأعيد طبعه سنة ١٩٨٩ بدار البشائر الإسلامية ببيروت.

(٦) عن سبب تأليف هذا الكتاب الفذ انظر فائدة رقم ٥٥ من ج١ في «الجؤنة» ص٣٤.

(٧) وهو كتاب حافل اختصره من مصنفه الذي أسماه «سبل الهدى في إبطال حديث: اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً» - ط -.

- مسند الجن - خ -[1].

- مجمع فضلاء البشر من أهل القرن الثالث عشر - خ -.

- بذل المهجة - خ -[2].

- سبحة العقيق في ترجمة الشيخ سيدي محمد بن الصديق - خ -[3].

- ليس كذلك - ط -[4].

فهذه إشارة إلى بعض كتبه، وهي لا تتجاوز عُشر مؤلفاته الكثيرة التي أتحف بها مكتبة الدراسات الإسلامية تفسيراً وحديثاً وفقهاً وتصوفاً وتراجم ونقداً وغير ذلك من الفنون التي ملك ناصيتها، وقد سلك فيها نهج الاجتهاد المطلق، ولحق بركب أساطين أعلام الإسلام أمثال ابن حزم، وابن عبدالبر، وابن القيم، وابن تيمية، والذهبي، والسيوطي، والشوكاني، والأمير الصنعاني وغيرهم كثير، رحمهم الله ورضي عنهم..

وظل الشيخ الإمام ماسكاً بالقلم، آخذاً بدفتي الكتاب رغم نصائح الأطباء بأن يدعهما ويتفيأ ظلال الراحة لأن قلبه الكبير قد كلّ وتعب، ولم يعد يستطيع أن يتحمل أكثر مما تحمل من عناء وكدّ وجهاد.. لكن نفسه تأبى الدعة والسكينة:

---

(١) كتاب غريب عجيب ذكر فيه الأحاديث التي رواها الجن عن مولانا رسول الله ﷺ، ومنهم الصحابيان الجنيان زوبعة وسمحج. وقد ذكرهما ابن الأثير في «أسد الغابة» ج١١٥/٢.

(٢) منظومة تائية في التاريخ في ستمائة بيت.

(٣) كتاب ضخم جداً، محفوظ بالخزانة العامة بالرباط، وهو غير كتابه «التصور والتصديق بأخبار الشيخ سيدي محمد بن الصديق» المطبوع سنة ١٩٤٧ بمطبعة السعادة القاهرية في ٢١٤ صفحة.

(٤) طبع في ٢٧١ صفحة بدار الكتب العلمية ببيروت بتحقيق عدنان زهار في سنة ٢٠٠١. عنوان ملفت للنظر، يوحي ببسطة المؤلف في معرفة فنون الحديث ورسوخ قدمه في البحث والتنقيب والنقد البناء. هي استدراكات على أقوال المحدثين التي وضعها على مائدة المختبر الحديثي. فكأن قلمه مبضع يشرح به سقيم تلك الأقوال وعللها تصحيحاً وتقويماً.. «ليس كذلك» راتبة تقع كالصقر على الفريسة!.

وإذا كانت النفوس كبارا تعبت في مرادها الأجسام

حياة حافلة بجلائل الأعمال عاشها بين المغرب ومصر والسودان وسوريا، وحج خمس حجات وتسع عمر.

ولم يزل يشعّ فرائد عقده، وينشر درره في مجالسه، وإملاءاته وتآليفه حتى انطفأت هذه الشعلة بالقاهرة يوم الأحد فاتح جمادى الثانية ١٣٨٠ موافق ٢٠ نوفمبر ١٩٦٠.

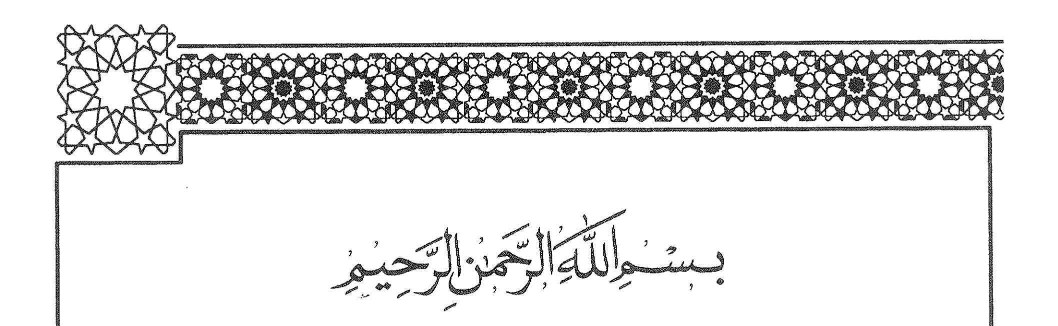
رحم الله الحافظ النابغة الإمام الشيخ سيدي أحمد بن الصديق، وأكرم مثواه، وجعله في دار الخلود من أهل السعادة التي تنكرت له في هذه الحياة الدنيا.

عزّ الرجال فهل من يستراح له بنَفشة دونها الأرجاء تضطربُ
كَرِّرْ لحاظك في هذا الوجود تجدْ عن ذلك السرّ ما يبدو ويحتجبُ[1]

طنجة في ١٧ مارس ٢٠٠٢



(١) للشاعر ابن خاتمة الأندلسي في «مجمع الحكم».. ١٨٥.



الشيخ عبدالله بن الصديق
(١٣٢٨ - ١٤١٣/ ١٩١٠ - ١٩٩٣)

«..أُحبّ أن تذهب إلى الأزهر عالماً يحتاج إليك علماء مصر..»[(١)].

هكذا قال «السيد» الإمام - رضي الله عنه - لولده الفتى سيدي عبدالله لما رأى حرصه الشديد على أن يلتحق بالأزهر لينقَع من علمه أُوامَه بعد أن أصبح أوّلَ من تُثنى بهم الأصابع عند ذكر نوابغ طلبة جامعة القرويين التي ولجها سنة ١٩٢٥، وقضى فيها ثلاث سنوات في التحصيل المتواصل المجدّ على كبار شيوخها أمثال الأئمة:

- محمد بن أحمد بن الحاج السلمي[(٢)].

---

(١) «سبيل التوفيق في ترجمة عبدالله بن الصديق» للشيخ عبدالله بن الصديق - ط٣٣. ومن هذه الترجمة الذاتية خاصة اقتبست ما جاء في مقالي هذا.

(٢) محمد بن الحاج (- ١٩٤٤) عالم فاضل، ذو همة وصلاح، محقق، قوي الحافظة. كان معجباً بالحافظ ابن حجر.. من مواقفه الباسلة أنه لما وصل في قراءة صحيح البخاري إلى كتاب الجهاد والمغازي بعث إليه حاكم فاس الفرنسي وطلب منه أن يتخطى هذا الباب إلى غيره ويقرأ ما بعده، فامتنع عن الدرس أياماً، وبعد مداخلات سمح له أن يقرأ هذا الباب شريطة ألا يتوسع في الشرح!. إن كلمة «الجهاد» تزعج كل ظالم مستبد!.

ـ العباس بن أبي بكر بناني[1].

ـ أحمد بن الجيلالي الأمغاري[2].

ـ مولاي عبدالله الفضيلي[3].

ـ عبدالرحمن القرشي[4].

ـ الحسين العراقي[5].

ـ محمد أبو الشتاء الصنهاجي[6].

ـ مولاي أحمد بن الطيب القادري[7].

ـ محمد الرضي السناني[8].

---

(١) العباس بناني (١٨٨٣ ـ ١٩٧٢) القاضي العالم المحقق المشارك، المفتي البارع، درس بالقرويين. ولد بمراكش وتوفي بفاس.

(٢) أحمد بن الجيلالي الأمغاري (ـ ١٩٣٥) شيخ الجماعة ورئيس المجلس العلمي. فيلسوف الفقهاء، علامة محقق.. من طريف ما حدث زمان رئاسته أن أحد طلبة القرويين نجح في امتحان العالمية، فلما أذن له بالتدريس بدأ «بجمع الجوامع»، فبعث إليه الشيخ وقال له: أول ما تدرس «جمع الجوامع»؟! إذاً أنا أدرس «الأجرومية»! وأصبح يدرسها. فحضر عليه شيخنا الإمام سيدي عبدالله ـ ووقتها كان طالباً ـ ومعظم علماء القرويين.

(٣) مولاي عبدالله الفضيلي (١٨٧٤ ـ ١٩٤٣) شيخ الجماعة ورئيس المجلس العلمي. عمل قاضياً بالجديدة، ثم تفرغ للتدريس بالقرويين، فكان صدراً في المعقولات محققاً لامعاً. توفي بفاس.

(٤) عبدالرحمن القرشي (١٨٨٥ ـ ١٩٣٩) شيخ الجماعة. تولى القضاء والوزارة. وتنازل عن كرسيهما والتزم التدريس بالقرويين. كان ممن ناهضوا الظهير البربري. توفي بفاس.

(٥) الحسين العراقي الكربلائي (ـ ١٩٣٤) عالم جليل محقق، كثير التدريس والفائدة كانت فيه دعابة. من مؤلفاته: «المناطيد الجوية في الرد على المقالات الحَجْوية». توفي بفاس.

(٦) محمد أبو الشتاء الصنهاجي (ـ ١٩٤٥) علامة مشارك، تخصص بعلم الفرائض، وله في هذا الفن مؤلفات. كان صالحاً انعزل عن الناس واشتغل بنفسه وعلمه. توفي بفاس.

(٧) مولاي أحمد بن الطبيب القادري (ـ) علامة فاضل مفتٍ نفَّاع، عاش حياة تقشف وعفاف.

(٨) محمد الرضى السناني (ـ ١٩٦٥) الشهير بالحنش. علامة منقطع النظير في=

ـ محمد بن جعفر الكتاني[1].

على هؤلاء الجهابذة وغيرهم حضر وتتلمذ، وفي حلقاتهم ومجالسهم درس علوم التفسير والحديث والفقه والنحو والصرف والبلاغة والمنطق والمقولات.. فأجازوه وقد أعجبوا به..

وبعد رجوع الفتى العالم من فاس إلى طنجة ضاعف جهده، وأخلى طوقه للبحث والتنقيب، والمراجعة، والتدقيق في تلك العلوم التي كان ـ قبل التحاقه بالقرويين ـ قد نَحَّبَ على حفظ متونها كالآجرومية والألفية ومختصر خليل، وبلوغ المرام، والجوهر المكنون، وجمع الجوامع، والأربعين النووية، بالإضافة إلى مَورد الظمآن، ومقامات الحريري.. وعن هذه الفترة من التحصيل الدائب يحدثنا الفتى العالم فيقول:

«..ورجعت إلى طنجة فشرعت في شرح الآجرومية ـ وهو شرح كبير يقع في ٢١٣ صفحة[2] ـ وهذا أول كتاب ألفته في حياتي.. وكان مولانا الإمام الوالد يدرِّبني على البحث ومعرفة المظان. فيأمرني بكتابة أبحاث تستدعي المراجعة.. أمرني مرة أن أكتب بحثاً في لفظ «أول»، ما أصله؟ وهل هو مصروف أو لا؟. ومرة أخرى أمرني أن أكتب بحثاً في «أي»، متى تعرب؟ ومتى تُبنى؟.. وهكذا كان يتعاهدني الفينة بعد الفينة بمثل هذه المسائل.. وكنت أسأله عن أشياء في الفقه والحديث، فيجيبني، وتارة يحيلني على كتاب لأعرف منه الجواب ببحثي فيه.. وكان يحدثني عن الكتب العلمية في مختلف العلوم، ويعطيني فكرة عن كل كتاب وقيمته..

= التحقيق زاهد، ورع، نبيل. له مؤلفات عدة أشهرها: «الشذرات والتقاط الفوائد وغرر العوائد».. له نظم في المسائل العلمية والنصائح والوعظ. ولد بفاس وهجرها وسكن الدار البيضاء فأزمور وبها توفي.

(١) محمد بن جعفر الكتاني (١٨٥٧ ـ ١٩٢٧) الإمام العلامة المحدث المؤرخ. أقام بأهله في المدينة المنورة (١٩١٢) ثم انتقل إلى دمشق وسكنها إلى سنة ١٩٢٥ حيث عاد إلى بلده. توفي بفاس. له أكثر من ستين مصنفاً منها: «الرسالة المستطرفة» و «سلوة الأنفاس في تراجم علماء وصلحاء فاس».

(٢) أسماه: «تشييد المباني لتوضيح ما حوته المقدمة الآجرومية من الحقائق والمعاني» وهذا أول مصنفاته. كما اختصر «إرشاد الفحول» للشوكاني.

وكان إذا جاءه استفتاء من أي جهة من المغرب يُملي عليّ الفتوى وأنا أكتبها، ثم يمضيها، وتارة يأمرني أن أمضيها باسمي.. وكنت أزوره كل صباح في المكتبة أو في البيت الذي يجلس فيه.. وأناقشه كثيراً وألح في مناقشته، فيتسع صدره ولا يضيق بي»..

هذه المنهجية في التوجيه والتدريب شحَّنت همته في العلوم، فخاض عبابها، وغاص بقوة في دخائلها، وتوغل باحثاً عن غوامضها، مستخرجاً دفائنها، متذوقاً طُعومها. فنبعت فيه ملكة الفهم والإدراك، ملكة التدبّر والتبصر، ورُزق النظر الثاقب، وحضور الدليل، وطول النفس.. ولنسمعه يقول:

«..وكان مولانا الإمام الوالد يثني عليّ مع أصدقائه الذين يجالسونه، ويصفني بحسن الفهم، وجودة المعرفة، أخبرني بذلك غير واحد، منهم الفقيه الأمين المهدي.. وزارني مرة الفقيه الأديب الأستاذ العياشي سكيرج[1] وبيده كتاب[2]. فقلت له: ما هذا؟. قال: كتاب شرحت فيه أبيات ابن مالك في فعل الأمر المعتل الذي يأتي على حرف، وأولها:

إني أقول لمن ترجى وقايته ... قِ المستجير قياه قوه قي قينا

وقد كنت قرأتها في حاشية الخضري على ابن عقيل.. قلت له: وما علاقتي بهذا؟. قال: أتيت به إلى «السيد» والدك لينظر فيه فأحالني عليك، وأثنى على معرفتك وإتقانك لهذا العلم.. فأخذته منه وقرأته وكتبت عليه ما ظهر لي..».

---

(١) محمد بن العياشي سكيرج (١٨٧٥ ـ ١٩٦٥) أديب الفقهاء، شاعر، علامة، مؤرخ، مفت. درس بالقرويين، وتقلد عدة وظائف. ولد بفاس وتوفي بطنجة. ترك أزيد من سبعين مؤلفاً أغلبها مخطوط منها: «إتحاف القبيل بتبيان أفراد التنزيل» و «روائد الفوائد في لطائف جوائد» و «طرفة الأدباء بإباحة ضوء الكهرباء» و «رياض البهجة بأخبار طنجة» و «الدرر اللآلي في ثبوت الشرف البقالي» و «رحلة العمر للعالم والغمر» و «بواعث الفتاوي بحوادث الدعاوي».

(٢) أسماه: «أحكام رصف بفعل على حرف» ـ خ ـ.

وواظب الفتى العالم على حضور دروس والده الإمام في «الرسالة» و «صحيح البخاري» وغيرهما، وفي نفسه تطلع وتلهف وتشوق إلى الأزهر.. وكانت سنة ١٣٤٩/ ١٩٣٠، فتحققت أمنيته.. ورحل إلى مصر، وانتظم هو وشقيقه الفتى سيدي محمد الزمزمي إلى الأزهر.. وفي رحاب هذه الجامعة تلقى دروس كبار شيوخها وأئمتها.. منهم:

- أحمد بن الصديق(١).
- محمد بخيت المطيعي(٢).
- محمد حسنين مخلوف(٣).
- أحمد رافع الطهطاوي(٤).
- محمد إمام المنصوري(٥).
- محمد إمام السقا(٦).
- عبدالمجيد الشرقاوي(٧).

---

(١) انظر ترجمته في هذا الكتاب بدءاً من ص٤٠.

(٢) محمد بخيت المطيعي (١٨٤٥ ـ ١٩٣٥) مفتي الديار المصرية وشيخ علمائها. إمام واسع العلم، غزير الاطلاع، حاضر البديهة. عارض بشدة حركة الإصلاح التي تزعمها الشيخ محمد عبده. له عدة كتب وشروح وتعليقات.

(٣) محمد حسنين مخلوف العدوي (١٨٦٠ ـ ١٩٣٦) علامة محقق. أول من اختير عضواً في هيئة كبار العلماء. عمل وكيلاً للأزهر. عنى بتدريس الفقه والأصول والمنطق والفلك، فيحضر دورسه علماء وكبار الطلاب. من تلامذته شيخ الأزهر الإمام محمد مصطفى المراغي.

(٤) أحمد رافع الطهطاوي (١٨٥٨ ـ ١٩٣٦) مسنِد الديار المصرية، إمام نفاع محقق مدقق في علوم الآلة والفقه. رفض المناصب الإدارية واشتغل بالعلم. له قرابة عشرين مصنفاً، منها: «إرشاد المستفيد إلى بيان وتحرير الأسانيد».

(٥) محمد إمام عبدالرحمن المنصوري (ـ) علامة فقيه بحاثة، واسع الاطلاع في المعقولات، كان شيخنا الإمام سيدي عبدالله بن الصديق معجباً به.

(٦) محمد إمام السقا (١٨٦٦ ـ ١٩٣٥) العلامة الخطيب المحقق زبدة علماء الأزهر الشافعي. وافقت وفاته وفاة الشيخ محمد بخيت. فصلّى الناس على جنازتهما معاً في الأزهر.

(٧) عبدالمجيد الشرقاوي (ـ) علامة متين يتقن فقه الشافعية إتقاناً لا مزيد عليه.

وغيرهم كالشيخ محمد عزت، ومحمد السمالوطي، وحامد جاد، وعبدالقادر الزنتاني..

وكان فطِناً حادَّ الذِّهن متيقظاً دقيق الملاحظة: فقد تنبَّه، أول ما تنبه، إلى طريقة التدريس بين عالم مغربي وبين عالم أزهري.. قال:

« ..إن العالم المغربي يعطي الدرس حقه من البحث والاطلاع على الكتب المتصلة به ما لا يوجد مثله عند العالم الأزهري الذي لا يتجاوز في درسه حلّ عبارة المتن والشرح. فطريقة المغاربة في التدريس تعطي الطالب ملكة الفهم، وتعلمه كيفية البحث في كتب العلم وقواعده.. وطريقة الأزهريين تعطي الطالب ملكة الفهم فقط، وبهذه الطريقة حضرت ثلاث سنوات بفاس حصلت فيها ما يمكن تحصيله في عشر سنين..».

ولم تمض غير سنتين من القراءة في الأزهر حتى بذَّ أقرانه، وبان شأوه عليهم، فأوعزوا إليه في أن يتقدم لامتحان شهادة العالمية الخاصة بالغرباء. وكان الاختبار فيه يتضمن اثنتي عشرة مادة علمية هي: النحو، الصرف، المعاني، البيان، البديع، المنطق، الأصول، التوحيد، الفقه، التفسير، الحديث، المصطلح.. فاجتازه بتفوق وعمره في بادئة الثلاثة والعشرين!.

وشرع في التدريس، فكان أول عالم بالأزهر درَّس «شرح المكودي»[1] على الألفية، كما درس «الجوهر المكنون» في البلاغة،

---

(١) يشير شيخنا الإمام إلى الشرح الكبير للمكودي الذي يدرسه علماؤنا المغاربة. أما شرحه الصغير فقد كان متداولاً بين طلبة الأزهر، كما قال الحافظ السخاوي.. وله شرح ثالث أضخم ضاع، وقيل: أحرق.

والمكودي (ـ ١٤٠٥) هو أبو زيد عبدالرحمن بن علي، ينتمي إلى قبيلة بني مكود قرب فاس.. علامة بارع في العربية، له مصنفات منها: «البسط والتعريف في علم التصريف». وله شعر، منه هذه الأبيات التي تنم عن ورعه وزهده:

إذا عَرضت في زماني حاجة ... وقد أشكلتْ فيها عليَّ المقاصدُ
وقفتُ بباب الله وقفةَ ضارع ... وقلت: إلٰهي إنني لك قاصدُ
ولستَ تراني واقفاً عند بابِ مَنْ ... يقول فتاه: سيِّدي اليومَ راقدُ

و «السلم» في المنطق بشرح البناني، و «سلم الوصول إلى علم الأصول» لابن أبي حجاب، و «تفسير» النسفي والبيضاوي، و «الإحكام في أصول الأحكام» للآمدي، و «الخبيص» على تهذيب السعد في المنطق، و «جمع الجوامع» بالرواق العباسي بين العشاءين - وختمه في أربع سنوات - بالإضافة إلى تدريسه علوم الحديث والفقه..

وانتظم من حوله طلبة من أندونيسيا، والهند، وتركيا، ويوغوسلافيا، ورومانيا، وألبانيا، والشام، والحجاز، واليمن، والحبشة، والصومال، والسودان، وشمال إفريقيا وغيرها.. يقول الفتى العالم: « ..وكان الطالب من هؤلاء إذا تخرّج وسافر إلى بلاده يوصي إخوانه القادمين إلى مصر بالحضور عليّ..» ومن بين تلامذته الأزهريين الذين استفادوا من مواهبه وعطاءاته، وأصبحوا في مصاف الأعلام البارزين إخوانه السادة محمد الزمزمي، وعبدالحي، وعبدالعزيز، والحسن، وإبراهيم بن الصديق، والمنتصر الكتاني، وعلي جمعة المصري، وعبدالفتاح أبو غدة، وفاروق حمادة، ومحمد عوامة، وحمدي أصلان جافا الألباني، وحنفي حسني، وعبدالوهاب عبداللطيف وغيرهم..

وفي سنة ١٩٤٢ تقدم لنيل شهادة العالمية الأزهرية[١]، لكن شيخ الأزهر الإمام محمد مصطفى المراغي[٢] جعل قبول ترشيحه رهين شهادة من معهد رسمي تثبت أنه تابع فيه دراسته من عدة سنوات لتكتمل بها المدة القانونية التي تخول للطالب حق اجتياز امتحان العالمية.. فراسل في هذا الصدد شيخ الجماعة بالقرويين الذي تردّد أول وهلة، ثم وافق لما قال له العلامة الشيخ العباس بناني: «أجب طلب سيدي عبدالله، فليس عندك أعلم منه ولا مثله»!. وأخيراً حظي ملفه بالقبول من إدارة المشيخة، وتقدم للامتحان.. وما أن انتهى منه حتى خاطبه رئيس اللجنة الشيخ محمد زغلول

---

(١) كانت مواد الامتحان في خمسة عشر علماً.

(٢) محمد مصطفى المراغي (١٨٨١ - ١٩٤٥) شيخ الأزهر من دعاة التجديد والإصلاح، أحد تلامذة الشيخ محمد عبده. ولي قضاء القضاة بالسودان. من مؤلفاته: «بحوث في التشريع الإسلامي»..

قائلاً وقد أبهرته أجوبته: «مبروك يا علامة»! هو حقيق بهذا التبريك: لقد كان الامتحان عسيراً منيعاً صعباً، لم ينجح فيه من مجموع ٢٨٦ ـ مائتين وستة وثمانين ـ مرشحاً سوى ستة كان الشيخ عبدالله الغماري[١] أحدهم!. ونشر الخبر في جريدة «الأهرام»، وتناقلته الأوساط العلمية.. وعن هذا الحدث يقول شيخنا الإمام:

« ..وصادف أنني كنت في زيارة الشيخ شلتوت[٢] في بيته ومعه جماعة من العلماء لأنه كان وكيلاً لكلية الشريعة.. ودخل أحد الزائرين فهنأني، فقال له الشيخ شلتوت: علام تهنئه؟ فقال: لأنه نال الشهادة العالمية الأزهرية واسمه في جريدة «الأهرام».. فقال له الشيخ شلتوت: نحن نهنىء الشهادة الأزهرية بأخذ الشيخ عبدالله لها الذي جاء من بلاده عالماً!.

ولنتساءل: لم، يا ترى، هذا الإطراء المنصف من علامة كبير أصبح فيما بعد شيخ الأزهر؟. لهذه الواقعة ذيول امتدت أحداثها على مراحل..

ذلك أن الشيخ شلتوت ألقى ذات مساء محاضرة في الإذاعة زعم فيها أن التداوي بالقرآن والأذكار ضرب من الدجل والخرافات!! ورأيه هذا ـ وكثير من آرائه كانت تنبثق من محض الهوى، وتميل حيث مَوقف التجديد والعصرنة وإن هي خالفت صحيح النصوص، وصادمت القواعد العلمية ـ رأيه هذا روَّج على فئة اتخذت «إصلاح الدين» شعاراً لها. فقعدوا تحته، وقالوا: سمعنا فتيقنا!! وانبرى له شيخنا الإمام، وصنف جزءاً أسماه: «كمال الإيمان في التداوي بالقرآن[٣]» بيّن فيه بأدلة قواطع أن القرآن الكريم أرشد إلى هذا الدواء، وفعله مولانا رسول الله ﷺ وأقره، وانعقد الإجماع على جوازه واستحبابه.. وانتشر الكتاب، فسكتت الفئة وتقاعست!

---

(١) بهذا الاسم اشتهر في الميدان العلمي.

(٢) محمود شلتوت (١٨٩٣ ـ ١٩٦٣) عيّن وكيلاً لكلية الشريعة، فعضواً في مجمع اللغة العربية بالقاهرة، فشيخاً للأزهر. كان ميالاً إلى التجديد. له عدة مؤلفات منها: «عنصر الخلود في القرآن» و «الإسلام والوجود الدولي».. كان ينكر وجود الدجال، ويزعم أن الشيطان عبارة عن قوة الشر السارية في الوجود سيران الأثير في الجو!!.

(٣) الطبعة الثانية (١٩٧٢) بالمطبعة المهدية بتطوان تقع في ٨٦ صفحة من القطع الصغير.

وإذا بالشيخ الوكيل ينبعث من جديد في ميدان «الإصلاح الديني» وقد ولَّى وجهه ـ هذه المرة ـ شطر شبهة توحيد الأديان!! فنشر، بإيعاز من هيئة التبشير الأمريكي مقالاً على صفحات جريدة «صوت أمريكا» ادعى فيه أن الإيمان المنجي يوم القيامة هو الإيمان بالله واليوم الآخر، وأن الإيمان بالنبي ﷺ ليس بواجب!! وزعم أن اليهود والنَّصارى ناجون يوم القيامة لأنهم يؤمنون بالله واليوم الآخر كالمسلمين!! فتصدى له شيخنا الإمام بجزء أسماه «التحقيق الباهر في معنى الإيمان بالله واليوم الآخر»[1] فزيف هذا الرأي الذي شَذَّ به عن جماعة علماء الإسلام، وبيَّن ببراهين لوامع أنه شطّ واعتسف.. وعجز الشيخ شلتوت عن الرد وأطبق.. وإشارة تجدر هنا إلى أن هذا الاتجاه الخطير أحياه من بضع سنين الدكتور محمد سعيد العشماوي ونافح بشدة عن فكرة صهر الإسلام في بوتقة اليهودية والمسيحية تحت غطاء وحدة الأديان، وجاء بظنون مرجَّمة مدعياً أن القرآن الكريم لم يدع صراحةً أهل الكتاب إلى الإسلام!!.

وإذا «برسالة» الزيات يتصدَّرها مقال للشيخ شلتوت يؤيِّد فيه اعتقاد القاديانية[2] بأن سيدنا عيسى ـ عليه السلام ـ قد قضى عليه الموت ورفع من هذه الدنيا وما كان من الراجعين!! واندرأت هذه الشبهة في الوسط الثقافي، واغتبطت بها «الفئة المصلحة» واستيقنتها غثيثة ورُعونة! ومن جديد تصدَّى له شيخنا الإمام دامغاً ظنون هذا الإنكار لنزول سيدنا عيسى ـ عليه السلام ـ في آخر الزمان، كاشفاً عن تخرصه وخبطه في سلسلة مقالات نشرت في «مجلة الإسلام» الأزهرية، وأحدثت دَوِيًّا في الحقل العلمي.. فأراد الشيخ أن يتعرف على هذا الذي يلاحقه كلما زلّ قلمه.. فاستدعاه.. فلما رآه اعترته

---

(١) أعيد طبعه سنة ١٩٧٨ بدار لوران للطباعة والنشر بالإسكندرية في ٢٥ ورقة من القطع الصغير.

(٢) القاديانية أو الأحمدية طائفة ظهرت بمدينة قاديان بالهند وتنسب إلى رجل يدعى غلام أحمد القادياني (١٨٣٦ ـ ١٩٠٨) زعم أنه المسيح الموعود بالبروز الروحي، وأنه يفسر القرآن بوحي إلٰهي يطابق العصر الحاضر.. كان هذا المدعي من عملاء الاستعمار الإنكليزي.

دهشة وقال له: كنت أظنك شيخاً كبيراً، لكنك شاب! فأجابه: أنا كما يقول المثل العربي: تسمع بالمعيدي خير من أن تراه.. قال: لا أقصد هذا، وإنما أقصد أن سنك دون مقالاتك التي تدل على علم كبير واطلاع واسع لا يتَأَتَّيان إلا من رجُل تقدمت به السن مع طول الدراسة!. فقال: هذا من فضل الله عليَّ.. وكان سنه حينئذ ثلاثاً وثلاثين سنة![1]. ثم جمعت تلك المقالات في كتاب طبع وترجم إلى اللغة الأردية تحت عنوان: «إقامة البرهان على نزول عيسى في آخر الزمان»، ليظل فعلاً برهاناً ناطقاً يقرع الباطل بالحق ـ لكن الشيخ شلتوت عصفت برأسه نخوة التعالي، ولجّ في غُلَوائه، فحرر مقالات جاءت ردًّا على رد.. ولم يزمع شيخنا على السكوت، ولم يتهيب، بل تحرك وأردف بكتاب ثان أحاط فيه بجوانب الموضوع خُبْراً، وأحصى كل صغيرة وكبيرة إذ كشف زغل هذه الغاشية من النظر الأخزر، وبدَّد هذا الرأي الفطير المدسوس الذي استحوذ على أذهان «الفئة المصلحة» فتوهمته عين الصواب!![2] ولم يهدأ له بال حتى طبع الكتاب الذي سماه: «عقيدة أهل الإسلام في نزول عيسى ـ عليه السلام ـ»[3]، وقصد بيت الشيخ شلتوت وقدمه إليه.. فتكسرت قواريره، وانقطع، ولم يعقب! ولا مراء في أن الآراء «الشلتوتية» تلك ـ وأحسبها من نزوات شهوة المعارضة وتيارات التجديد ودعوات الإصلاح الديني ـ إنما جثت على عتبة الظنون لا تعدوها إلا لتفترض استدلالات واستنباطات تعلَق بالوهْم، ولا تستندُ البتَّة على دلائل قاطعة من الكتاب والسنة الصحيحة..

هذه المعركة العلمية مع الشيخ شلتوت أبدت لمن ألقى إليها السمع، أو قرأ تفاصيلها على صفحات المجلات والكتب، شخصيةً متميِّزة بين حملة علمٍ وأصحابِ أقلام.. شخصية تخاطب العقل فتُقنعه، وتُطَمْئِن

---

(١) «بدع التفاسير» ١٨١، ١٨٢.

(٢) انساق العالم والمفكر الإسلامي عبدالرزاق نوفل (١٩١٧ ـ ١٩٨٤) رحمه الله مع هذا الطرح الواهي في كتابه «أسئلة حرجة» ص٩١ فقال: لا دجال باسم المسيح، ولا نزول لسيدنا عيسى ليقتل الدجال!.

(٣) طبعته مكتبة القاهرة سنة ١٩٤٩ في ١٤٤ صفحة.

النفس والقلب وقد نزعت منها ظلال الريب ومخاتلة الشبهات. . شخصية تفرق بوضوح بين الصواب والخطأ، بين الوهم واليقين وقد اتخذت الحق ـ والحق فقط ـ عاصماً لها من التردي في زهو «المشيخة»، أو في هوى التبجُّح بالغلبة وإن على أنقاض الباطل!. شخصية ذات مَصدق، تُسدِّد الأدلة تلو الأدلة لبيان صولة هذا الحق مهما تطاولت على نوره أكواد الظلمات!.

ويقودني ذكر هذه المعركة إلى ساحة معتركه العلمي الذي بارز فيه جِلَّة الأعلام وصدورهم. .

فهذا الدكتور محمد البهي[1] ـ رحمه الله ـ حاضر ذات يوم وزعم أن دليل إرسال النبي ﷺ إلى الجنّ دليل ظني لا يقوم على يقين!! فرد عليه شيخنا الإمام في جزء أسماه: «قرة العين بأدلة إرسال النبيّ إلى الثقلين»[2] بيّن فيه قطعية بعثته ﷺ إلى الجنّ بالقرآن والسنة المتواترة وإجماع الأمة، وكشف سر هذه الدعوى التي تمهِّد لدعوى تبشيرية استشراقية أخرى وهي أنه ﷺ إنما أرسل إلى العرب خاصة لأنه «إذا انتفى القطع بعموم رسالته إلى الثقلين وجب التمسك بالمتيقَّن المقطوع به وهو رسالته إلى قومه دون غيرهم. .»!.

وهذا العلامة الشيخ محمد أبو زهرة[3] ـ رحمه الله ـ استنكر حديث

---

(١) محمد البهي (١٩٠٥ ـ ١٩٨٣) مفكر إسلامي داعية إلى التجديد الديني والإصلاح الاجتماعي. حصل على العالمية، ودبلوم عال في اللغة الألمانية، ودكتوراه في الفلسفة وعلمي النفس والاجتماع. عمل أستاذاً زائراً بالرباط سنة ١٩٦٠. تولى وزارة الأوقاف وشؤون الأزهر. . له مؤلفان وضعهما بالألمانية والإنكليزية، بالإضافة إلى مؤلفاته بالعربية ـ بعضها ترجم ـ منها وقد قاربت الخمسين:
ـ الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي.
ـ الدين والحضارة الإسلامية.
ـ تهافت الفكر المادي والتاريخي بين النظر والتطبيق.

(٢) طبع ثانية بدار «عالم الكتب» اللبنانية سنة ١٩٨٦ في ٦٩ صفحة.

(٣) محمد أبو زهرة (١٨٩٨ ـ ١٩٧٤) علامة بحاثة مؤرخ محقق. عضو المجلس الأعلى=

رؤيا الصحابي ثابت بن قيس بن شماس ـ رضي الله عنه ـ في واقعة اليمامة.. ورد حديث العرنيين الذي رواه البخاري.. واعتمد في قضية تشريح جثة الميت على حديث موضوع: «إياك والمثلة ولو بكلب..»!. ورد عليه شيخنا الإمام ردًا علمياً لكن أبا زهرة استنكف أن ينصاع للحق[1]..

وهذا الشيخ ناصر الدين الألباني المحدث الكبير ـ رحمه الله ـ له مع شيخنا الإمام «معارك» في التوسل، وقراءة القرآن على الميت، وفي مواضيع حديثية متنوعة[2].

وقامت بينه وبين شقيقه العلامة الفاضل الداعية شيخنا الإمام سيدي محمد الزمزمي[3] ـ رحمة الله عليه ـ مساجلات ومناقشات علمية ضافية في قضايا مختلفة منها:

- اللحية.. هل حالقها ملعون؟.
- توحيد الصيام.. هل هو واجب برؤية المشرق؟.
- الهجر.. هل هو بدعة وشرك؟.

= للبحوث العلمية، ووكيل كلية الحقوق بجامعة القاهرة، ووكيل معهد الدراسات الإسلامية. كان جريئاً لا يخاف لومة لائم مهما قويت سلطته. نيفت مؤلفاته على الخمسين منها:
- تاريخ الجدل في الإسلام.
- المذاهب الإسلامية.
- تراجيم الأئمة.
- محاضرات في المجتمع الإسلامي.
- محاضرات في النصرانية.

(١) «سلسلة من قصص الأنبياء» ج١/٧٤. باب: أخطاء للشيخ أبي زهرة. وعن رؤيا ثابت بن قيس انظر «الرؤيا في الكتاب والسنة» لشيخنا الإمام ص١٢٧ ـ المطبعة المهدية ـ تطوان.

(٢) انظر «إرغام المبتدع الغبي بجواز التوسل بالنبيّ» و «القول المقنع في الرد على الألباني المبتدع».

(٣) سأفرد له بحول الله ترجمة خاصة.

- التصوف.. هل هو دخيل على الإسلام؟ حقيقته؟ شرعيته؟.

- الكبيرة.. ما علامتها؟.

- صلاة المسافر خلف المقيم.. كم ركعاتها؟.

- مسافة القصر في الصلاة.. ما هي؟.

ومسائل أخرى كان لها دوي واسع.. هذه «المعركة» نشَّطت الحركة العلمية، فتضاربت حولها الآراء في جولات فكرية متباينة.. «معارك» كانت طلعاً نضيداً نال من ثمارها من وقف إزاءها موقف المتبصِّر المتَّزن..

وأسجل إنصافاً أن شيخنا الإمام لم تَنْزُ من كتاباته كلمات نابية فيها نبرات الشطط وتعسفات المكابرة، بل تشع منها قوة الثبت، ودقة التقصي مع هدوء الحكمة وصفاء الطوية.. ولا غرو.. فقد اقتفى - في مجال المناظرة والمناقشة والجدل والنقد - معالم سطرها له والده «السيد» الإمام منذ خطواته الأولى في تجربة التصنيف. فلنسمعه يحدثنا عن هذه النصيحة الغالية، قال:

« ..كنت أُطلع مولانا الإمام الوالد - رضي الله عنه - على ما أكتبه، فيصلح لي ما أخطىء فيه.. ورأى لهجتي في ردّ رأي بعض النحويين فيها شدة. فقال: لا ترد على العلماء بهذا الأسلوب ولكن قل: هذا سهو، أو سبق قلم، أو اشتباه، أو نحو هذا من العبارات الخفيفة..»[1].

فشيخنا الإمام راسخ القدم في عدة علوم، منقطع النظير، جمع فيه ما تفرق في غيره، هو: حافظ، أصولي، نحوي، فقيه، مفسر، منطقي، بليغ.. مشارك ضليع، بحاثة محقق، ناقد بصير.. أو ما يحق له أن يقول عن نفسه:

جمعتُ علوماً عدة وفوائدا ... أتيتُ بها من فيض باري الخلائق
وأرجو بها تجديدَ دين محمدٍ ... فحقِّقْ رجائي يا إلٰهي ووفِّقِ

---

(١) سبل التوفيق» ص٢١.

لقد صنف، وعلق، وحقق، وخرَّج، وراسل، وحاضر، ودرس، وأفتى.. فماذا عن كتبه؟.

سطر يراعه أكثر من ثمانين مؤلفاً بين كتاب وجزء ورسالة. هي في أصناف فنونها كأزهار الحديقة تختلف أشكالاً وألواناً وعبيراً.. أغلبها ردود.. مَن سايرها تراءى له شيخنا الإمام رجلاً قلمه بالمرصاد لكل فكر مهوّس شتيت يريد المساس بثوابت إسلامية.. قلمه يُخرس كل مدَّع يجبخ بما يمليه عليه هواه في نزق ومغالطة.. ومن هذه المؤلفات نذكر:

- فضائل القرآن ـ ط ـ.
- جواهر البيان في تناسب سور القرآن ـ ط ـ.
- تفسير القرآن الكريم ـ لم يتم ـ.
- الرد المحكم المتين على كتاب القول المبين ـ ط ـ.
- إتحاف الأذكياء بجواز التوسل بسيد الأنبياء ـ ط ـ.
- سمير الصالحين ـ ط ـ ٣ أجزاء.
- خواطر دينية ـ ط ـ جزءان.
- مصباح الزجاجة في صلاة الحاجة ـ ط ـ.
- نهاية الآمال في شرح وتصحيح حديث عرض الأعمال ـ ط ـ.
- الحجج البينات في إثبات الكرامات ـ ط ـ.
- واضح البرهان على تحريم الخمر في القرآن ـ ط ـ.
- دلالة القرآن المبين على أن النبي أفضل العالمين ـ ط ـ.
- إعلام النبيل بجواز التقبيل ـ ط ـ.
- توضيح البيان لوصول ثواب القرآن ـ ط ـ.
- الكنز الثمين في أحاديث النبي الأمين ـ ط ـ.

ـ الفتح المبين بشرح الكنز الثمين ـ خ ـ.

ـ الإعلام بأن التصوف من شريعة الإسلام ـ ط ـ.

ـ الإحسان في تعقب الإتقان في علوم القرآن ـ ط ـ.

ـ التوقي والاستنزاه عن خطأ البناني في معنى الإله ـ ط ـ.

ـ المهدي المنتظر ـ ط ـ.

ـ إعلام النبيه بسبب براءة إبراهيم من أبيه ـ ط ـ.

ـ الصبح السافر في تحرير صلاة المسافر ـ ط ـ.

ـ الرأي القويم في وجوب إتمام المسافر خلف المقيم ـ ط ـ.

ـ إتقان الصنعة في بيان معنى البدعة ـ ط ـ.

ـ رفع الشك والارتياب عن تحريم نساء أهل الكتاب ـ ط ـ.

ـ ذوق الحلاوة بامتناع نسخ التلاوة ـ ط ـ.

ـ حسن التفهم والدرك لمسألة الترك ـ ط ـ.

ـ أجوبة هامة في الطب ـ ط ـ.

ـ الفتاوى ـ ط ـ.

ـ توجيه العناية بتعريف الحديث رواية ودراية ـ ط ـ.

ـ كيف تكون محدثاً ـ خ ـ.

ومن تعليقاته وتحقيقاته التي فاقت العشرين نذكر:

ـ تعليق على «المقاصد الحسنة» للسَّخاوي ـ ط ـ.

ـ تعليق على «الحبائك في أخبار الملائك» للسيوطي ـ ط ـ.

ـ تعليق على كتاب «الإرشاد» لابن عساكر في الفقه المالكي ـ طبع مرات ـ.

ـ تعليق على شرح الأمير على مختصر خليل ـ ط ـ.

ـ تعليق على رسالة ابن الصلاح في وصل البلاغات الأربعة ـ ط ـ.

ـ تعليق على مساند أبي بكر وعمر وعثمان للسيوطي ـ ط ـ.

ـ تعليق على «تنبيه الفكر في الجهر بالذكر» للسيوطي ـ ط ـ.

ـ تعليق على «بداية السول في تفضيل الرسول» للعز بن عبدالسلام ـ ط ـ.

ـ «أسباب الخلاص في الأوهام الواقعة في تحقيق كلمة الإخلاص»[1].

ـ تحقيق الجزء السابع من «التمهيد» لابن عبدالبر. هذا الكتاب النفيس الذي خدم «الموطأ» خدمة علمية جليلة تليق بمقام الإمام مالك ـ رضي الله عنه ـ، وتلزمني الإشارة هنا إلى بيان أمور:

١ ـ أن أصل تحقيق هذا الجزء لم يطبع بكامله وإنما اختصرته «لجنة الطبع» اختصاراً. وقد حدثني شيخي العلامة سيدي عبدالحي بن الصديق ـ رحمه الله ـ بهذا الصنيع الذي أخل بالأمانة العلمية، وضيّع على القراء فوائد جمة.

٢ ـ أن تحقيق هذا الجزء ـ على اختصاره ـ فاق جميع تحقيقات الأجزاء المطبوعة الأخرى ضبطاً وتخريجاً وعَزواً وتصحيحاً وشرحاً وتعليقاً. وبالمقارنة تتضح المزيّة!.

٣ ـ أن شيخنا الإمام كان قد وقف على أخطاء علمية كثيرة حين قرأ الأجزاء الثلاثة الأولى المطبوعة. هذه المستدركات لم تحفل بها «الجهات العلمية المختصة» فطبعها شيخنا تعميماً للفائدة في جزء أسماه: «تنبيه الباحث المستفيد إلى ما في الأجزاء المطبوعة من التمهيد». وقدم له بكلمة محكمة هادفة.

---

(١) طبعت بمصر رسالة الحافظ ابن رجب في تحقيق «كلمة الإخلاص» بتعليق الشيخ محمود خليفة والشيخ أحمد الشرباصي. ووقع في تعليقهما أوهام نبه عليها شيخنا الإمام في هذا الكتاب.

ومن تخريجاته نذكر:

- «الابتهاج بتخريج أحاديث المنهاج» - ط -[1].

- تخريج أحاديث اللمع في أصول الفقه - ط -[2].

فكتبه جمة الفوائد، غزيرة المادة، تستوعب أصول الفنون التشريعية وفروعها بمهارة وعناية وذكاء. ولنقطف من درره هذه الأمثلة:

١ - اشتهر بين العلماء أن دلالة الاقتران ليست بحجة، فجعلها شيخنا الإمام نوعين:

- نوع ليس بحجة، وهو أن تقترن أفعال متعاطفة «بأو» تكون داخلة تحت أمر عام، أو «بالواو» مثل: «خمس من الفطرة: الختان، والاستحداد، وقصّ الشارب، وتقليم الأظفار، ونتف الإبط..»[3] فلا يدل ذكر الختان فيها على أن غيره واجب كالختان.

- نوع حُجَّة، كأن يقترن أمران في نهي، نحو: «نهى عن كل مسكر ومُفتِّر..»[4] فهذه الدلالة حجة في تحريم المفتر مثل الخمر لأنهما اندرجا تحت نهي يخصهما.

٢ - إن ما ينسخ من الأحكام هو الواجب والحرام والمباح. أما المندوب فلا لأنه فضيلة والفضائل لا تنسخ. والمكروه أيضاً لا ينسخ لأنه تابع للمندوب.. والواجب إذا نسخ لا يعود واجباً أبداً.. والشيء قد يحرم ويباح مرات مثل نكاح المتعة. قد نسخ تحريمه مرتين أو ثلاثة ثم نسخت إباحته إلى الأبد.

---

(١) أي «منهاج الوصول في معرفة علم الأصول» لقاضي القضاة الإمام المفسر ناصر الدين البيضاوي (؟ - ١٢٨٢).

(٢) «اللمع في أصول الفقه» هو للعلامة المناظر أبي إسحاق الشيرازي (١٠٠٣ - ١٠٨٣).

(٣) حديث رواه الشيخان عن أبي هريرة - رضي الله عنه -.

(٤) حديث رواه الإمام أحمد وأبو داود عن السيدة أم سلمة - رضي الله عنها -.

وهذا السموق العلمي لم يمنعه من أن يقول:

..إن كتابي «الكنز الثمين في أحاديث النبيّ الأمين» لست راضياً عنه لأني كتبته في حال تضييق وتشديد، وعدم وجود مراجع، فجاءت فيه أحاديث ضعيفة كثيرة..[1].

ويقول:

.. كتبت جزء «الأحاديث المنتقاة في فضائل رسول الله» اخترت ثلاثة وأربعين حديثاً في فضائله ﷺ وشرحتها، لكن وقع لي فيه خطأ كبير ما كنت أُحبّ أن يقع، نقلت حديثاً من «الخصائص الكبرى» ولم أبحث في رتبته ثقة بالسيوطي الذي زعم أنه صان ذلك الكتاب عن الأخبار الموضوعة ثم وجدته في الموضوعات منصوصاً على وضعه من السيوطي نفسه، فغضبت غضباً شديداً، وكرهت من السيوطي هذا التساهل القبيح الذي يوقع من يقلده في أسوأ الأثر، وأظنه يأثم على ذلك لا محالة!![2].

فهذا نقد ذاتي لا يصدر إلا من عالم منصف يدرك مقام العلم الشريف فيرفعه تواضعه إلى قممه..

وجانب مضيء لمسته في شيخنا الإمام كما لمسه غيري ممن خالطه.. ذلك أنه قد تجاوز مؤلفاته بأشواط.. كنت أحسُّ ـ عندما أجالسه، أو أماشيه ـ أنني إزاء خزانة علم متحركة، فمن طرق بابها سمع الجواب الباهر المقنع.. فاطلاعه الواسع المتدفق مكّنه من أن يستدرك:

ـ على الحفاظ ابن عبدالبر وابن حجر وابن الأثير صحابياً هو الحارث بن سعيد ـ رضي الله عنه ـ الذي وفد إلى النبيّ ﷺ وأسلم.

---

(١) «سبيل التوفيق» ص٩٦. وقد تعقبه شيخنا المحدث الكبير الإمام سيدي عبدالعزيز بن الصديق بكتاب ضخم أسماه: «الكمين للكنز الثمين».

(٢) نفس المصدر السابق ص٩٥.

ـ وعلى الحافظ ابن حجر صحابيًا من الجن لم يذكره في «الإصابة» وهو ابن لوذان.

ولا عجب أن تصدر مثل هذه الاستدراكات من عالم فذّ احتاج إلى علمه أجلاء الشيوخ الذين حملوا له تقديراً وتبجيلاً أمثال الشيخ محمد بخيت المطيعي، ويوسف الدجوي، ومحمد الخضر حسنين التونسي، وعبدالمجيد اللبان.. ولا بأس هنا من أن نُصغي إليه وهو يحدثنا عن واقعة تبدي لك، قارئي الكريم، مكانته العلمية السامقة.. قال:

« ..لما طبع ردّ الدارمي على بشر المريسي بتحقيق الشيخ محمد حامد الفقي، ـ وكانت فيه عبارات صريحة في التجسيم حتى أنه أثبت لله سبحانه وتعالى المكان والحركة والنزول ـ كتب الشيخ عبدالمجيد اللبان، عميد كلية أصول الدين، مذكرة لمشيخة الأزهر يطلب فيها منع تداول الكتاب لخطره على عقائد العامة، ونقل منه حديث الأوعال[1] نموذجاً لخطورته، وفاته أن يذكر ما هو أصرح منه. فحول شيخ الأزهر الإمام المراغي مذكرته إلى لجنة من أعضائها الشيخ محمود أبو دقيقة، والشيخ عيسى منون، والشيخ الجبالي. فانتهت اللجنة في بحثها إلى أن الحديث رواه أبو داود في «سننه»، وصححه بعض الحفاظ، ونقلت كلام ابن القيم في شرح «تهذيب السنن»، كما نقلت عبارات من «تهذيب التهذيب» في توثيق بعض رجال السند. وقررت أن لا خطر من الكتاب على العقيدة ولا يجوز منعه. ووزع التقرير ـ بعد طبعه في ثمان صفحات ـ على جماعة كبار العلماء. فأحرج الشيخ اللبان وسقط في يده ولم يدر ما يفعل! وصادف أن زاره الأستاذ أحمد خيري[2]، فوجده مغموماً، فسأله.. فأخبره بالقصة،

---

(١) الأوعال ج وعل وهو التيس/ الجبلي ـ ومن بيانات ردّ شيخنا أن القرآن والسنة الصحيحة يصفان الملائكة بأنهم ذوو أجنحة، وهذا الحديث الذي أقرته اللجنة جعلهم أوعالاً!!.

(٢) أحمد خيري (١٩٠٧ ـ ١٩٦٧) عالم أديب عصامي، أنشأ مكتبة قدرت بسبعة وعشرين ألف مجلد. له عدة مؤلفات، منها: «وفيات المشهورين» و «جمهرة أشعار العرب» و «فوائد قرآنية».

وأردف قائلاً: لو كان الشيخ الكوثري معافًى لرد على اللجنة، لكنه مريض. ولو كَلفتُ الشيخ حبيب الله الشنقيطي[1] بالرد لفضحني عند الناس بكلامه، وهو كثير الكلام والفخر بعلمه ـ والشيخ اللبان وَاهِمٌ في هذا، فإن الشيخ الشنقيطي لا يستطيع أن يرد على اللجنة لأنه لم يكن يعرف الحديث وإن اشتهر بذلك في الأزهر، والذي يستطيع أن يرد هو الشيخ الكوثري ـ قال أحمد خيري للشيخ اللبان: أعرف عالماً شاباً يقدر أن يرد كلام اللجنة وينقذك من هذه الورطة. قال: أدركني به! فجاءني خيري وقال لي: إن الشيخ اللبان يريدك في مسألة مهمة سريَّة، فتعالَ معي لزيارته.. فزرناه.. ووجدته متجهماً عابساً مهموماً.. وناولني مذكرة اللجنة، فقرأتها وقلت له: الردّ عليها سهل! فسُرَّ وانفرجت أسارير وجهه. وأعاد السؤال مستثبتاً، فأكدت له سهولة الرد. وبعد أربعة أيام سلمته ردًّا في خمس وعشرين صفحة بينت فيه خطأ أعضاء اللجنة في فهم نصوص الحفاظ وجهلهم باصطلاح أهل الجرح والتعديل، كما بينت فيه ضعف الحديث وسقوطه من جهة انقطاع في سنده، وضُعف بعض رجاله، واضطراب في متنه، ونكارة معناه من عدة وجوه. فطبعه وقدَّمه إلى المشيخة. فاجتمعت اللجنة ثانياً وكتبت تقريراً آخر عدلت فيه عن رأيها الأول، ووافقت على منع الكتاب![2].

وكثير من مؤلفاته وخاصة تعليقاته وتخريجاته وتحقيقاته صنفها وهو سجين! نعم.. لقد لحقه جَوْر الرئيس جمال عبدالناصر، واكتوى بنار بَلائه

---

(١) محمد حبيب الله الشنقيطي (١٨٧٨ ـ ١٩٤٤) علامة نحرير مشارك. رافق السلطان المولى عبدالحفيظ إلى الديار المقدسة سنة ١٩١٢، فاستوطن المدينة المنورة، فمكة المكرمة، ثم استقر بالقاهرة مدرساً في كلية أصول الدين بالأزهر، وبها توفي. من كتبه: «زاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري ومسلم» و «تيسير العسير في علوم التفسير» و «دليل السالك إلى موطأ مالك» وهي منظومة. وصف بالمحدث والحافظ، وهذا من الإفراط في التقريظ إذ لا يعثر في مصنفاته ما يدل على تمييزه بين الصحيح والسقيم وهو المراد من علم الحديث.

(٢) «سبيل التوفيق» ص٣٦.

«الأحمر» الذي صبه على خيرة العلماء العاملين أمثال الإمام سيّد قطب رحمهم الله، علماء كانوا يسعون إلى تطبيق أحكام الله وعدله في الأرض!. نعم قضى في الزنزانة إحدى عشرة سنة حُسوماً من ١٩٥٩/١٢/١٥ **إلى ١٩٦٩/١٢/٢٦**! وكان على وشك الإعدام لولا أن تداركه لطف الله! وهذا البلاء تابعه حتى في مدينة طنجة ـ وعامل إقليمها وقتئذ العربي الكيسي ـ فاعتقل هو وشقيقه شيخنا سيدي عبدالعزيز في سجن مالباطا لأنهما اجتهدا فصاما على رؤية الشرق! عجباً، فالبلاء مُدرِكه شرَّق أو غرَّب! وصدق مولانا رسول الله ﷺ: « . . **فما يزال البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه خطيئة**»[1].

وماذا عن نشاطه «الخارجي»؟

كتب مقالات في مجلة «الإسلام» بمنهجية متميزة جال فيها مع الحديث النبوي رواية ودراية، ومع فقه السنة من خلال الفتاوى في قضايا تحتك بحياة الناس، ومشاكلهم، واهتماماتهم الدينية. وكانت له على صفحاتها ردود ومناقشات علمية مثيرة حتى عرف بمحدث المجلة!

وكانت له أيضاً إسهامات في المجلاَّت الآتية: «الإرشاد» ـ وقد خصص له فيها ركن يتطرق فيه إلى الأحاديث الصحيحة والسقيمة ـ و «هدي الإسلام»، و «الرابطة الإسلامية»، و «الشرق العربي»، و «الوسيلة»،

---

(١) من حديث رواه الإمام أحمد وابن حبان والحاكم والترمذي والنسائي وابن ماجه.
وأحبذ أن أشير هنا إلى أني كنت بعثت إليه في ١٩٦٩/٩/٢٦، وهو في مصر سجيناً، رسالة مما جاء فيها: « . . فمن خلال مؤلفاتكم عرفتكم، ومن خلال أحاديث مع إخوانكم زدت محبة فيكم. . وأملي أن يجمعنا الله بكم في يوم غير بعيد لنحظى بمجالستكم، والتبرك بشخصكم الكريم، والرشف من مورد علمكم الشريف. . حقق الله هذا الأمل وحقق مساعيكم. .».
فأجابني بعد البسملة: «. . محبا الفاضل الأجل السيد المختار محمد التمسماني. . وعليكم السلام ورحمة الله. . وبعد. . وصلني خطابك الوجيز المفيد، وإني أشكرك وأدعو لك بالتوفيق والسداد، وأرجو أن يجمعنا الله قريباً، ونستمتع برؤيتك وحديثك الذي ينم عن إخلاص ومحبة. . والسلام عليكم ورحمة الله. ٢٥ رجب ١٣٨٩.

و «المسلم»، و «نور الإسلام» التي تصدرها مشيخة الأزهر برئاسة العلامة الشيخ محمد الخضر التونسي[1].

وكانت له صلة وثيقة، ونشاطات مكثفة مع عديد من الجمعيات حيث كان يحاضر ويشارك في ندواتها وملتقياتها العلمية:

- جماعة إخوان المسلمين، وكانت بينه وبين رئيسها الشهيد الإمام حسن البنا ووالده الشيخ أحمد عبدالرحمن[2] صداقة متينة. فكانوا يتواصلون ويتزاورون.

- جماعة أنصار السلف الصالح (تقلد رئاستها).

- جماعة أنصار الحج (عمل وكيلاً لها).

- جمعية العشيرة المحمدية (كان عضواً بارزاً فيها).

- جمعية الهداية الإسلامية (رئيسها الشيخ الإمام محمد الخضر حسين التونسي).

- جمعية نشر الفضائل والآداب الإسلامية.

- جماعة الرابطة الإسلامية.

- جماعة النساء المسلمات (رئيستها الدكتورة زينب جبارى).

- جمعية زينب الغزالي النسوية.

---

(١) محمد الخضر التونسي (١٨٧٤ ـ ١٩٥٨) علامة أديب باحث. ولد بتونس وتخرج من الزيتونة ودرس فيها. عين عضواً في المجلس العربي بالقاهرة ودمشق، ثم شيخاً للأزهر.. من مؤلفاته: «نقض كتاب في الشعر الجاهلي» و «نقد كتاب الإسلام وأصول الحكم» و «حياة اللغة العربية».

(٢) أحمد بن عبدالرحمن البنا الساعاتي (١٨٨٣ ـ ١٩٥٨) عالم زاهد ورع اشتغل بنفسه وعلمه، من مصنفاته: «الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني» و «بدائع المنن في ترتيب مسند الشافعي والسنن» و «تنوير الأفئدة الزكية في أدلة أذكار الوظيفة الزروقية».

ودرّس بالأزهر بالرواق العباسي. فالتأم عليه الطلبة ليسمعوا:

- تفسير النسفي.
- جمع الجوامع بشرح المحلي.
- سلم الوصول إلى علم الأصول لابن أبي حجاب.
- الجوهر المكنون.
- شرح المكودي لألفية ابن مالك.

وكان في تدريسه هذه العلوم يسلك الطريقة المغربية العتيقة حيث البحث والتدقيق والتحقيق.

ومن جميل صنيعه أنه درس للطلبة الراغبين في الحصول على شهادة العالمية الأزهرية علوم الامتحان، فكانوا يحرصون أشد الحرص على حضورها، ويتناقلون فيما بينهم جواهر فوائده وغرره، ويتهافتون على مؤلفاته ومقالاته:

فأسلوبه سهل ممتع، فيه غزارة العالم، وغوص المجتهد، وسلاسة الأديب، وجزالة البليغ، وإيجاز الفقيه، ودقة المنطقي، وتبصر الناقد.. أسلوبه ينسال مع الفكرة في طواعية ملفتة مهما بلغت من العمق لأنه لا يشقق كلامه، بل ينصرف به توًّا إلى صلب القصد بلغة لا غموض فيها، ولا تعقيد، ولا تقعّر، ولا رتابة مملّة.. ومن الطرافة الملفتة أنه يوشح مؤلفاته بأبيات متأنقة لا تكلف فيها ولا نفور.. هي سنة سلفية أحياها وقد اندثرت من قرون.. هي نمط من «أدب الفقهاء».. وإليك قارئي الكريم هذه النماذج، يقول في «بدع التفاسير»:

هذا كتاب ما سُبقتُ بمثله	جَمّ الفوائد ناضج الثمراتِ
مهّدت فيه مسائلاً وقواعداً	تَنفي عن التفسير بعض هِناتِ
جلوتُ فيه حقائقاً لا ينبغي	جهلٌ بها لمفسّر الآيات
سميته «بدع التفاسير» التي	جاءت من الأقوام بالعثراتِ..

- وفي «حسن التفهّم والدرك لمسألة الترك»:

التّرك ليس بحجة في شرعنا ... لا يقتضي منعاً ولا إيجابَا
فمن ابتغى حَظَراً بترك نبيِّنا ... ورآه حكماً صادقاً وصوابَا
قد ضلَّ عن نهج الأدلة كلها ... بل أخطأ الحكم الصحيح وخابَا
لا حظَر يمكن إلا إن نَهْيٌ أتى ... متوعِّداً لمخالفيه عذابَا
أو ذَمُ فعلٍ مؤذِّن بعقوبة ... أو لفظُ تحريمٍ يواكب عابَا

- وفي «السيف البتار لمن سبّ النبي المختار»:

من عاب أو سبَّ النبيّ فحكمُه ... سيفٌ يُجلِّله قتلاً وتقريعَا
هذا قضاء المسلمين جميعِهم ... لا خُلْفَ بينهم ولا تَفريعَا

- وفي «الرأي القويم في وجوب إتمام المسافر خلف المقيم»:

إن كان بحث في فروع شريعةٍ ... فاحذَر من التأثيم والتضليلِ
إذ كل فرع ليس يبلُغ رتبةً ... في الجزم كالتوحيد والتنزيلِ
والفقه علم غامض وبحوثه ... تحتاج للتنظير والتعليلِ
فإذا أصبتَ فأنت جدّ موفَّق ... أولا فلا تفزع إلى التهويلِ
ودع الغُلوَّ مع الغرور بجانبٍ ... واجنَح لحسن القول والتأويلِ
لا شيء ينفع في العلوم كحجةٍ ... مدعومة بقواعدٍ وأصولِ..

- وفي «توضيح البيان لوصول ثواب القرآن»:

اقرأ على الموتى كلام إلٰهنَا ... ودع الخصومة في وصول ثوابِهْ
وإذا سُئلتَ عن الدليل فأَفْهِمَنْ ... بجوابِ طالبِه وحسن خطابِهْ
يصل الدعاء كذا الصيام تفضلاً ... من ربنا فكذاك حكم كتابِهْ
لا فرق بين عبادةٍ وعبادةٍ ... ومَن ادعى التفريقَ ليس بنابِهْ..

- وفي «جواهر البيان في تناسب سور القرآن»:

علم التناسب للسوَرْ ... علم جليل ذو خطرْ
قد قلَّ فيه الكاتبون ... كما قد عزَّ المستطَرْ
وابن الزبير في «برهانه» ... قد كان أول من سطَرْ
إذ جاء فيه مُجلِّياً ... يتلوه بَحْرٌ قد زَخَرْ
أعفّ السيوطي الذي ... كتب التناسق للدررْ
وكتبتُ مثل كتابهم ... بحثاً يؤيده النظرْ
أعملتُ فيه قريحتي ... وتخيَّرت أنسبَ الفِكَرْ
وفتحتُ بعض المغلقات ... من آي الكتاب ومن سورْ
وأتيت من عين المسا ... ئل بالبدائع والغُررْ
أُلهمت من فيض الإلٰـ ... ـه بفيض فضلٍ مُدَّخَرْ
حمداً لواهب فضلهِ ... وله التطوُّل إذ ستَرْ
وصلاتُه دوماً على ... خير البرية من مُضَرْ

أفلا تراه قارئي الكريم محقاً في أن يقول عن نفسه:

« . . لا أعرف الآن من شارك في عدة علوم مثل مشاركتي فيها - ولله الحمد والمنة - مع تحقيق بحوث في كثير منها بطريقة لم أسبق إليها بفضل الله. . ولهذا أرجو من الله تعالى أن أكون مجدّد هذا القرن. فالواقع أنني لا أرى من يماثلني أو يشاركني في هذا. . فإذا وجدت عالماً بالحديث تجده لا يُحسن غيرَه. . وإذا وجدت فقيهاً وجدته لا يحسن غير الفقه. . وإذا وجدت نحوياً أو مشتغلاً بالبلاغة وجدته بعيداً عن علم الأصول وما يتبعه. . وإذا وجدت أصولياً عالماً بالعربية وجدته لا يعرف الحديث. . نعم قد يوجد من يشارك في بعض العلوم كالقدماء من علماء الأزهر وعلماء القرويين. . »[1].

ولا تحسبن كلامه هذا ضرباً من ضروب الزهو والافتخار، بل هو

(١) «سبيل التوفيق» ص٤٦.

تحديث بنعمة ربّه عليه وبيانٌ ـ كما قال ـ لكرامة والده «السيد» الإمام الذي بشره يوماً قائلاً له: ولا بد أن تكون عالماً كبيراً ومحققاً شهيراً!.

وهذا علامة الديار المصرية ومفتيها الأكبر الشيخ محمد بخيت.. كان إذا عرض له حديث نبوي يسأله في مجلس درسه فيجيبه![1].

وهذا شيخ الأزهر العلامة محمود شلتوت قال: نحن نهنىء الشهادة الأزهرية بأخذ الشيخ عبدالله لها الذي جاء من بلاده عالماً[2].

وهذا العلامة الضليع الشيخ محمد زاهد الكوثري.. كان مرة عند فضيلة المرحوم الشيخ يوسف الدجوي[3] وكان المجلس غاصاً بالعلماء وغيرهم وهو يتكلم في مسائل علمية متنوعة، فوجه إليه أحد الحاضرين سؤالاً عن حديث فوجه السؤال إلى شيخنا الإمام وقال: لا يُفتى ومالك في المدينة![4].

وهذا القاضي الشيخ العباس بناني، من كبار علماء القرويين، كان يحترمه ويثني عليه كثيراً.. حدث أن ذكر يوماً في درس الأصول حديثاً لم يعرف رتبته، فبيَّنها له شيخنا الإمام ـ وهو وقتئذ طالباً بالقرويين ـ فسأله: من أنت؟ فانتسب له، فقال: تبارك الله، الدر من معدنه لا يستغرب![5].

وهذا العلامة الشيخ عبدالفتاح أبو غدة.. كان يصفه بالحافظ.

وهذا الشيخ محمود شويل، إمام المسجد النبوي بالمدينة المنورة..

---

(١) نفس المصدر ص٦٥.

(٢) نفس المصدر ص٤٢.

(٣) يوسف الدجوي (١٨٧٠ ـ ١٩٤٦) الإمام الزاهد النحرير، عماد الأزهريين، عضو هيئة كبار العلماء. ذكي حاد الذهن. أصيب في صغره بالجدري فعمي. درس بالأزهر، وصنف مصنفات نفيسة منها: «تفسير القرآن الكريم» و «الجواب المنيف في الردّ على مدعي التحريف في الكتاب الشريف» وقد طبع منه مليونا نسخة، و «الرد على كتاب الإسلام وأصول الحكم».

(٤) «سبيل التوفيق» ص٧٩.

(٥) نفس المصدر ص٥٦.

خاطبه يقول: كنا نظن أنه لم يبق في مصر والشرق محدثون إلا الشيخ رشيد رضا، والشيخ أحمد شاكر. فلما قرأنا بحوثك وتحقيقاتك في الحديث اعتبرناك ثالثهما[1]..

وكفى بهؤلاء الأعلام الصدور، وغيرهم كثير، شهادة تنوِّه ببسطة علمه وإمامته..

وما اغتر قط بهذه المكانة العلمية السامقة، وما كان من عشاق الشهرة، ولا من خطاب السيادة والمشيخة.. هو كريم الشيم، نبيل، سمح، شريف الطبع، نقي السريرة، خافض الجَناح.. فيه أخلاق الفتوة الصوفية، يحمد الله على السراء، ويصبر على الضراء.. فيه ورع حتى في علمه.. فيه إخلاص وصدق وحياء.. إنه ـ وبحق ـ أبو تراب: وصف يطلقه عليه في محبة وإكبار شقيقه شيخنا العلامة سيدي عبدالحي.. لذا اجتمعت عليه القلوب، وصفت له، فأوتي محابَّها وجلالها حتى أصبح لكل عين حبيباً!.

وجال شيخنا الإمام في بلاد الله شرقاً وغرباً.. حج عدة مرات، أولها وهو صبي يحبو، فحُجَّ به.. وزار دول الخليج العربي، والأردن، والسودان، وبلدان المغرب العربي.. وذهب إلى أوروبا، وسافر مرتين إلى الولايات المتحدة الأمريكية حيث أقام فترة في بيت الملاكم الشهير محمد علي كلاي بشيكاغو.

---

(١) نفس المصدر ص٢٩. يقول شيخنا الإمام:

ـ للشيخ رشيد رضا (١٨٦٥ ـ ١٩٣٥) بحوث فقهية مفيدة، ولم يكن يعرف من الحديث إلا أن يبحث عنه في «الجامع الصغير» أو أحد كتب الستة، وإن كان كثير من الناس يعتقدون أنه محدث، وهو اعتقاد خطأ. كان يحابي شيخه الشيخ محمد عبده في مسائل تخالف السنة مع علمه بمخالفتها. غفر الله لنا وله!.

ـ والشيخ أحمد شاكر كان يعرف علوم الحديث معرفة جيدة تدل عليها تحقيقاته للكتب التي حققها كمسند الإمام أحمد، غير أنه كان لا يعرف العلل ولا يهتم بها ـ «سبيل التوفيق» ص٤٩، ٥٠.

وأتذكر يوم عودته إلى طنجة في ١٠ يناير ١٩٧١ بعد غياب دام أربعين سنة، وكان يوماً مشهوداً[(١)] . .

وبدأ مرحلة جديدة من حياته بين قومه. . فذاق الحلو والمرّ، واليسر والعسر. . وصنف، ودرس، وخطب. . فأثار حركة علمية مباركة لم يسبق لها مثيل. .

واعترته علة، فتبلّغت به، فثقل. .

وفي ١٢ فبراير ١٩٩٣ أفضى إلى ربه. . فودعه آلاف المواطنين في جنازة رهيبة تأخذ بالأفئدة، وصدق فيه قول الإمام أحمد بن حنبل: بيننا وبينهم الجنائز! وصلي عليه ظهراً بالمسجد الأعظم، ودفن بالزاوية الصديقية بجوار والديه. . تغمده الله تعالى برحمته ورضوانه وبوأه فسيح جنانه. .

وبعد،

فهذه نثارات عن حياة شيخنا الإمام العلامة الحافظ أبي الفضل سيدي عبدالله بن محمد بن الصديق. . نثارات أعرف أنها لم تف بحق شخصية هذا الإمام الذي شيَّد المباني بالحجج البينات والأدلة الراجحة. . وقَرَّ العين بجواهر البيان. . وأوضح البرهان بنفحات إلٰهية ذكية. . وأعلم النبيل والراكع الساجد بالفتح المبين من المعين. . وأرشد إلى سبيل التوفيق بحسن التلطف. . ورفع الإشكال ودفع الشك والارتياب بالرأي القويم والرد المحكم المتين. . إمام وجَّه العناية إلى بدع التفاسير بالقول المسموع السديد المقنع الجزل. . وكشف أنواع الجهل بحسن التفهم والدرك فبان كمصباح الزجاجة. . إمام أتحف الأذكياء والنبلاء باستقصاء الأدلة وتوضيح البيان. .

---

(١) إن أنسَ فلن أنسى دخول شيخنا الإمام إلى الزاوية الصديقية بزيه الأزهري وقد غصت رحابها في ازدحام مختنق. . وبعد صلاة المغرب وقد تقدم إماماً أهرع الناس إليه، فالكل يريد أن يراه عن قرب، أن يصافحه، أن يقبل يده ورأسه، أن يتبرك به. . وأمام هذا الحشد أشار إليّ شيخاي سيدي عبدالحي وسيدي عبدالعزيز أن أقول كلمة، فكانت كلمة موجزة فيها ترحيب وشكر وتوجيه. كان قدومه قدوم أبطال، فيه جلال ورهبة. . وما زلت أحتفظ بصور تؤرخ لهذا اليوم المشهود.

وأتقن الصنعة بالتحقيق الباهر.. ونور البصيرة بإزالة الالتباس والتوقي والاستنزاه.. إمام استمد العون بكمال الإيمان وعقيدة أهل الإسلام، فذاق الحلاوة وتمت له المنة في خصال موجبة للجنة.. فكانت غاية الإحسان ونهاية الآمال![1].

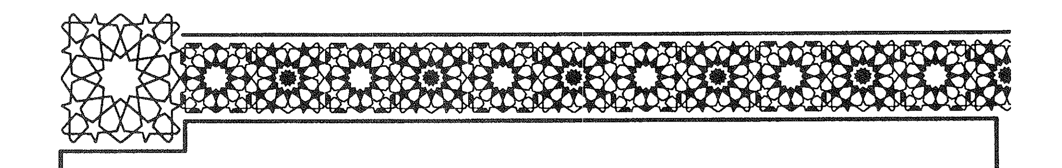
حقًّا.. كان كنزاً ثميناً بيننا ونحن في غفلة عنه! كان لنا هديةَ الزمان فما رعيناها حق رعايتها! وحينما رحل عنا في هدوء وسكينة كطبعه، ذهلنا ولم نصدّق الخبر وإن كنا نتوقعه! ووقتها فقط علمنا أننا فقدنا جوهرة نفيسة، وتجمجم في جوانحنا شيء عسر علينا تعليله، وارتبكت صورته، فرددنا في تحسر وتَرَح وندم: ليتنا وليتنا!. لكن.. هل ينفع شيئاً ليتُ؟. لقد عاش بين قومه غريباً في فضله، وفي مكارمه، وحتى في علمه.. أو ما قيل وبحق: الشمس يَذهب نورها بالمغرب! ولئن سألتني قارئي الكريم: وما بعد البعد؟ أقول لك:

فالناس كلهم لسانٌ واحدٌ يتلو الثناء عليه والدنيا فَمُ

طنجة في ١٠ أبريل ٢٠٠٢



(١) هذه الفقرة لخصتُ فيها مؤلفاته اقتباساً من أسمائها.



بسم الله الرحمن الرحيم

الشيخ محمد الزّمزمي بن الصديق
(١٣٣٠ ـ ١٤٠٨/ ١٩١١ ـ ١٩٨٧)

كان مَكْدوداً يلاطم حَمأة الجَفْر، ويجالد الأيام ويصارعها في صبر وقد نضب غديره حين جاءه ذات صباح مبعوث الكولونيل پول هُوبِيزْ ـ مدير مكتب المخابرات الفرنسية بطنجة على عهد الحماية ـ وأبلغه رغبة العقيد في أن يوليه منصب قاض شرعي.. وزيّن له جادة الحزْم فيه بتلطف ومداراة.. فتبسم الشيخ الإمام ـ «سيدي الزمزمي» ـ ربما لخاطر مرج في ثنيّات وجدانه كالمنبّه.. هي كلمة سمعها من والده «السيّد» الإمام الكبير رحمه الله: «لأن يبيع طالب العلم الفحم والنعناع ويدور بهما في الشوارع خير له وأسلم في دينه ومروءته من تولية القضاء والعدالة في هذا الزمان لغلبة الشر والفساد على هاتين الخطتين..»[1] ربما برق هذا الخاطر في خلده فردّ المبعوث ردًّا جميلاً وقال له: استخير الله في المسألة!. وفي اليوم التالي عاد إليه المبعوث ونفسه تحدثه بأن الشيخ قد عني لا محالة بالاقتراح، ورقّ له جانبه، خاصة وهو دَقِعٌ والراتب الشهري[2] جدّ

---

(١) «نسيم وادي العقيق في مناقب شيخنا القطب سيدي محمد بن الصديق» للعلامة الصوفي السيد العربي بوعياد ـ ص٢٧٠ مخطوط.

(٢) أي ١٨٠,٠٠٠ فرنك، وهو ما يوازي اليوم أكثر من ٢٠,٠٠٠ درهم!.

مغرٍ يتطاول إليه الأمل في تلهف، وتَضِبّ له اللِّثات، وتتشهّاه قُنُع النفوس.. وهي مع هذا وذاك فرصة تألَّق برقها فالْتُهْتَبل!. وقابله الشيخ على باب مسكنه المتواضع.. وبعد صمت يسير بدهه في جرأة إيمان قائلاً: «قل للعقيد: لا.. لا أريد القضاء، وما لي وللقضاء!». جواب ترك في نفس المبعوث مُضطَرَباً.. فتوسمه لحظات، وأجلى فيه طرفه، فرأى أن الدنيا لا تساوي عند الشيخ قُراضة الجَلَم، وأن متاعها دَبْر أذنيه وتحت قدميه، وأن التقيّ مُلجَم! فأكبره، وجلّ في عينه.. ثم سلّم عليه وانصرف وهو يهمس: ما أقوى رجاء «سيدي الزمزمي» في عون الله!. حقاً، العيش ثقل ولكن قاضي الأرض مُمْتَحَنٌ!.

واستقل المغرب من ربقة الاستعمار..

واستفاض ذكر دروس الشيخ الإمام وخطبه في المحافل والمجالس، وانتشرت انتشاراً وقد استمالت إليها القلوب، وارتاحت لها العقول: فهو جَدِل، وثيق الحجة، يغوص في المسائل العلمية - أصولاً وفروعاً - فيثير دفائن المباحث، ويفرق بين صحيحها وسقيمها دون أن يعتدَّ بمذهب معين، أو يكترث لقول يخالف ما صحّ عن الشارع مهما علا كعب صاحبه ولو كان صاحب مذهب.. وكان يقصد من وراء هذا النهج الذي لم يألفه الناس أن يبصِّرهم بدينهم الحق، ويحثهم على التخلق بالهدي النبوي في عاداتهم وشؤونهم.. هذا النهج القويم لم يرق بعض المغرضين وضاقوا به ذرعاً، وإذا بناظر الأحباس يستدعيه ويحذره من مغبة الاختلافات الفقهية، فتهانف الشيخ الإمام وقال له: لا تُملِ عليّ إرادتك ولا إرادة غيرك، أنا أعي ما أقول، ولا أبث في دروسي وخطبي إلا ما أراه صواباً!. وانصرف وترك الناظر مذهولاً..

مواقف حاسمة وما أكثرها في حياة الإمام العلامة، الداعية البارع، الزاهد الصالح، سيدي محمد الزمزمي بن محمد بن الصديق..

كان جمّاعاً لثمار الفضل.. زاهداً عن ترف الدنيا ونعيمها فلا تنفذ إليه جراثيم الطمع.. جزْل المروءة لا يُنال نَبَطُه.. صَلْب المكسر لا تُثنيه

رغائب الدنيا التي كان يراها متاع الغرور.. فيه همة شمّاء، لم يَحنِ جبينه إلا لخالقه عز وجل.. ألم يعرض عليه القضاء - وهو في عسر وضيق - فرفض؟. ألم يراوَد لمنصب مدير المعهد الديني فرفض؟ ألم يلحَّ عليه في التدريس بدار الحديث الحسنية فرفض؟. نعم.. كانت أمنيته الوحيدة أن يدرس في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.. رغب في هذا المنصب - وهو الذي يكره الانخراط في الوظائف - لسبب متألق شريف: أن يقيم في طيبة بجوار جده مولانا رسول الله ﷺ!. لكن حيل بينه وبين هذه الأمنية لأن عقيدته في صفات الله عز وجل تخالف ما درج عليه «القوم» هناك![1]. ولو داهنهم لقضوا أمره، لكنه رجل صدوق نزيه، لا يلبس الحق بالباطل، ولا يموّه ولا يراوغ، وكأني أسمعه يَهمس في أذني: قُل لهم:

إنّا أُناس من سَجِيَّتنا صدقُ الكلام ورأينا حَتْمُ[2]

وتراني الآن أستمتع بذكريات تجول في خاطري وأنا أحاول كتابة ترجمة شيخنا الإمام رحمه الله ورضي عنه.. غير أني أريد بدءًا أن أشير إلى أنها ستكون ترجمة مقتضبة، وليست بحثاً مفصلاً[3] عن حياته.. هي فحسب نثرات تأمل في جوانب من شخصيته الجذابة المؤثرة.. وعرض سريع لمنهجه العلمي ولأفكاره.. ووقفة عجلان على مميزات دروسه.. وإطلالة محايدة على معاركه العلمية.. هي معالم في طريق رجل عاش حياته دون أن يُخضع لها رَقَبته.. عاشها في شفاف جوهر، وترفَّع عليها في إباء وزهو: إباء في عفة، وزهو في ورع.. عاشها في محيط هو أقرب ما

---

(١) انظر تفاصيل هذه العقيدة في كتابه «الطوائف الموجودة في هذا الوقت» ص٦٩.

(٢) البيت لعتبة بن أبي لهب بن عبدالمطلب ابن عمّ رسول الله ﷺ في «البصائر والذخائر» للتوحيدي ج١٤٠/٩. وعتبة - رضي الله عنه - ممن شهد حنين مع النبي ﷺ وثبت.

(٣) للعلامة الفاضل الشيخ سيدي أبيّ بن محمد الزمزمي بن الصديق تقديم لكتاب والده «العلم النبوي» أدرج فيه تعريفاً به. وفي كتاب «إسعاف الإخوان..» للعلامة السيد محمد بن الفاطمي السلمي ترجمه له بصحيفة ١٢١.

يكون من الفطرة، وأبعد ما يكون من التمدن.. عاشها وهو يدرأ عن نفسه الشبهات في مأكله، ومشربه، وملبسه، وأثاث بيته، ومعاملاته مع الناس صوناً لمروءة العلم والنسب، وصدًّا لما يقذع السلوك، ويغمز الأعراض، ويقرع الصَّفاة..

شخصية شيخنا الإمام شخصية فذة تكتنفها عزة الإيمان، وأرومة العريكة، ومخايل الشيم.. تلقاه فتأخذ هيبته بفؤادك، وإذا به يرنو إليك بليونة جانبه، ودعة حركته، ورقة ابتسامته، ومَلْح أنفاسه.. هو لذيذ المفاكهة مع خواصه، وقد أدرجت في كتابَيّ «مع صاحبي»[1] و «من وحي العيون»[2] وقائع من لطائفه وطرائفه جرى بعضها بحضوري، وتلقيت البعض الآخر مرويًّا من شهود عيان.. تجالسه فينفذ حديثه إلى قلبك فتأنس به، ويدعو عقلك فتنزع إليه.. تراه ينقلك من مسألة علمية إلى عرض إخباري.. إلى لفتة نقدية.. إلى هدي نبوي.. إلى مخبَّأ اجتماعي.. إلى موعظة تستدرف المآقي.. إلى نكتة تنزع منك الضحك انتزاعاً.. إلى فائدة نادرة.. باختصار حديثه يسحر النفوس، فتتشوق إلى لقائه، وتظمأ إليه.. ولما غاب عن العيون ـ وقد كانت تملأها طلعته ـ مضَّ فراغه لفائف قلوب من استمع إليه، وعرفه، وخالطه، ولازمه!.

شخصيته تقابلك ملامحها أيضاً بجلاء في أسلوب كتابته، أسلوب يسير وفق عفوية طبعه، وسمات سجيته: فلا تزويق فيه، ولا تحبير، ولا تقعّر.. كلماته تجري فيه طليقة حرة، وتنطق بقوة الصدق وقوة الإحساس.. وبين الصدق والإحساس تنسال أحياناً عبارات ثائرة متلهبة قد تُخْفِت لوامعَ السداد وتُخمدها!. أجل.. هو يرسم كلماته على الورق كما يفيض فيها علمه وإدراكه، ويجيش بها وجدانه وإحساسه..

وهنا أسارع لأقول ـ وأنا في رحاب شيخنا الإمام الذي ما زال إشعاعه

---

(١) هي جلسات متنوعة أفرغتها إلى حد الآن في خمسة أجزاء.

(٢) هي خواطر وتأملات في كتاب «عيون الأخبار» لابن قتيبة.

وامضاً ـ: إني أتحاشى الخوض في مجريات أحداث لاكتها ألسُن خَشِنة واستفاضت فيها.. ولا خير فيمن يستغويه قرين السوء بغرور فيتيه فيما لا يُجدي ولا يليق حتى يفوته الماء ويكتفي بالتيمم!.

نعم.. أريد ألا أميل مع أول خاطر طارىء وأنا الذي قد سايرت كثيراً من تطورات نشاطه ـ وإن أحياناً من بعيد ولكنّه بُعد قريب ـ ونهمت إنتاجه في شغف.. خاطر ربما يكون وَهْماً يستجرُّني إلى كلام تافه قد سقط فيه أقوام من ذوي الضمائر القلقة!.

نعم.. أريد ألا أقع في خطَل من الرأي، ولا في تحكّم من الظن وهذه أقوال من حولي تتضارب وتتعارك لتفضي آخر المطاف إلى حسرة الإخفاق.. ألم يقل شاعر العربية الأكبر:

أَظْمَتْنِي الدنيا فلما جئتُها مُستسقياً مطرتْ عليَّ مصائبَا؟

نعم.. أريد ألا أتعلّل كما أرجو ألا يتعلل غيري بما يجلب العتاب الوجيع المرّ!.

نعم.. أريد ألا أقحم نفسي في عنعنات أحاديث مِراض القلوب الذين شبكوا تفاصيلها بلهو الأغراض وعبث الأهواء.. أحاديث لا تركن إلى سِناد صادق متين، بل هي تضرب في فراغ، وتثير الشغب، وتفجِّر ألسنةَ المتنطعين بقالة السوء والتزريف والتزايد.. أحاديث هي عندي من نخالة الشائعات وهي لفاظة ينبذها كل ذي مروءة وحياء لأنها ظنون في ظنون، وخواء في خواء، ومتاهة في متاهة!. أحاديث معاشر قوم فيها ظلام من باطل داجنٍ كثيف، وبصيص من حق ضئيل طفيف!.

وليس من السهل في شيء ونحن في مسار التعريف برجل كشيخنا الإمام الذي كان له أثره النافذ القوي ـ سلباً وإيجاباً ـ في شرائح المجتمع على تباين طبقاته وفئاته ومشاربه وميولاته.. ليس سهلاً ـ والحالة هاته ـ أن نفرق بين الحق الراسخ، وبين الباطل الزاهق ما لم نُجْرِ على المحكِّ وتحت المجهر تلك الروايات المتضاربة المتناقضة، ونقارن فيما بينها بتبصر

وحيطة حتى لا يَعمى العقل وتختُل الشعور فينطفئ نور الإنصاف وتُطمَس الحقيقة في دياجير الوهم العريض!

وإني حين أبدي برأيي هذا الصريح ـ وقد أعلنت عنه غير ما مرة ـ أضع في حسباني أنه سينجرُّ عليّ اللائمة من بعض معارفي الذين سيقابلونني بالعتاب عندما يقفون عليه مسطراً هنا في هذه الترجمة. . وربّ مَلوم لا ذنب له!. سيقولون: إنني كتمت وطويت ولم أفصح عما عشته وعرفته من حياة شيوخي آل ابن الصديق رحمهم الله ورضي عنهم. . ولهؤلاء أقول دون مواربة وبقناعة راسخة: إني لا أذيع من «الأحداث» إلا ما نفض عنها غبار القيل والقال، أما التوافه العوارض فلا موقع لها عندي ولا يَرصُف بي الخوض في إشاعتها. . أقول هذا رغم أنف ذاك الذي قرأ تعريفي بشيخنا العلامة الحافظ الإمام سيدي عبدالله بن الصديق رحمه الله[1] فخنق عليّ، وعاتبني على أني لمَّحت ولم أفصح، وأشرت ولم أبيّن، وعمَّيت ولم أوضِّح!. سامحه الله. .

نعم. . أريد ألا أمشي على أشواك زرعها باطِليون قد عشَّشت في حنايا صدورهم مقاصد لا عفَّة فيها، فباضوا وأفرخوا ليفرقوا ما جمعه رَحِم الأخوة وما دثَّرَته «صديقية» الأشقَّاء!. باطليون ـ بعضهم أحياء يرزقون ـ تراهم في كل وادٍ يهيمون، والعيوب يتنَسَّمون، وعن المناقص يسألون!. أجودُ سلاحهم سِباب مُنتن، ونَفْج رَعُون!. عجباً. . ما ضرّ هؤلاء لو ركنوا إلى كلمة سواء؟. أو ليس في نشر المُصافاة طيّ المُعاداة؟. أو ليس بين السماحة والحماسة تآخٍ؟.

ولو أني تلهيت برقاعاتهم ـ وهم في أمر مريج ـ وسعيت إلى تمحيص كلام كل خابط لابط لانهارت الأرض تحت أقدامهم. . ولكن معاذ الأدب ومكارم الأخلاق أن أنزلق في هذه المتاهي يَدَ الدهر!. فتبًّا لمن ينهج غير سبيل المؤمنين، وتَرباً لكل حَقَّار مقار يطلق لسانه بهواتف الجهالات وقد أخرست عنها ألسِنة العفة، أو ما علم أن الجَذب أَرض المَطَر[2]؟! يا

---

(١) نشر في مجلة «الطنجيون» السنة الأولى ـ صيف ٢٠٠٢ ـ العدد ٣.

(٢) ويقال: أرى الجدب أرض المطر أي أن العداوة تتولد من الشر. «غراس الأساس» ابن حجر ـ ١١.

سبحان الله.. القلم قد يزلّ إذا ما وقع في شَرَك التضرم، وما قصدي سوى أن أرعى عصمة الأدب وزكيَّ الاحترام مع شيوخنا خاصة ذوي العلم والنسب الشريف.. وأستسمح القارىء الكريم عذراً..

وأعود لأقول:

هي ترجمة مقتضبة.. ومضات من صورة حياة إمام قدوة داعية، لا أستطيع البلوغ إلى غايتها، ومن سولت له نفسه أن يقدر على تقصيها فقد أغرب وتوهّم.. فقل لي بربك: من ذا الذي صفت له الكلمة، وتحكم في وجدان مشاعره، وأخذ بزمام الإنصاف حتى يستطيع أن يفي بترجمة ضافية متكاملة لهذا الإمام الذي عاش بين الناس بعلمه وأخلاقه، فافتتن به كثير منهم، واقتفوا بعده معالمه، واستنهجوا سبيله؟. لا أحد يستطيع..

وبعد،

فهذا الإمام الصدر العارف القدوة «السيد» الشيخ سيدي محمد بن الصديق ينزل - بعد أدائه فريضة الحج - ببور سعيد في مصر قادماً إليها من القاهرة. ولم تمض من إقامته بهذه المدينة غير أيام معدودات حتى أكرمه الله تعالى بين عشاءي ليلة الخميس **١٣** جمادى الأولى **١٣٣٠** بمولود ميمون النقيبة، غصن آخر من غصون الدوحة الصديقية المباركة، فسماه: محمد الزمزمي.

وبعد شهر عاد «السيد» إلى طنجة..

وفي رحاب الزاوية الصديقية - منارة العلم والتصوف - حيث تلاوة القرآن، وتدريس العلوم، وحلقات الذكر، وقراءة الوظائف والأوراد والأدعية.. وفي بيت والده حيث الطهر والصفاء، حيث المطعم الحلال والمأكل الحلال والملبس الحلال.. نشأ «سيدي الزمزمي» وترعرع.. فقرأ القرآن، وأتقن حفظه وعمره لا يربأ الحادي عشر.. وفي سنّ مبكّر تفتّقت مواهبه، وظهرت عليه مخايل الذكاء، وملامح الصلاح، ومحاسن الفُتوَّة، فعكف بشغف على مطالعة كتب السيرة النبوية والتاريخ، يقضي في أحضانها معظم أوقاته.. وألِف العزلة، وانقطع أنسه إلى الله في تهجد وعبادة حتى ما

عرفت نزوات المراهقة سبيلاً إلى قلبه.. وراقب محيطه ـ والبلاد تحت وطأة الاستعمار ونكْده ـ ولاحظ ما تتلاطم فيه من أحداث متوترة خطيرة.. فسمع، ورأى، وعلم، ووازن.. وفي هذا الجو المفعَم كان الشاب يتطلّع إلى الأزهر: كعبة العلوم، ومنبر جهابذة الإسلام.

وأهلّ شهر شعبان من سنة **١٣٤٩هـ/ ١٩٣٠م**، فتحققت رغبته، وسافر إلى القاهرة بحراً بمعية شقيقيه الحافظ الإمام حجة العصر سيدي أحمد والعلامة الحافظ المتقن شيخنا سيدي عبدالله، واستفاد خلال هذه الصحبة علماً نافعاً..

وبدأت مرحلة الدراسة في الأزهر على علماء أجلاء من بينهم على الخصوص وقد أخذ عنهم:

ـ الشيخ عبدالسلام غنيم الدمياطي: «الألفية» بشرح ابن عقيل و «الجوهرة» في التوحيد بشرح الباجوري.

ـ الشيخ محمود إمام عبدالرحمن المنصوري: «الألفية» بشرح الأشموني.

ـ الشيخ أبو طالب حسنين: «زاد المقنع» في الفقه الحنبلي.

ـ الشيخ الذهبي: شرح «المنتهى» في الفقه الحنبلي.

ـ الشيخ مصطفى الصفوة: «المختصر» بشرح الدردير.

ـ الشيخ محمد حسنين مخلوف العدوي: «جمع الجوامع» في الأصول و «أنوار التنزيل» وهو تفسير البيضاوي.

ـ الشيخ عبدالمجيد الشرقاوي: «الفوائد الشَّنْشَوْريَّة في شرح فرائض الرحبية» وهي منظومة في الفرائض على المذهب الشافعي بشرح جمال الدين الشّنسوري.

ـ الشيخ بخيت المطيعي: التفسير وصحيح البخاري.

والمناسبة تجرُّني إلى أن أبث ما حدث ذات مرة في حلقة درس

حضره «سيدي الزمزمي»[١].. ذلك أنه من عادة شيوخ الأزهر أنهم يقررون في المسائل التي يعرضونها على الطلبة والكُرّاس بأيديهم، خلاف طريقة علماء المغرب الذين سمعناهم يقولون: الكراسْ في الرّاسْ![٢]. فالشيخ عندنا يطالع أصل درسه قبل أن يمليه على طلبته، ويخزن في حافظته ما وسعه استظهاره من شروح وحواش وتعليقات وطُرَر، ثم يبسطها في مجلسه تلقائياً في حين تكون بأيدي الطلبة نسخ من شرح المتن المقرر[٣]، فيأتي ترسُّله فيها حافلاً مجدًّا حاشداً.. واتفق أن شيخاً أزهرياً كان يقرر في مسألة لها ذيول متشعّبة، فمرّ عليها مرّ الكرام ولم يتوسع فيها، لعله لم يأخذ لها عدته ولم يجدَّ فيها. فسأله طالب أفقي كان بجانب «سيدي الزمزمي» عن نكتة فيها قد أغلق عليه فهمها. فلم يجبه الشيخ عن مراده، بل عنّفه وغضب عليه غضب ويل، وتدرَّع من جهله بأن الطالب أساء الأدب في سؤاله!. فأثرت غلظة هذا التأنيب المُجحف في كيان «سيدي الزمزمي» الذي لم تستسغ نفسه مثل هذا الجفاء في التدريس.. وإذا بالشيخ يلقي نظرة في كراسه، وإذا به يقف على مسألة ذاك الطالب المسكين، فالتفت إليه وقال: يا هذا، قد فرَّجها ربُّنا، ها هي ذي مسألتك!! فمال «سيدي الزمزمي» إلى زميله هذا وقال له: «أما يستحي هذا الشيخ؟ جهل وغطرسة!». وانصرف ولم يعد يجلس في حلقة درسه.. عزّة وإباء والله!.

أجل.. كان يعتمد في دراسته على ذكيّ خاطره، وفيض إدراكه، ونجيع مزاجه: يتلقى فيحفظ ويهضم ويتروَّى.. ولذا تراه ميالاً إلى المذهب الحنفي حيث نُضج الرأي وأصالته، وحيث بعد مُراد الفكر وغور التحليل..

وفي سنة **١٣٥٤هـ** توفي «السيد» رحمه الله، فعاد الشاب العالم إلى

---

(١) حكى لي هذه الواقعة شيخي العلامة الإمام سيدي عبدالحي بن الصديق رحمه الله، وحكايات أخرى.

(٢) ويقولون أيضاً: القاعدة في الراس والخسارة في الكراس! أي أن الطالب يحفظ القاعدة ـ في النحو خاصة ـ ويلحن في الكتابة.

(٣) من المقولات المتداولة بينهم: «من الذل حضور المجلس بلا نسخة، والعلة في ذلك لا تخفى».

طنجة بعد أن قضى خمس سنوات في رحاب الأزهر ولم يتم له ما كان عقد العزم عليه من التوسع والتضلع في علم التجويد وعلم الفلك. عاد واعتكف في الزاوية اعتكاف أهل العلم والتصوف المستنير.. وتحلّى خلاله بسمات آدابهم وأحوالهم..

وبدأت مرحلة الإنفاق العلمي.. فكان الجامع الكبير والزاوية الصديقية منبريه الأساسيين، منهما يشيع فيض علومه في التفسير والحديث والفقه وغيرها من الفنون. كما كانت له مجالس علمية خاصة مع طلبته ومريديه.. كما وعظ وخطب.

ولنتساءل: كيف كانت سِمَة وعظه وخطبه ودروسه؟.

وليعلم بدءًا أن الشيخ الإمام، قبل أن يكون صاحب وعظ وخطابة ودرس، كان صاحب دعوة، من الذين:

يُهدون من ضلَّ نهجَ الحق واضحةً ... ويُنقذون من الخسران من خسِرُوا

ويُرشِدون إلى الأخلاق أحسنِها ... يحذِّرون الوَرى مما به الضَّرَرُ

وكم تعجبني كلمة المرحوم العلامة الدكتور مصطفى السباعي في هذا الصدد، يقول: «كلما كان الداعية إلى الله أو المصلح الاجتماعي في شرف من قومه كان ذلك أدعى إلى استماع الناس له.. صحيح أن الإسلام لا يقيم وزناً لشرف الأنساب تجاه الأعمال، ولكن هذا لا يمنع أن يكون الذي يجمع بين شرف النَّسب وشرف الفعل أكرم وأعلى مكاناً وأقرب نجاحاً..»[1].

وهل تَشق النفوس بقول داعٍ ... وتعلم أن قائله كذوبُ؟

ولقد جمع شيخنا الإمام بين شرف النَّسب، وشرف العلم، وشرف العمل، وشرف الصدق.

نعم.. وعظه.. كان فيه توجيه وتربية وترغيب وترهيب.. كان ينطق

(١) «السيرة النبوية» ص٣٦.

بما يختلج في صدره من آلام على ما ينخر المجتمع الإسلامي من آفات ونكبات وأرزاء يراها آثاراً جرَّارة لتلك الطراوة العصرية الضارية الجارفة!. آفات تحطم المكارم وتُذيبها في بؤرة الرذائل.. آفات تصدَّى لها بكل قواه لنشل الغُفَّل من معاطب الهلاك.. تراه لا يقنع بالتلميح إلى تلك المهاوي والمتالف، ولا يسلك إزاءها مسلك الإيماء والإشارة، بل تسمعه يقرع بابها بشدَّة، ويسميها بمسمياتها، ويضع الكلمة موضعها فيها دون اكتراث للعواقب، والعيون من حوله ترصده وتحصي عليه كل صغيرة وكبيرة.. لا يهاله أمر ولا يعتقل لسانه لأنه داعية حق، يَنطلق من الحق ويَنطق بالحق.. ومن جميل صنعه في وعظه أنه كان يخلل مسار كلامه بطريف النكت، وجليل الأحداث التاريخية، وعجيب الوقائع.. هي استطرادات يُقحمها هنا وهناك، فتأتي وكأنها مِرْوحة وسُلوة للسامع.. كلمات وعظه كانت تنطبع في مَضمر الأفئدة وتترسَّخ وتفعل فَعلتها..

وخطبه.. كان أنيقاً في تعبيره، جَزلاً في بديهته، مطبوع اللهجة، تعشق الأسماع رنين صوته الدافئ فتُصغي إلى إلقائه وفيه جلال وفخامة، وتميل القلوب إلى سحر بيانه وقد ملك أعِنَّتها.. هو يرسم موضوعه، ثم يقرب تفاصيله إلى السامع ببراعة مدهشة.. يلقيها أولاً بكلمات فصيحة، ثم يعقبها شرحاً بألفاظ دارجية ليفُضَّ بذلك أختامها، ويُزيل عنها كلَّ غموض أو لبس.. وأقول ـ والابتهاج يغمر صدري ـ: إني كنت شغوفاً بتدوين مقاطع من خطبه أختزنها في ذهني اختزاناً وهو يلقيها، ثم أودعها مفكرتي التي ما زلت أحتفظ بها في اعتزاز لأنها ذكريات سنين خصبة من التحصيل في «مجالس الصديقين» منذ أواخر الخمسينات!.

ودروسه.. كان يسقي الناس فيها ـ على اختلاف مداركهم ومشاربهم ـ من حياض العلم وعيونه وبحاره.. فيزدحمون عليها.. ولا غرو.. فالمنهل العذب كثير الزّحام!. ومن رسوخ قدمه وبعد غوره أنه ما كان يترك من يشطح بأحكام الشريعة ويمرح فيها صوّالاً جوّالاً دون أن يتصدّى له ويُماتنه..

كان من خلال دروسه، وفي غضون وعظه، وأثناء خطبه يبث أفكاره، ويعلن عن آرائه..

وهنا نود الإشارة ـ وهي ذات أهمية في معرض دعوته ـ إلى أنه إذا ما آمن برأي، أو دان بمعتقد، أو ترسَّخت في ذهنه فكرة قد تيقَّن من صوابها وجدواها لأنها قائمة على حجة عُليا، نافح عنها، ووقف إزاءها يتحدَّى كل اتجاه يغايرها.. هي في تصوره كالشمس لا يحتاج واقع وجودها إلى شهادة أحد، ولا يعاندها إلا مكابر متصلِّف!.

وأخرى تستوجب أيضاً وقفة لأنها تنبئنا بظاهرة فطرية عنده تلائم طبعه وتواكب نحيتَتَه.. ذلك أنه ما جرَّد قلمه، وما أجراه على ورق إلا تحت وطأة قصد معيَّن تلبيةً لفورة داخلية ملحة.. فهو إذاً لا يكتب إلا حين تدعوه الكتابة.. هي منه كالصرخة التي تندد وتقاوم لتدل على مضنة الصواب ومقطع الحق، والحق أحق أن يتبع..

ولْنستأنس هنا بكلمته التي تدلنا على شِعابه الفكري، وتوصلنا إلى القناعة بمنهاجه العلمي الذي أسسه على قواعد متماسكة متكاملة، يقول:

ـ «العمل بما دل عليه القرآن والسنة سواء كان ذلك مأخوذاً من النص، أم كان مأخوذاً من المفهوم الظاهر الذي لا تعسف في أخذه من النص ولا مخالفاً لنص آخر..

ـ العمل بما يؤخذ من النص بطريق الاستنباط الذي لا يعارض النص، فإن عارض الاستنباط النصَّ بحسب الظاهر وكان في المعنى موافقاً لمراد الشارع لم يمنع ذلك من العمل به، وذلك كإخراج زكاة الفطر بالمال، فإنه بحسب الظاهر معارض للنص، ولكنه في المعنى موافق لمراد الشارع من مشروعية زكاة الفطر..

ـ الوقوف مع النص في العقائد والعبادات، فلا نقول فيها بتأويل ولا بزيادة فيها ولا بنقص منها، لأنه لا داعي في العقائد والعبادة إلى التأويل، ولا إلى الزيادة فيها والنقص منها بالاستنباط والتعليل. أما

المعاملات فلا نرى مانعاً من العمل فيها بما تقتضيه المصلحة المناسبة للأحوال الوقتية بطريق الاجتهاد..

ـ البدعة في العقائد والعبادة كلها ضلالة موجبة للنار. أما البدعة في العادة وفي العبادة التي تشبه العادة فإن كان هناك نص يدل على تحريمها فهي حرام، وإن لم يكن هناك نص يدل على تحريمها، فإن دعت إليها ضرورة أو اقتضتها مصلحة لم نرَ مانعاً منها، وإن لم تدع إليها ضرورة ولم تقتضها مصلحة فلا حاجة بنا إليها..

ـ عدم المداهنة في الدعوة إلى السنّة، فنتظاهر بالسنة ونتجاهر بالدعوة إليها بقدر طاقتنا وبحسب استطاعتنا من غير مبالاة منا بطعن الطاعنين، ولا باعتراض المعترضين..

ـ محاربة ما عليه أهل هذا الوقت من الحكم بغير ما أنزل الله، واجتناب التعاون معهم على ذلك بطريق مباشر أو غير مباشر..

ـ محاربة ما عليه أهل هذا الوقت من الأخلاق الفرنجية والعادات الغربية والرجوع إلى ما كان عليه رسول الله ﷺ..»[1].

حقًّا..

من كان يرغب في النجاة فما له	غير اتباع المصطفى فيما أتَى
ذاك السبيل المستقيم وغيرُه	سُبُل الغواية والضلالة والردَى
فاتّبِع كتاب الله والسننَ التي	صحَّت فذاك إذا اتبعتَ هو الهدَى

وفي مسار هذه المنهجية الزمزمية طفرت مدرسة عنى بتربيتها وألقى عليها ظلال شخصيته الفذة.. مدرسة كان لها أثر بليغ في سلوك أتباعها.. مدرسة لا عهد للناس بها، هي فريدة بحيويتها المتوقدة، وبتحدياتها الصلبة.. مدرسة عبَّدت طريقاً انحدر فيه من انحدر، وتوقّف من توقف..

---

(١) «العلم النبوي» محمد الزمزمي بن الصديق ـ من تقديم نجله العلامة سيدي أبي ص١١.

مدرسة أحدثت هزة علمية، فأسالت حِبر الأقلام، وأشعلت فتيل المواجهات التي أتت بنقد عنيف شديد وبنقد النقد هيَّاج صاخب!. ويا ليت هذه المواجهات ظلت حبيسةً بين الأكفاء والأنداد، بين أعمدة اليقظة العلمية بطنجة وأساطينها!. ليتها ظلت بين هؤلاء العدلاء ولم يتطاول إليها عُنُق كل مغمور من مرتزقة العلم الذين يدعون معرفة وهم بها جاهلون.. ليتها لم يخض فيها كل فطير من أنصاف المتعلمين الذين علق الغرور بطبعهم وقد كانوا أَلسُناً خُرساً.. ليتها لم يتسلل إليها كل خامل من المدرسين الوعاظ الذين ما سكتوا عما لا يحسنون.. هؤلاء ما قدروا مدى المعضلات التي ولَّدوها وهم يمرغون في خَبْطهم ولَبْطهم حتى أن أحدهم تطلعت نفسه في تلهف ومكر إلى وراثة «القيادة الزمزمية» مع وجود أنجاله العلماء الأفاضل وله أقول: لقد أطمعت نفسك بالمحال[1]!. هم أناس مجاهرون ابتليت بهم ساحة العلم لما أناخوا بها وهي منهم براء!.

ودعني قارئي الكريم أسوق لك حادثة تبدي لك مرامي زُرَّاع السوء.. ذات مساء وشيخنا الإمام على كرسي الدرس يقرر في مسألة فقهية، ويبرز وجه الصواب فيها إذا بسائل ممن يرمون ولا يتأملون يقول له: «رأيك هذا، يا سيدي، مخالف لما يدعيه أخوك فلان الذي يقول فيه كذا وكذا!». فجاء ردّ الشيخ حاسماً قاصماً قاطعاً: «أخي أعلم من أن يسقط في مثل هذا الهراء الذي أبديته، فهذا قولك أنت لا قوله»!. ولربما رفرف في خلده هذا البيت:

إن يختلفْ ماءُ الوِصال فماؤنا   عَذْبٌ تَحَدَّر من غَمام واحدِ[2]

وهذا السائل - وأمثاله كُثْر - هو، كما ترى، ممن يستبيحون افتراء الأحاديث، ويثيرون العقابيل، وينشرونها ذات اليَمين وذات الشمال.. غفر الله لهم!.

---

(١) هو عجز بيت ثان من بيتين هما في «الغيث المسجم» للصفدي ج١٦/٢:

يغوص البحرَ مَن طلب اللآلي   ومَن رام العلى سهر الليالي
تروم العزَّ ثم تنام ليلاً   لقد أطمعت نفسك بالمحال

(٢) البيت لأبي تمام وفيه: أو يختلف، فتصرفت فيه للمقام.

نشب البلاء إذاً من هؤلاء «الدخلاء المرتزقة»، وتحركت النقمة، وتحولت هذه المساجلة العلمية التي طرقت مواضيع دقيقة[1] أغنت بأبحاثها ساحة المعرفة.. تحولت إلى تيار جارف من الخصومات والإحن!. وكم من مساتر ماكر أذكى أوار هذه المساجلات، فانقلبت أهاجي واتهامات، وأوغرت صدور أفراد يعيشون تحت سقف واحد! وكم من غافل غِرّ زُجَّ به في هذه الزوبعة، فانغمس فيها إلى شحمتي أذنيه، وتحير، ولم يدر كيف التخلص منها!.

وأهتبلها هنا فرصة يدعو إليها المقام لأقف وقفة تساؤل فأقول: لماذا لا يزال أقوام يتمادون في تجسيم الآثار السلبية فقط لهذه المعارك التي كادت تغوص في لُجج النسيان، وكاد يُعفِّيها توالي الأيام؟ لِم هذا الإصرار الممقوت على أن يجرجروا فروع سلبياتها ويحيوا جذورها؟. لِم يحركون رمادها وفرسان المعترك قد مضوا إلى عفو ربهم ورضوانه؟. فرسان كانوا يسعون - ولكل وجهة هو موليها - إلى تصحيح المفاهيم وتبيين المسالك التي خفيت على الناس.. فرسان تركوا لنا بنات أفكارهم التي تتلألأ علماً حيًّا مباركاً ثراً، وتفتح لنا فسحة الاطلاع على دررها وفوائدها والاستفادة منها.. لِم يروِّجون فحسب لجانبها السلبي - وما أضيقه - ولا يلتفتون ولو خِلسة إلى جوانبها الإيجابية - وما أوسع ميادينها وأرحبها -؟ لا شك في أن المواضيع العلمية التي تحركت داخل المعترك كثيرة، والفصل فيها يدعو إلى دراسة طويلة وبحث أطول تحليلاً وتمحيصاً وتدقيقاً.. بحث عميق محايد يلتمس نور الصواب من رحم تشاجرت فيه ضروب من الآراء وأفانين من النزعات التي تخطَّت في بعض الأحايين عتبة اللياقة ونعومة اللباقة، وعتت في غضب كاد يضيع فيه جوهر الصواب! ولكنه غضب اندفع من رؤية الحق للحق في مواطن الاجتهاد.. فليقلع هؤلاء القُدَّح عن نشر مخضَّبات المخارق، وليكفوا عن الجهالات، فما يجدي جهل الجاهلين في معترك العلم شيئاً!.

---

(١) أشرت إلى بعضها في ترجمة الشيخ سيدي عبدالله بن الصديق من هذا الكتاب.

حقاً.. كان شيخنا الإمام ـ وهذا ليس بخاف على معارفه ـ لا يُجِرُّ أحداً رَسَنَه، ولا يتوانى في نقده إذا ما زاغ عن الصواب ومال عن سبيله.. هو لا يهادن باطلاً، ولا يُمهله، ولا يتركه على هواه، بل يوجعه حتى يخبو.. ولا يُخفي حقيقة حتى تعلو.. وأقولها ملاحظة ملء فمي: إني ما أحسست يوماً وعلى مدى سنوات وأنا أَقُصُّ أثر نشاطه وإنتاجه أنه ركب مُغمَّضة أو معمَّماً، فصراحته صراحة قلّ مثيلها!. وحقاً أيضاً أنه ما سلم أحد مهما سما كعبه في العلم من هَنَات ولو هيِّنات! وهذه سنة الله في خلقه..

وماذا بعد؟.

لقد توجه شيخنا الإمام بمعية أتباعه ومريديه إلى الديار المقدسة في موسم الحج لسنة ١٣٨٤. وكانت لهذه الحجة دويّ ما زالت طرائفها تروى في مجالس الذكر والسمر. ولي في «وحي العيون» نثرات منها..

وأثقلت السنون كاهله، سنون ما فتر نشاطه خلالها تدريساً وخطابة ووعظاً وتصنيفاً. وقد سطرت يده ما يناهز مائة وستين مؤلفاً أَثْرت المكتبة الإسلامية، وأذكر منها[1]:

١ ـ المطبوعة:

ـ «تنبيه أولي البصائر على أن حلق اللحية من الكبائر» ـ مصر **١٣٥٣** ـ.

ـ «الانتصار لطريق الصوفية الأخيار» ـ مصر **١٣٥٥** ـ.

ـ «الإعلان بما أخبر به النبي ﷺ من أحوال هذا الزمان» ـ تطوان **١٣٥٦** ـ.

ـ «تحذير المسلمين من مذهب العصريين» ـ تطوان **١٣٥٧** ـ.

ـ «إعلام الفضلاء بأن الفقهاء المقلدة ليسوا من العلماء» ـ تطوان **١٣٦٤** ـ.

---

(١) هذه القائمة من مؤلفاته مقتبسة من كتاب «العلم النبوي»، وقد عرضت وفق تاريخ طبعها.

ـ «إتحاف الشرفاء بإبطال حديث التوسعة يوم عاشوراء» ـ طنجة ١٣٧٩ ـ.

ـ «الإهلال بدليل مراعاة اختلاف مطالع الأهلة في الأقطار» ـ طنجة ـ.

ـ «شرح لا إله إلا الله» ـ طنجة ١٣٧٩ و١٤٠٠ ـ.

ـ «تحذير المسلمين من المبتدعين الضالين الذين يكفرون المسلمين» ـ تطوان ١٣٨١ ـ.

ـ «تحذير المسلمين من الملاحدة المفسدين الذين ينكرون وجود رب العالمين» ـ تطوان ١٣٨٢ ـ.

ـ «كيف يصلي الموظف والخدام والمسافر والمعذور» ـ تطوان ١٣٨٢ ـ.

ـ «المعجزة القرآنية في الإخبار بالأقمار الصناعية» ـ تطوان ١٣٨٢ ـ.

ـ «صلاة السفر» ـ تطوان ١٣٨٦ ـ.

ـ «الحجة الواضحة على أن حالق اللحية ملعون وصلاته باطلة» ـ طنجة ١٣٨٦ و١٣٩٩ ـ.

ـ «القنبلة الذرية على الخطيب الذي يأمر الناس بحلق اللحية» ١٣٨٧.

ـ «الإسلام والتفرنج» ـ ١٣٨٧ ـ.

ـ «الخطب الزمزمية» ـ الجزء الأول ـ ١٣٨٧.

ـ «الدليل الفاصل على أن الصيام مع المشرق فاسد باطل» ـ تطوان ١٣٨٨ ـ.

ـ«البهائية كفار يحاربون الإسلام والمسلمين» ـ تطوان ١٣٨٩ ـ.

ـ «إعلام المسلمين بما في كلام التيجاني من الكذب الظاهر والكفر المبين» ـ طنجة ١٣٨٩ ـ.

ـ «الطوائف الموجودة في هذا الوقت» تطوان ١٣٩٠ (٢٠ طائفة) و١٤٠٤ (٣٦ طائفة).

ـ «الصلاة في الكنيف واجبة على الموظف في حكم الدين الحنيف» ـ

طنجة ١٣٩٠ ـ وقد طبع أيضاً تحت اسم: «رفع الحرج والتعنيف عن الموظف الذي يضطر إلى الصلاة في الكنيف».

ـ «فضيحة عبدالعزيز بن عبدالله وصفع والده على قفاه ببيان جهلهما وكذبهما فيما ادعياه» طنجة ١٣٩١.

ـ «كشف النقاب عن بهتان المتهور الكذاب» ـ طنجة ١٣٩١ ـ.

ـ «إنقاذ القارىء من جهله بتحذيره من أخذ الأجرة على إهداء ثواب القرآن لغيره» ـ تطوان ١٣٩١ ـ.

ـ «تغيير المنكر العظيم بتحذير المسافر من إتمام الصلاة خلف الإمام المقيم» ـ تطوان ١٣٩٢ ـ.

ـ «دلائل الإسلام» الجزء الأول ـ طنجة ١٣٩٢ ـ.

ـ «صلاة السفر ركعتان وإن ائتم المسافر بالمقيم» ـ ١٣٩٣ ـ.

ـ «عيوب الشيوعية وأخطاؤها» ـ تطوان ١٣٩٤ ـ.

ـ «معذرة المؤمنين إلى الله بإعلان إنكارهم على من يطعن في رسول الله» ـ تطوان ١٣٩٤ ـ.

ـ «كيف تؤدي فريضة الصلاة على وفق السنة» ـ ١٣٩٤ ـ.

ـ «المرأة العصرية وصفاتها المنفية للإسلام» ـ طنجة ١٣٩٥ ـ.

ـ «كيف تؤدي فريضة الصيام» ـ تطوان ١٣٩٥ ـ.

ـ «عقائد الإسلام» ـ تطوان ١٣٩٥ ـ.

ـ «مناظرة بين محمد الزمزمي وناصر الدين الألباني» ـ طنجة ١٣٩٦ ـ.

ـ «تحذير المسلمين من شيوخ المتصوفة المبتدعين» ـ طنجة ـ.

ـ «أحكام الذبح واللحم الذي يأتي من أرض النصارى» ـ طنجة ١٣٩٦ ـ.

ـ «موقف الإسلام من الأغنياء والفقراء» ـ طنجة ١٣٩٧ و١٤٠٠.

ـ «إمامة المبتدع والمتجاهر بالفسق وبيان حكمها» ـ طنجة ١٣٩٩ ـ.

ـ «المحجة البيضاء فيما يجب اعتقاده في المعية والاستواء» ـ الدار البيضاء ١٣٩٩ ـ.

ـ «البرهان على بطلان اعتراض المعترضين على الإسلام والقرآن»:

* «ضرر الثقافة الأوروبية على الإسلام» ١٤٠٠.

* «من خلق الله» ـ طنجة ـ.

* «جريان الشمس» ـ تطوان ١٤٠٢ ـ.

* «القضاء والقدر» ـ تطوان ـ.

ـ «عقائد الإيمان وفرائض الإسلام» ـ طنجة ١٤٠٢ ـ.

ـ «عيوب المسيحية» ـ تطوان ـ.

ـ «صلاة الجمعة ركعتان للمنفرد كالجماعة» ـ طنجة ـ.

ـ «كيف يكون غسل الميت» ـ طنجة ١٤٠٦ ـ.

ـ «لا إلٰه إلا الله» ـ الدار البيضاء ـ ١٤٠٦ ـ.

ـ «تحديد النسل» ـ (نشر في بعض الجرائد والمجلات).

ـ «ما يجب على الداخل في الإسلام أن يفعله» (ترجم إلى الإنكليزية وطبع في أمريكا في الكمبيوتر).

ـ «أخبار الثقلاء والمستثقلين» ـ الدار البيضاء ١٤٠٧ ـ.

ـ «دلائل رسالة النبي» ـ طنجة ١٤١٢ ـ.

ـ «هذا هو الإسلام» ـ طنجة ـ.

ـ «التفرق المذموم في القرآن الكريم» ـ طنجة ـ.

ـ «الزاوية وما فيها من البدع والأعمال المنكرة» ـ طنجة ١٤١٩ ـ.

ـ «العلم النبوي» ـ طنجة ١٤٢٠ ـ.

- «موقف أنصار السنة من المخالفين للسنة» - تطوان -.

- «إعلام المسلمين بوجوب مقاطعة المبتدعين والفجار والظالمين» - تطوان -.

٢ - المخطوطة:

- «تفسير القرآن الكريم» (من الفاتحة إلى الأنعام).
- «حِكم القرآن وأمثاله ووصاياه».
- «كشاف الأخدان عما في القرآن من الأخبار بأمور وقعت في هذا الزمان».
- «مخاطبات القرآن المفتتحة: يا أيها الذين آمنوا..».
- «القرآن وما أضاع الناس من شرائعه وأحكامه».
- «القرآن وما أرشد إليه من العلوم وأسبابه الرقي والحضارة والسعادة في الدنيا..» (لم يتم).
- «إرشاد القراء إلى إحسان التلاوة من جهة الأداء».
- «مقاصد القرآن».
- «الكلم الجوامع في اختصار شرح الدرر اللوامع».
- «حق الله على عباده».
- «كلمة التقوى».
- «دليل المؤمنين على وجود رب العالمين».
- «الدليل على وجود الله».
- «شرائع الإسلام وبيان ما حدث فيها من التبديل والضياع».
- «بيان ما يجب أن يدعو المسلم به إلى الإسلام».
- «البدعة والأعمال المنكرة».

- «الإعلام بأدلة مسائل كتاب: عقائد الإيمان وفرائض الإسلام».
- «موقف المستفتي العامي إذا اختلفت فتاوي المفتين».
- «إعلام عقلاء الرجال بما يكون كفراً من الأقوال والأعمال».
- «الأحاديث النبوية المتضمنة لأصول الحضارة الإسلامية».
- «تحذير العباد من علماء السوء الذين يردون الحق بالجدل والعناد».
- «دلائل الإسلام» (ثلاثة مجلدات).
- «المجتمع النبوي».
- «توضيح أصول الفقه» (المجلد الأول).
- «الجماعة وبيان الفرق الضالة في هذا الوقت».
- «قوة الإيمان».
- «الحقوق».
- «حقوق الزوجية».
- «رسالة نبي الإسلام وأدلتها العقلية».
- «أغلاط الجمهور».
- «أهل هذا الوقت وصفاتهم المنافية للإسلام».
- «موقف الإسلام من المتظاهرين بالإسلام».
- «الأعمال المانعة من قبول الصلاة».
- «طبقات المؤلفين الذين كانت تآليفهم معتمدة في التعليم عند المتقدمين».
- «ختمة التفسير».
- «النصيحة المرضية للطائفة الصوفية».
- «تنبيه المسلمين لبدع المتصوفة الجاهلين».

- «الفتح الرباني في الجواب عن فتوى الفقيه التجكاني».
- «تنبيه المغفلين إلى عدم صحة الصلاة وراء الملعونين».
- «القول الفصل في حكم تحديد النسل».
- «القول المستبين بجواز التأمين».
- «الفتوحات القدسية في بيان الأغلاط التي في بحث المعصية».
- «فتح العزيز الحميد ببيان بطلان ملاحظات الراضي اليزيد».
- «تحفة المتعبد بصحة ركعتين في ظهر يوم الجمعة من المنفرد».
- «البرهان المبين على أن المنفرد يصلي الجمعة ركعتين».
- «فضائل الإسلام» (لم يتم).
- «عيوب المجتمع المغربي» (لم يتم).
- «تنبيه الجهال إلى أن أخذ الأجرة على التعليم حلال».
- «إرشاد المُدَلَّهْ ببيان معنى قوله تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ﴾».
- «التحفة السنية ببيان الواجبات الدينية».
- «تحذير المؤمنين من التحاكم إلى قانون الأوروبيين».
- «إفادة المستفيد في جواب عن أسئلة عبدالحميد».
- «أفضل الأعمال وأسهلها».
- «الاتحاد في الصلاة والصيام خرافة وباطل».
- «إعلام المسلمين ببطلان صيام المستشرقين».
- «دفع الباس بالجواب عن الفتوى الواردة من الأخماس».
- «دواء المجنون الذي يحرم الراديو والتلفزيون».
- «الردّ المغلق على كتاب البيان المشرق».

- «أربعون حديثاً وشرحها».

- «تحفة الأحباب بجواز بيع كتب الدين لأهل الكتاب».

- «القولة المرضية في حكم الخميرة الرومية».

- «الإهلال بفضيلة أكل الحلال».

- «تحذير الإخوان من إتيان الكهان».

- «التذكير والإعلام بما ورد في الجاسوس والنمام».

- «خير الزاد في الجواب عن سؤال بو عياد».

- «أوضح المسالك إلى الأغلاط القبيحة الموجودة في كتاب: تبيين المدارك».

- «تحذير الأخيار من ترهات الدرقاوي المعثار الطاعن فيما صح من السنن والآثار في صلاة السفر».

- «الرجم بالحجر للكذاب الذي زعم أن النبي ﷺ أتم الصلاة في السفر».

- «إرشاد الحيران إلى نصاب الزكاة في الأوراق التي تجري بها المعاملة في هذا الزمان».

- «أربعون حديثاً في الأخلاق والمعاملة والسياسة والاقتصاد».

- «دليل السنّي المحبّ للنبيّ على الاحتفال بليلة المولد النبوي».

- «الفضيحة الكبرى والتحدي المقلق للذين يصومون بالحساب ورؤية المشرق».

- «الاستعانة بالواحد على من منع تعدد الجمعة في بلد واحد».

- «الدليل الصحيح المعتبر على أن صلاة الجمعة تصح بأقل من اثني عشر».

- «السنة: فسرها وبيان معناها».

- «الدلائل المبينات لما يجب في قذف الأمهات».
- «رفع الأستار عن أغلاط توجيه الأنظار».
- «الجواب المرضي عن سؤال أشرف زكي».
- «البرهان المبين على كفر من يسب الدين».
- «حكم التنويل في بيان حكم المخطىء في العقيدة بالتأويل».
- «بيان الغلط المحقق الواقع في فتوى الشيخ البريق».
- «العلماء المنافقون وأثرهم السيّىء على الإسلام والمسلمين».
- «القول المفيد في شرح حديث التجديد».
- «الفتح المبين في الصلاة على سيد المرسلين».
- «فتح العليم الماجد ببيان حكم اتخاذ القبور مساجد».
- «تحذير الطلبة والفقراء من الذبح على حجرة الحمومي عند الاستسقاء».
- «إرشاد السائل إلى جواب ما سأل عنه من المسائل».
- «تفريج الكرب ببيان أكل الحلال أساس القرب».
- «ارتقاء المعالي بالجواب عن سؤال الفقيه البقالي».
- «إبطال ما ادعاه المدعي في الرد على فتوى الكلاعي».
- «مفتاح الخيرات والمسرات في التهليل والتكبير وأنواع التسبيحات».
- «السر المكنون في الجواب عن أسئلة ابن عبدون».
- «الخطب الزمزمية» خمسة مجلدات (المجموع منها والمتفرقة).
- «الفتاوى».

وإطلالة عابرة على عناوين هذه المؤلفات ـ وجلها في أحجام متوسطة ـ تبدي لنا مميزات، منها:

(١) ـ أن الشيخ إذا ما ترسّخ رأيه في موضوع واحد معين، وتيقن من جدواه أدرج حججه وبراهينه في مؤلفات تتلاحق تعقيباً على تعقيب ورداً على ردّ، وكأنه يريد أن يلجم خصمه وألا يترك له قولاً.

ففي قضية الصوم والإفطار برؤية المشرق صنّف مثلاً:

ـ «الإهلال بدليل مراعاة اختلاف مطالع الأهلة في الأقطار».

ـ «الدليل الفاصل على أن الصيام مع المشرق فاسد باطل».

ـ «الاتحاد في الصلاة والصيام خرافة وباطل».

ـ «إعلام المسلمين ببطلان صيام المستشرقين».

ـ «رفع الأستار عن أغلاط توجيه الأنظار».

ـ «الفضيحة الكبرى والتحدي المقلق للذين يصومون بالحساب ورؤية المشرق».

وفي صلاة المسافر خلف الإمام المقيم أطنب في:

ـ «صلاة السفر».

ـ «تغيير المنكر العظيم بتحذير المسافر من إتمام الصلاة خلف الإمام المقيم».

ـ «صلاة السفر ركعتان وإن ائتم المسافر بالمقيم».

ـ «تحذير الأخيار من ترهات الدرقاوي المعثار الطاعن فيما صحّ من السنن والآثار في صلاة السفر».

ـ «الرجم بالحجر للكذاب الذي زعم أن النبيّ ﷺ أتم الصلاة في السفر».

وكتب في قضية حلق اللحية:

ـ «تنبيه أولي البصائر على أن حلق اللحية من الكبائر».

ـ «الحجة الواضحة على أن حالق اللحية ملعون وصلاته باطلة».

- «القنبلة الذرية على الخطيب الذي يأمر الناس بحلق اللحية».

- «كشف النقاب عن بهتان المتهور الكذاب».

- «تنبيه المغفلين إلى عدم صحة الصلاة وراء الملعونين».

وحرَّك قلمه في موضوع التصوف إيجاباً وسلباً فألف:

- «الانتصار لطريق الصوفية الأخيار».

- «تحذير المسلمين من شيوخ المتصوفة المبتدعين».

- «الزاوية وما فيها من البدع والأعمال المنكرة».

- «النصيحة المرضية للطائفة الصوفية».

- «تنبيه المسلمين لبدع المتصوفة الجاهلين».

- «إعلام المسلمين بما في كلام التيجاني من الكذب الظاهر والكفر المبين»[1].

- «فضيحة عبدالعزيز بن عبدالله وصفع والده على قفاه ببيان جهلهما وكذبهما فيما ادعياه».

وتطرق إلى صلاة الموظف خاصة فألف:

- «كيف يصلي الموظف والخدام والمسافر والمعذور».

- «الصلاة في الكنيف واجبة على الموظف في حكم الدين الحنيف».

وصنف في صلاة الجمعة مثلاً:

---

(١) أثار هذا الموضوع ردوداً طبعت في كتاب واحد أسماه: «ترهَّات الزمزمي» وهي:

* «إعلام المسلمين بالحجة والبرهان لنقض ما في كلام الزمزمي بن الصديق من الزور والبهتان» للعلامة الفقيه السيد عبدالواحد بن عبدالله.

* «تهافت الزمزمي واستهتاره بالشريعة الإسلامية» للأستاذ عبدالعزيز بن عبدالله.

* «محيي السنة» قصيدة للشاعر إدريس بن الحسن العلمي.

وله أيضاً قصيدة في الموضوع أسماها: «الإعلام بالزنديق الإمام».

ـ «صلاة الجمعة ركعتان للمنفرد كالجماعة».

ـ «تحفة المتعبد بصحة ركعتين في ظهر يوم الجمعة من المنفرد».

ـ «البرهان المبين على أن المنفرد يصلي الجمعة ركعتين».

ـ «الاستعانة بالواحد على من منع تعدد الجمعة في بلد واحد».

ـ «الدليل الصحيح المعتبر على أن صلاة الجمعة تصحّ بأقل من اثني عشر».

(٢) ـ ذكرُه في عناوينها أسماء من أجاب عن أسئلتهم أو رد على فتاواهم وهم ثمانية أشخاص، مثلاً:

ـ «ارتقاء المعالي بالجواب عن سؤال الفقيه البقالي».

ـ «السر المكنون في الجواب عن أسئلة ابن عبدون».

ـ «الفتح الرباني في الجواب عن فتوى الفقيه التجكاني».

وغيرها..

(٣) ـ اهتمامه بالمواضيع الطريفة التي تمس حياة المجتمع وهي تبدي روحه المرحة ونقداته الهادفة، منها:

ـ «أخبار الثقلاء والمستثقلين».

ـ «رواء المجنون الذي يحرم الراديو والتلفزيون».

ـ «القولة المرضية في حكم الخميرة الرومية».

ـ «تحذير الطلبة والفقراء من الذبح على حجرة الحمومي عند الاستسقاء».

(٤) ـ علاجه لمواضيع وقضايا شائكة تعاركت في المجتمع عبادات وأخلاقيات وغيرها..

هو إذاً نشاط متواصل وعمل دؤوب أثقلا كاهل الشيخ الإمام..

وتعب، وتواترت عليه العلل، وأدنفه المرض، ولزم البيت.. وذات مساء إذا بزائرين كريمين يباغتانه وهو طريح الفراش: هما شقيقاه سيدي عبدالله وسيدي عبدالحيّ.. ففاضت بينهم أحانين الأخوَّة ورقَّت فيهم أعطاف الرحم فذرفت لها العيون، وجالت أحاديثهم في ذكريات زمان هناك بالقاهرة، وعندما استأذناه في الانصراف ودّعهما قائلاً: إن شفاني الله ونَسَأَ في الأجل عُدتكما في بيتكما إن شاء الله!

ولكن المرض أنصبه، فثقل وبُطِن[1].. ولم تمض غير أسابيع معدودات حتى فارق الحياة، ولبَّى نداء ربه بعد ظهر يوم الجمعة ٢٨ ذي الحجة ١٤٠٨. وفي اليوم التالي شيعت جنازته، وصلي عليه في المسجد الأعظم، ثم نقل في حشد غفير وفي صمت رهيب إلى جامع «هدي الرسول» حيث مرقده.

رحمك الله، وأثابك ثواب الشهداء المتقين، وأسبغ عليك فيض رحمته ورضوانه.

والناس صنفان: هذا عاش لا أثر ... له وإن مات لم يذكر له خبرُ
وذاك أبقى له ذكراه خالدة ... ذكرى فِعال لها في قومه أثرُ[2]

طنجة في ١٥/١٠/٢٠٠٢

❋ ❋ ❋

---

(١) يقال: بُطِن الرجل أي إذا اشتكى بطنه، فهو مبطون. في حديث أن رسول الله ﷺ قال: **«الشهادة سبع سوى القتل في سبيل الله: المبطون شهيد، وصاحب الحريق شهيد، والغريق شهيد، وصاحب ذات الجنب شهيد، والمطعون شهيد، والذي يموت تحت الهدم شهيد، والمرأة تموت بجمع شهيد»** أخرجه ابن حبان وصححه.. وفي حديث آخر صححه وحسّنه الترمذي: **«من قتله بطنه لم يعذب في قبره»**. انظر «إتحاف النبلاء بفضل الشهادة وأنواع الشهداء» للعلامة الحافظ الشيخ سيدي عبدالله بن الصديق.

(٢) البيتان للشاعر عبدالله آل نوري في «مجمع الحكم والأمثال»: ١٥٧.

ملحوظة:

لما قرأ هذه الترجمة فضيلة العلامة الشيخ سيدي أُبَيّ بن محمد الزمزمي بن الصديق بعث إليّ بكلمة جاء فيها بعد الديباجة:

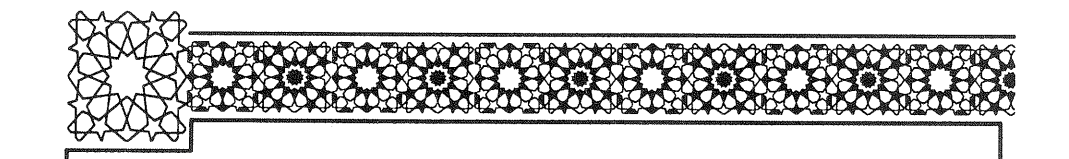
قرأت ما سطره يراعكم من ذكريات عن الوالد فوجدت كلامكم يدخل قلب قارئه بدون استئذان لأنه صادر من القلب.. والكلام الذي يخرج من القلب لا محل له إلا القلوب. لذا نرى كلامكم ينبض بالصدق، وتعبيركم يعرب عن الجد والإجلال، ويفصح عن الإخلاص وحسن الطوية.. سيدي: ما أراك لهؤلاء الناس «الصديقيون» إلا كما قال البوصيري: فإنهم بك سعداء!

أعانك الله، ووفقك، وأثابك على عملك.

فاتح ذي الحجة ١٤٢٤

أبي بن محمد الزمزمي





بسم الله الرحمن الرحيم

الشيخ عبدالحيّ بن الصديق
(١٣٣٥ ـ ١٤١٥/ ١٩١٦ ـ ١٩٩٥)

أجال فيه النظر، وتوسَّمه ثم قال له: يا لَكْنَوِيّ[1]، عقلك أكبر من جسمك!

تشبيه ووصْف ترسَّما في خلد الفتى منذ تلك اللحظة، وشغف بهما..

إنها فراسة والدٍ في ولده..

إنها كلمة «السيِّد» الإمام الكبير القدوة العارف الشيخ سيدي محمد بن الصديق ـ رضي الله عنه ـ في نجله العلامة المتقن الأصولي الإمام الشيخ سيدي عبدالحي بن الصديق..

كان أول اتصالي بشيخي أواخر سنة ١٩٥٦ حيث بدأت أدرس عليه

(١) عبدالحي اللكنوي الهندي (١٨٤٨ ـ ١٨٨٧) محدث أصولي فقيه حنفي، عالم بالتراجم. من كتبه: «الآثار المرفوعة في الأخبار الموضوعة» و «الرفع والتكميل في الجرح والتعديل» و «مجموعة الفتاوى» و «فرحة المدرسين بأسماء المؤلفات والمؤلفين».

«ألفية» ابن مالك بشرح المكودي، ثم تلتها فنون أخرى من فقه، وبلاغة، وأصول، وحديث، برَّدتُ بها أُوامي:

ونلتُ من صحبته مرامَا في العلم نحو أربعين عامَا

وتراني أقف الآن حائراً لا أتبين السبيل إلى كيفية إعداد ترجمة شيخي وأستاذي وسندي وأطيافٌ من لذيذ الذكريات تتلاحق في ذهني وتتزاحم في مخيِّلتي فأصغي إلى أصدائها وهي مني ذُكْرٌ أبَد الدهر!.

أأكتفي بذكر بعضها وأحيل القارىء الكريم إلى بعضها الآخر المتناثر هنا وهناك في كتبي[1] التي لم يُسعفها الحظ بعدُ لتنشر في دنيا الناس؟. أم أقتصر على ترجمة تكون على غرار شقيقاتها؟. ومهما أفعل فإنما أنا بَذرة من زرعه.. أجلْ، لازمته عقوداً أربعة، فكان طليعة عيني، وعُضادتي: بجَّلته وأحببته، وأنا ممن إذا أحبّ ففي إخلاص، وإذا مدح فبِوِدّ.. كيف وقد كنت أتصحَّب منه، وأتهيَّبه، ولا أماشيه إلا في استحياء؟. كيف وقد تعاظم في خلدي حتى أني لم أجد له ندًّا يضارعه، ولا قريناً يربو عليه، ولا عديلاً يدنو منه، وكدت أؤمن بأن كلام غيره أشجار وكلامه ثمار؟. ومن هنا حيرتي.. فإني أخشى أن يقعد بي التقصير، كما أخشى أن يمتد بي الإسراف إلى غاية المبالغة وهو رجل يتجافى عن الإطراء في شخصه.. وإن أسرفت فلن يفي إسرافي القليل من فضله عليّ، فكيف بالكثير من صنائعه التي تواترت عليّ طيلة أربعين سنة؟. وهل من فضل أعظم وصنيع أجمل من تلقين العلم؟. أجل.. أليس من الإنصاف أن أبرز مزايا رجل كان غزير المادة، مديد الباع، حجته غالبة تتنزَّى من طرف لسانه وسِنَّة يراعه؟. رجل تتلذذ بمجالسه النفوس التي ألفت أن ترى على وجهه الوضيء السموح تباشير الخير وروائد الصدق.. رجل تتشبع بمحاورته الأفهام - وفهمه ذو أذنين كما يقال - يعرف كيف يدنو من العقول والنفوس بتلطُّف، فيلامسها ويناجيها، وينفذ إليها من مَأْتاها، ثم يماريها في هدوء، ويباحثها في تُؤَدة

(١) منها: «من وحي العيون» و «على مرّ الأيام» و «رحلات» و «مع صاحبي»..

بغَور علمه ودقة منهجه، والدليل حاضر سديد، والبرهان ناصع وثيق.. رجل يأخذ بيدك ويسلك بك سبيلاً لا عوج فيه ولا أَمْت ليوصلك في رفق إلى عتبة الصواب بمحض إرادتك أنت، فتُقرّ به في إذعان، وتضرب له أطنابك.. رجل ينظر بعين عقله، يُرَوِّي ثم يَرْوِي، ويَخبِر ثم يُخبِر، فيهتدي برأيه كل من لم يَغرَّه السراب ولم يُغمض فيه.. كان يقول لي: «ليس ما جلَّ عنك وجَب أن يَبطل عليك، ولا ما دقّ عن فهمك وجب أن يُبَهْرجَه نقدُك!»[1]. ويقول: «لكل شيء مِحَكّ، ومحك العقل مجالسة العلماء»[2]. نصائح وحكم يتيمة دخلت قلبي دون استئذان، ونفذت إلى وعيي توًّا فمكثت فيهما.. ترى، كيف السبيل إلى أن أعدّ ترجمة أستاذي وشيخي مع يقيني أني لو أطلقت عنان قلمي فيها متقصياً أخباره وأحواله وذكرياتي معه لجئت بسفر حافل.. ولكن تصميم «الصديقون» يمانعني أن أُيمِّم هذا النهج وهو على حبل ذراعي، ويدعوني في إلحاح إلى الاقتضاب والاختصار، فالخير في أن آوي إلى نموذج شقيقاتها وقد علم السَّيْل دَرَجَه، والوثبة في الظرف الراهن على قدر الإمكان.. وسأقتصر على إبراز جوانب من مراحل حياته، وبيان منهجه وفكره وإنتاجه[3].

نَشأ في حجر العلم والعبادة والتصوف.. أرسله والده إلى كتَّاب الفقيه المعلم السيد محمد المصوري[4] الذي كان رجلاً جادًّا لا عذيرة عنده ـ رحمه الله ـ فقد قسا عليه ذات مرة دون جرم اقترفه، وشد عليه وطأته و «حَمَّلَه»[5]، فأسرَّها

---

(١) القول في «البصائر والذخائر» التوحيدي ج٩/٨٧.

(٢) القول في «ربيع الأبرار» الزمخشري ج٢/٣٠٠.

(٣) انظر في هذا الكتاب كلمتي التي ألقيتها في اليوم الدراسي الذي أعدته الجمعية المغربية لأساتذة التربية الإسلامية بطنجة عن فكر وتراث العالمين الجليلين سيدي عبدالحي وسيدي عبدالعزيز بن الصديق رحمهما الله.

(٤) عرفته في الستينات وأنا موظف بدار النيابة، وتلقيت به وتذاكرنا غير ما مرة. كان جسيماً فخماً طويلاً خفيف اللحية. تحيط به هيبة ووقار، ثقيل الوطأة يمشي وكأن الأرض تئن تحت قدميه. رحمه الله تعالى رحمة واسعة.

(٥) حمَّله، تَحْمِلَة، أي أن يأمر الفقيه المعلم كبير الطلبة فيطرح المعاقب ويرفعه بين يديه، فيضربه الفقيه بسوط على رجليه. ومن أنواع العقاب الشديد: الفَلَقَة.

في نفسه ولم يبدها لأحد، وتسرب الخبر إلى أحد صُدور فقراء الزاويّة، فذهب فوراً إلى الفقيه وعنّفه وكاد يقتصّ منه. ولما علم «السيد» بما حدث غضب على ذاك الفقير، ووبّخه، وحثه على أن يعتذر للفقيه، ويستسمحه، ونهاه ـ وجل الفقراء ـ أن يتعرضوا له بسوء أو أن يتدخلوا في شؤونه فعل ما فعل!.

ولما استظهر القرآن وأتقنه بدأ يتلقى العلوم بتوجيه من والده الإمام الذي اختار له نخبة من علماء فضلاء أجلّة هم:

ـ خاله الشريف الفقيه الزاهد سيدي أحمد بن عبدالحفيظ بن عجيبة، فقرأ عليه «الأجرومية» بشرح الكفراوي.

ـ العلامة الصوفي الخطيب المقدَّم السيد العربي بوعياد، فدرس عليه: «الأجرومية» بالأزهري، و «الألفية» بالمكودي، و «المرشد المعين» بميارة مختصراً، و «الرسالة» و «شمائل» الترمذي، و «العهود المحمدية» للشَّعْراني.

ـ العالم الفقيه السيّد عبدالرحمن الجزائري، فأخذ عنه الفقه والنحو والبلاغة والمنطق..

وكان «السيّد» الإمام مرجعه الأول فيما يستعصي عليه من مسائل علمية ذات أبعاد دقيقة، فيجد عنده البيان الشافي والشرح الكافي، ويدله على المصادر من أمهات الكتب، فيوغل فيها وحده بحثاً واستقراءً واستقصاءً وحفظاً. فتربّى فيه عقل طُلَّعة وثَّاب، وتكوَّن لديه فكر غوَّاص ولاَّد..

واهتبل فرصة وجود شقيقه الحافظ الإمام سيدي أحمد بطنجة فدرس عليه «النخبة» في مصطلح الحديث وأوائل «صحيح» البخاري.

وفي أواخر سنة ١٣٥٥، بعد وفاة والده بسنة ونيّف، سافر إلى مصر صحبة شقيقه الأصغر سيدي عبدالعزيز، ليكمل دراسته.. ودخل الأزهر وهو عالم إذ لم يمض في رحابها غير ثلاث سنين حتى جَرَّد قلمه، فنشرت له مجلة «الإسلام» الشهيرة مقالات في مواضيع شتى، منها تلك المناقشة مع الشيخ عبدالله محمد عبدالسيّد حول جواز الصلاة على الميت في

المسجد[١]، وعن تواتر لفظ حديث «**من كذب عليَّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار**» مع الأستاذ محمد زهران[٢].

ومن العلوم التي درسها بالأزهر:

- مصطلح الحديث: «ألفية» العراقي على شقيقه الشيخ سيدي عبدالله.

- الأصول: «جمع الجوامع» بشرح جلال الدين المحلي وحاشية العطار والبناني على شقيقه الشيخ سيدي عبدالله والشيخ الشربيني. «لب الأصول» لزكريا الأنصاري على الشيخ محمود إمام.

- الفقه: «المختصر» بالدردير على الشيخ العربي الدسوقي، والشيخ حسن مذكور، والشيخ محمد البرديسي.

- المنطق: «التهذيب» لسعد الدين التفتازاني بشرح الخبيصي و «السلم» بشرح الملوي على الشيخ عبدالسلام غنيم الضرير، و «التلخيص» على الشيخ يوسف النحاس.

- النحو: «الألفية» بشرح ابن عقيل وحاشية الخضري على الشيخ عبدالسلام غنيم.

ويَلذُّ لي هنا أن أروي لك - قارئي الكريم - نادرة كأنك تسمعها من شيخي الإمام، قال: « ..كنت وشقيقي سيدي عبدالعزيز ندرس «الألفية» بشرح ابن عقيل وحاشية الشيخ العلامة محمد الخضري على الشيخ غنيم في بيته، تعرف على والدي - رضي الله عنه - إثر زيارته مصر لحضور مؤتمر الخلافة سنة ١٩٢٦، فأعجب به وكان يثني عليه كثيراً. هذا الشيخ الضرير الفاضل الذي لا يفتر عن شرب الشاي والدخان، كان آية في النحو، ضليعاً، يدقق مسائله ويمحصها تمحيصاً.. وذات يوم تأخرنا عن وقت الدرس لأمر شغلنا عنه، ولما دخلنا عليه أنّبنا في رفق وخُلق وتربية، قال:

---

(١) «الإسلام» السنة ٨ عدد ١٣ و٢٢ عام ١٣٥٨.. كان مولاي الوالد رحمه الله ورضي عنه شغوفاً بهذه المجلة. وقد عثرت من بين كتبه على أعداد متفرقة منها.

(٢) «الإسلام» ع١٨.

«لا يجوز لطالب علم ـ والشريف أحرى ـ أن يتهاون بوقت الدرس وضبط المواعد!»[1]. فخجلنا.. ثم بدأنا في الدرس، وكنت السَّارد، وإذا بمسألة دقيقة حلّ مشكلتها الخضري في حاشيته وأطال في بيانها، ومررت أنا عليها مرّ الكرام لأني كنت قد هضمتها وقتلتها بحثاً، ولأننا كنا متعجلين في الانصراف. فالتفت إليّ الشيخ وقال لي: «يا شريف.. اعلم أن الشيخ الخضري قد تعرض لهذه المسألة وهي من لطائفه في التدقيق، أو ليس كذلك؟!». فأجبته: «عفواً..» وعدت أدراجي وسردتها بسرعة لكنه أفاض في بيانها لما وهبه الله من سعة الاطلاع.. أرأيت مدى قوة فطنة هذا العالم الضرير رحمه الله! لقد وعى حاشية الخضري وكأنها قد انطبعت على صفحة حافظته!».

ـ البلاغة: «الجوهر المكنون» للأخضري بشرح الدمنهوري على الشيخ غنيم.

ـ التوحيد: «جوهرة التوحيد» لبرهان الدين اللقاني بشرحه وحاشية الأمير على الشيخ غنيم.

ـ الفرائض: «الرحبية» بشرح الشنشَوْري على الشيخ غنيم.

ومال إلى الفقه وأصوله، وتوغّل في دراستهما أخذاً من هذا الشيخ وذاك ليميِّز بين المناهج والآراء، ويتعمق في الأصول والفروع، ويراجع المتون والنصوص والشروح والحواشي والتقريرات، مقارناً بين سقيمها وصحيحها.. فتفتَّقت فيه قريحة فائقة في البحث والتنقيب، وانقادت له براعة حاذقة في التحليل والنقد، ودرج لديه إدراك محيطٌ لمقاصد روح التشريع.. قريحة، براعة، إدراك: هي خصائص فياضة نبعت منها آراؤه التي بدت كالسهم يُصيب عين الصواب وغرَّة الهدف ونادراً ما يخطئهما!.

---

(١) ما رأيت قط أحداً أضبط لوقت المواعد من شيخي رحمه الله. إذا ما حدّد مع أحد ملتقى في وقت معين أتاه على تمام الدقيقة، بل ربما وجده في انتظاره دقائق قبل الموعد.

وبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية آوى هو وشقيقه سيدي عبدالعزيز للعودة إلى الوطن، فغادر القاهرة إلى طنجة سنة **١٩٤٦**..

وتزوج..

وجلس للتدريس في الزاوية، فتأثَّفه طلبة العلم - من الحضر والبدو - وتزاحموا على حلقاته حيث الفقه والنحو والبلاغة والأصول والمنطق، يرتوون من منهله الغريض السلسال وما ذاقوا أعذب منه!.

وذاع صيته، وتناهى إلى فقهاء المدينة وكبار طُلاَّب المعرفة أن لسيدي عبدالحي طريقة فريدة في التبليغ والتلقين.. طريقة مؤثرة جذابة.. هي منهجية فعالة تعززها غزارة المادة، وعزّة البرهان، وجرأة الرأي وسلامته.. وتعالموا أنه راسخ الوطأة في «علوم الآلة»، مديد السيل في قواعد الأصول التي يقارع فيها بآرائه وتجديداته جهابذة هذا الفن، واسعُ الاطلاع في فروع الفقه، جوّاب في آفاقها، غواص في مقاصدها، يصيب شاكلة دقائقها، فسارعوا إلى مجالسته والأخذ منه، فرأوا عالماً يحفظ العلم ويتقن فلسفته، وقد عهدوا أن يروا علماء يحفظون العلم ولا يتقنون فلسفته!.

وجاءت سنة **١٩٥٣** فعين مديراً للمعهد الديني(١) وكانت حلقات التدريس تتناثر في رحاب المسجد الأعظم على غرار جامع القرويين. فجدّد منهجَ التعليم، ونفخ فيه من روحه المتحررة من جمود التقليد وقيوده، وسطّر مراميه، وأسَّ قواعده، وخرج به من المألوف الرتيب، وأجلى عنه رخاوة السأم، وأثراه بمعلومات متجددة في سائر فنونه.. ودبّ النشاط في الطلبة وقد بعث هِمَمهم في التحصيل الجادّ، وقدح مواهبَهم، وأيقظ فيهم إرادة الأخذ بالأحكام الشرعية لا تقليداً، بل معرفة بحججها بياناً وتحليلاً وترجيحاً..

ومضى المعهد على هذا الدرب القويم سنتين كاملتين في هزَّة من نشاط لا يعرف مللاً.. وإذا بصولة السياسة الناقمة في قيادة الحزب الواحد

---

(١) كانت إدارة هذا المعهد وقتئذ بمبنى في طريق القاضي على مقربة من الجامع الكبير.

الحاكم بدغَلها وبهرجها وعجرفتها وانتقامها، وإذا بفريق الغيّ والغرور والتشفّي يقرر عزله وثلّةً من أجلّ العلماء المدرسين بالمعهد[1]. ونسي «القوم» ـ وهم وقتذاك يصولون ويجولون ـ أن كل اقتدار في الزمان له غِبّ! وكأني بالشيخ الإمام ـ وقد أبلغ بقرار الانفصال[2] ـ يتلو قوله عز وجل: ﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ..﴾ ويردّد مع المعري في تهانف:

يَسوسون الأمور بغير عقْل ... فينفُذ أمرُهم ويقال: ساسَهْ
فأُفٍّ من الحياة وأفّ لهم ... ومن زمنٍ رئاستُه خَساسَهْ

إي والله لقد قيل: لا عَزّ وَفْرُ باطلٍ ولو طلع من جبينه القَمر!.

وعاد الشيخ الإمام إلى التدريس بالزاوية، ولكن مع خواص طلبته وهم يعدون على أصابع الكفّ.. وهناك في الغرفة الأخيرة على ميمنة مدخل السَّطح درسنا عليه «الألفية» و «الرسالة» و «البلاغة» و «مفتاح الوصول» و «سبل السلام» ثم توالتها كتب أخرى في منزله «كالفقيه والمتفقه» و «صحيح البخاري» و «جامع العلوم والحكم»، فكان:

إذا عُرضت مسائلُنا لديه ... نراه لحلها حالاً تصدّى
فيُوضح رمزَها لفظاً ومعنًى ... ويكشف سرها قرباً وبُعدَا
إذا اختلف النحاة بحكم أمر ... وقدّم رأيه فيه تبدّى
وإن أفتى بخطّ أو لسان ... ففتواه الصحيحة لن تُردّا[3]

وفي سنة ١٩٦٤ قلعت الآجلة ما زرعته العاجلة إذ أعيد مكرماً إلى

---

(١) قرئت أسماء المعزولين على منبر المسجد الأعظم تنكيلاً بهم وهم حاضرون. والعجب أنه لم ينزل إلى الجامع في هذا اليوم المشؤوم وأن «ملقن الحزب» نسي ذكر اسمه!.

(٢) كان شيخنا شوري المنزع الحزبي، له علاقة ودية مع المستشار الأستاذ السيد أحمد بن سوده.

(٣) من قصيدة للخوري جرجس السكاف (ـ ١٢٩٢هـ) مدح بها الشيخ ناصيف اليازجي «أعيان القرن الثالث عشر» خليل مردم بك ص٢٤٣.

سدة التعليم بعد أن تقطع أمر «القوم» بينهم زُبراً، وغلب الحق عسف الطغيان وعصف به.. وعين أستاذاً بالمعهد الأصلي، فكلف بتدريس التفسير، والحديث ومصطلحه، والفقه وأصوله، والنحو والبلاغة.. فبرز وبرع وبهر.. وشهد شاهد من أهلها أن الشيخ سيدي عبدالحيّ كان قريع وحده، لا يُلفى قرينه، ولا يُدرك شأوه.. وحرص كعادته على بثّ معالم منهجه في الطلبة، فقد أذكى فيهم حرية الفكر مع الأخذ بثوابت الدلائل ومراعاتها نقلاً وعقلاً، ونفَّرهم من التقليد المتهور والجمود الممقوت، ورَبَّى فيهم ملكة البحث الرصين ونماها بإرشاداته وبياناته، وخلق فيهم القدرة على التحليل والتمييز والترجيح، وشَحَن وعيهم لإدراك مسالك الصواب التي يجب أن تواكب ما تمليه القرائن المقنعة لأن الحصاة ينبوع العلم.

وأقحم المعهد في مسار التعليم المختلط الذي ما لبث أن رافقته ميوعة الأخلاق، ولصقت به خِسَّة السلوك وسفالة الرذائل!. وضاق ذرع الشيخ بهذا الاختلاط، وقلق وضجر، وأحسّ كأنه خرَّم شِيَمه وشرفه، وكيف لا يجيش وهو يتنظف عن الدنايا، وكيف لا يرتهنه الاضطراب ونفسه موصولة الأواصر بالمروءة والحياء؟. وكم سارَّني بما يختلج في صدره من مرارة وهو يرى كل يوم كيف يُستخفُّ بحرمة الدين في معهد الدين!. وأُصبِّره وأذكّره بما يسدي من فضل على طلبته وهو ينشر فيهم علمه النافع الغزير، وبأن صموده في المعهد صمود الجهاد الأكبر.. وكنت مع ذلك أترقب منه موقفاً حاسماً لأنه رقيق الشعور، ذو همة شماء أبية تأنف من النقيصة وتتقي الشَّيْن.. وبينما هو يتعارك نفسياً مع هذا المحيط التعليمي المهين عرض عليه التدريس في كلية أصول الدين بتطوان فرفض.. ثم راودوه على أن يلتحق بكلية الآداب بالرباط ـ شعبة الدراسات الإسلامية ـ فأبى، لأن الوضع واحد: اختلاط وتهتُّر.. وذات مساء بينما أنا أماشيه وقد أحسست كأنه قام على رجل التفت إليّ وأطلعني طِلْع أمره قائلاً: «عزمت على طلب إحالتي على التقاعد النسبي، فلا بُقْيا للحميّة بعد الحرائم!».. فاستفسرته فقال: «قبل الأمس دخلت قاعة الدرس في حصة التفسير، وإذا بطالبة كاسية عارية، فخجلتُ من نفسي وقلت: ترى، أين حرمة الدين والحالة ما نرى؟

أفي أمثال هذه الطالبة - وهنّ كُثر - تؤثر أخلاق القرآن وأحكام الشرع؟ أأكون شريكاً في تعليم جيل يتخذ دين الله هُزؤاً؟. فنهرتها وأخرجتها من القسم وقد أنغضت رأسَها إلى رفقائها.. ثم آليت ألا أعود إلى المعهد أبداً».

وانقطع عن التدريس الرسمي لكنه ظل يلقن في بيته خاصة خواصّ طلبته المقربين إليه دروساً في فقه السنة والأصول. وتفرغ للتأليف وتنقيح كتبه، فكان من ثمار علمه المؤلفات الآتية:

١ - المطبوعة[١]:

- «الحجة الدامغة على بطلان دعوى أن حالق اللحية ملعون وصلاته باطلة» (١٩٦٦ - ١٩٦٦) - تطوان - طبعه باسم مستعار: عبدالله بن عبدالرحمن المغربي.

- «تبيين المدارك لرجحان سنية تحية المسجد وقت خطبة الجمعة في مذهب مالك» (١٩٥٨ - ١٩٦٨) - تطوان -.

- «التيمم في الكتاب والسنة» (١٩٦٩ - ١٩٧٠) - **تطوان** -.

- «أريج الآس في إبطال فتوى عالم فاس» (؟ - ١٩٧٠) - تطوان -.

- «بَذْل الماعون في مسألة أماوون» (١٩٧٧ - ١٩٧٨) - طنجة -.

- «الإهلال بجواب السؤال عن حكم أغلال» (١٩٨٠ - ١٩٨٢) - طنجة -.

- «حكم الدخان وطابة والصلاة وراء متعاطيهما» (١٩٧٦ - ١٩٨٥) - القاهرة -.

- «حكم اللحم المستورد من أوروبا».. (١٩٨٥، ١٩٨٦ - ١٩٩٤) - طنجة -.

---

(١) يشير التاريخ الأول إلى سنة الفراغ من تأليف الكتاب، والثاني إلى سنة طبعته الأولى، والثالث إلى طبعته الثانية.

ـ «نقد مقال في مسائل من علم الحديث والفقه وأصوله وتفضيل بعض المذاهب»[1] (١٩٨٨ ـ ١٩٨٨) ـ طنجة ـ.

ـ «إقامة الحجة على عدم إحاطة أحد من الأئمة الأربعة بالسنة» (١٩٥٦ ـ ١٩٨٨) ـ طنجة ـ.

ـ «مؤلف كتاب أصول التشريع الإسلامي يبطل العمل بحديث رسول الله ﷺ» (١٩٨٩ ـ ١٩٨٩).

ـ ««رخصة الطهارة والصلاة وتشديدات الفقهاء» (١٩٩٢ ـ ١٩٩٢) ـ طنجة ـ.

٢ ـ المخطوطة:

ـ «المجتبى: في التفسير والحديث والفقه ونقد الأقوال المخالفة للدليل»[2].

ـ «الإقناع باعتبار خلاف داود في الإجماع».

ـ «الدلائل القطعية على الأخطاء الشنيعة الواقعة في القنبلة الذرية» أو «الصفحات الفاضحة المخزية لصاحب القنبلة الذرية»[3].

ـ «الأدلة القوية الجلية على أن عمل فاس وغيره ليس من الأصول التشريعية».

ـ «حكم الخضاب بالسواد».

ـ «الإعلام بما خالف فيه أحد الأئمة الأربعة السنة الصحيحة من الأحكام».

---

(١) هو نقد مقال للعلامة الأستاذ الكبير سيدي عبدالله كنون صدر في مجلة «العربي» عدد ١٥٢ ـ جمادى الأولى ١٣٩١ ـ يوليوز ١٩٧١.

(٢) عندي نسخة مصورة لجزئه الأول المسودة منه والمنقحة (١٩٨٤).

(٣) عندي نسخة منه (١٩٦٩).

ـ «تنبيه الباحثين على خطأ قول الإمام مالك أن عليًا ـ عليه السلام ـ لم يكن من الخلفاء الراشدين»[1].

ـ «الجواب المداوي لسؤال السلاوي».

ـ «مفتاح الذريعة في وجوب الاقتصاص من الذكر للأنثى في الشريعة».

ـ «ثبوت الأجر ببيان حكم صلاة الوتر بعد طلوع الفجر».

ـ «إتحاف الطلاب الأماجد بأدلة جواز الصلاة على الأموات في المساجد».

ـ «المرأة والقضاء»[2].

ـ «الفتاوى الفقهية»[3].

ـ «تفسير الآيات المقررة في السنة السادسة والسابعة بالمعاهد الدينية».

ـ «تفسير الأحاديث النبوية المقررة في السنة السادسة والسابعة بالمعاهد الدينية».

وإشارة سريعة تجدر في معرض كتابته إلى ما يلي:

١ ـ إنه لا يقرأ ولا يكتب ليلاً، فإن فعل ـ كما قال لي ـ امتنعت عليه الراحة ولمّ عليه الليل وكأنه ساعة سوءاء!.

٢ ـ كان بطيء الكتابة كأنه ينحت الحروف نحتاً.

٣ ـ جل كتبه متوسطة الحجم ونادراً ما تتعدى مائة صفحة أو تضاعفها

---

(١) فيه رد مختصر على كون الإمام مالك ـ رضي الله عنه ـ ينكر أن يكون سيدنا علياً ـ عليه السلام ـ من الخلفاء الراشدين.

(٢) أخبرني صهره أنه ضاع. وقد سرد عليّ شيخي رحمه الله ملزمات منه. وهو كتاب جمع بين النبع والقتاد.

(٣) بعض هذه الفتاوى ألقاها بصوته من إذاعة طنجة بإشراف صديقنا الأستاذ أحمد الريفي رحمه الله.

إذ لديه اقتناع بأن المؤلفات الطوال مسئمة غالباً ما يدبّ إلى القارىء منها الملل.

٤ ـ إذا ما عاد القارئ إلى كتبه يراجعها اكتشف مطاوي وخبايا لم يتفطن لها في قراءته الأولى وخاصة في قواعد أصول الفقه ومقاصدها، فيعجب من حِذْق خاطره وقوة جدله.

٥ ـ إن تحرره من ربقة التمذهب المتزمت تمثله ردوده على:

ـ المالكية في: «أريج الآس» و «حكم اللحم المستورد» و «نقد مقال» و «تبيين المدارك» و «التيمم» و «بدل الماعون» و «الرخص» و «الأدلة القوية» و «تنبيه الباحثين» و «الجواب المداوي» و «ثبوت الأجر» و «المرأة والقضاء» وغيرها.

ـ الحنفية في: «مؤلف كتاب أصول التشريع..» و «إتحاف الطلاّب» و «الإهلال».. وغيرها.

ـ الشافعية في: «التيمم» و «الإهلال» و «حكم الدخان» و «الرخص» وغيرها.

ـ الظاهرية في: «الإهلال» صحيفة ٤٨ فما بعد.

٦ ـ تعد كتبه نماذج تطبيقية محركة لقواعد أصول الفقه.

٧ ـ تزخر كتبه باستنباطات وتجديدات صائبة في الفروع الفقهية.

٨ ـ إذا ما حرّر مسألة يقلب وجوه آراء العلماء فيها ويهضمها تحرياً للصواب وتجنباً لعثرات التعجل، ويُنْعم النظر ويطيل الفكر، وإذ ذاك فقط يرسم خطته ويكتب، وكتابته متمهلة متأنية، فترى الحجج تتناصى أمامك، والأدلة تتلاحق وتتراسى على قواعد علمية متينة تفضي إلى الإفلاج على الخصم، ولا ترى فيها أبداً مُبْرَماً اختلط بسميل[1]!.

---

(١) المبرم: الذي أحكم فتله، والسَّميل: ضده.

وقد تأتي بعض عباراته وفيها شدة وتحامل، وذلك لأنه كان يغضب للحق. وهنا أقف لحظة لأسجل أني كنت أطبع على الساحبة رسائلهُ ـ وهي فتاوى ـ وأعنونها بموافقته. ولما تمّ طبع «الجواب المداوي» فاجأني سفر في مهمة إدارية. وبعد رجوعي وجدت على مكتبي رسالة بعثها إليّ، ومما جاء فيها:

« . .سألت عنك في التليفون فقيل إنك خرجت، وكان الغرض من السؤال عنك هو تنبيهك ـ أولاً ـ على عدم إرسال «الجواب المداوي» إلى صاحبك العراقي حتى أصلح بعض العبارات الواردة فيه، والذي لا يليق بقاؤها لما فيها من المسِّ الواضح بمقام الإمام مالك لأني لما كتبت الجواب كنت متأثراً بكلامه المشين في حق الإمام عليّ ـ عليه السلام ـ، لهذا صدر مني ذلك النقد اللاذع حتى نبهني سيدي عبدالعزيز أنه ينبغي إصلاح تلك العبارات بما يتفق ومقام الإمام مالك في نظر الناس. فإصلاحها إنما هو مراعاة لهم، أما من جهتي فإني ما زلت على رأيي فيه لأن كلامه فيه رائحة قوية تزكم الأنوف من النَّصب والحطّ الواضح من قدر الإمام سيدنا عليّ ـ عليه السلام ـ. وسأقر «الجواب المداوي» وأصلح ما يحتاج إلى إصلاح، وأرسله إليك لتصلح نسختك، ثم أرسل نسخة منها إلى صديقك العراقي. . ثانياً: لا تنس. . . ».

في هذه اللفتة إشارة واضحة إلى أن لسانه صورة لصدقه ورسوخ وعيه، وأنه للحق نصير، يعتصم بحبله، ولا يلوي عنه زمامه مهما يقال!. ومن سعد بقراءة كتبه ـ وهي جواهر ـ لأنبهر من حسِّه الدقيق، ومن بصيرته اللَّمّاحة، ولأنساق مع أسلوبه الذي لا صناعة فيه، ولا تطريّة، ولا صقل، بل رصانة مكينة في سلاسة أنيقة تأتي كلماتها دون أن تضيق عليها المعاني وكأنها رُصِفت بميزان لا خلل فيه وهي تطابق مقتضى حال الخطاب. . أسلوبه لا يحرك لفائف القلوب، وإنما يخاطب العقل ويناجيه ويهزه هزًّا لأنه يريد أن يُمتِّعه أكثر مما يمتع النفس، يريد ـ وهذا من أبرز مقاصد منهجه وأهدافه ـ أن ينشُل من الأفهام تلك الأوهام البائدة السائدة التي أملاها التقليد والجمود والمكابرة والتعصب للمذهبية. . وحرصاً مني على الاستفادة من

منهجه هذا القويم كنت - إذا ماشيته وحدي - أسعى متعمداً إلى مساءلته في قضايا علمية دقيقة كنت أُعدها مقدماً قبل أن نلتقي، فيتبسَّط إليَّ ببيانات لا يرقى إليها إلا أفذاذ العلماء. فسماعك قارئي الكريم إلى هذه الفقرة من مقال طويل كتبته زهاء اثنتين وثلاثين سنة[١]، قلت:

« . .فاتني قيد هذه الدُّرَر وأنا اليوم أحنّ إليها في حسرة وندم، لكن الخير أمام، فنفسي الطموح تلحّ على أستاذي في لباقة وأدب ألا تنقطع هذه الجلسات رغم ضغط الانْشغالات وأوازم الدهر التي تبدّد مراراً أقوى الرغبات وأشد العزائم. . ألح عليه في أن نحرص على مثل هذه اللقاءات الثنائية أينما اتفق ولو عند «الخانز»[٢]!. وكنت أدفع إلى هذا الإلحاح دفعاً وإن فيه شيء من «غلظة»، لكنها غلظة تطويها شخصية أستاذي الإمام في كثير من الرفق، وكثير أيضاً من التسامح والتَّرحاب، غلظة تلميذ وسماحة أستاذ!. ويتلألأ هذا الرفق في فناء خصلة من حميد خصاله التي ميزته عن كثير ممن عرفت من علماء أجلهم وأوقرهم. . هي أنه يدعوك إلى بسط رأيك في مسألة ما دون خجل أو خشية أو تردد. . فتراه ينزل - زاده الله رفعة - إلى مستواك، ويتبسَّط، ويدنو من عقلك دُنوًّا هادئاً فيه رَخَمَة، ويسايرك في رأيك حتى إذا ما سوّلت لك نفسك أنك تلاحقه معرفة وتقاربه علماً، بل قد يخامرك الظن أنك تكاد تفوقه درجة وتُشرف عليه من أعلى، إذاك - وإذاك فقط - تراه يوازيك في درجتك تلك التي خِلتَ متوهماً أنك انفردت بها، ويحاورك على عتبتها، وفي حواره رفقه المعتاد، ويجادلك ويقارعك بالحجج في أناة وريث، ثم يمد إليك يده فيرتقي بك درجة أخرى لم تكن لتطأها وحدك ولو أجهدت نفسك وأتعبت عقلك وأوهيت فهمك، ثم يصعد بك درجة ثالثة

(١) كتبته يوم الثلاثاء ٦ أبريل ١٩٧١ ضمن مقالات جمعتها في كتابي «على مرّ الأيام».

(٢) «الخانز» بالعامية وهو الوسخ القذر، وللكلمة أصل من الفصحى. تقول: خنِز: فسد ونتن وكان هذا «الخانز» صاحب مقهى بالشاطىء، قليل العناية بالنظافة لكنه ماهر في إعداد الشاي المنعنع. وكان شيخنا يتقزز منه ولكن مهارته في صنع الشاي تغطي وساخته!.

فرابعة فخامسة، فيتعالى عليك ويتباعد، حتى إذا ما أرهقك العجز في أن تلاحقه، وأضناك العياء، وتسرَّب إليك الضعف، وأحسست بفتور يبدِّد قواك في مدارج الصعود حيث هو، اكتفيت بأن تنظر إليه وأنت في ذهول، وهو يسمو ويسمو في بياناته بدقيق تفاصيله وجليل تفاريقه، وسموه يبهرك، ويأخذ بلبك، وأنت عاجز العجز كله أن تشرف على هذه الذروة وإن منَّيت نفسك بالوصول إليها.. وحين يغلق عليك الفهم، ويكدّ غَم عقلك إذا به ينزل إلى مستواك نزول السَّقْر هادئاً ساكناً!. والعجب العجاب أن هذا الإحساس يتجدد كلما تجددت لقاءاتنا..».

وأخرى أريد ألا تفوتني وهي أنه كان يلقي عليّ أسئلة مكتوبة بخط يده - ما زلتُ أحتفظ ببعضها - يختبر بها مدى معلوماتي، وقدرة استنباطي للجواب الصائب، وفهمي لجلائل المسائل ودقائقها خاصة في علم أصول الفقه، ويكشف من خلالها هل أنا ممن يتطاولون على العلم وهم لا يملكون قواعده وأداته!.

كنا ذات مساء بقاعة «بورط»[1] فحدثني عن مُحَام مصريّ قبطيّ يكنى أبو حنيفة، وكان مِفَنًّا مِعَنًّا، إذا ما دهمه خصمه بحجَة قارعة يجيبه في ثبات: يقول أبو حنيفة.. ويأتي بالنص الذي يقنع القاضي الحنفي فيُذعن لقول إمامه ويحكم لصالح القبطيّ! وما تفطن أحد إلى أن هذا المحامي إنما كان يكنّي عن نفسه، وأن النص من كلامه هو، ولا علاقة للإمام به!. ورافع يوماً في محكمة شرعية واحتج على قاضي المسلمين بآية قرآنية ليصرفه عن قناعته بأدلة الخصم، فسأله القاضي: «هل تؤمن بالقرآن؟» فلم يجد المحامي سبيلاً غير الإنكار الجازم خشية إخوانه الأقباط. فقال له القاضي على الفور: «إذاً، كيف تحتجّ عليّ بما أنت به كافر؟» فسقط في يد هذا المحامي الماكر!.

وبعدما حدثني بهذه الطريقة أخذ قلماً وخط على ورقة جملاً وقال

---

(١) هي قاعة شاي شهيرة بمدينة طنجة أمام إدارة المحافظة، وهي للفرنسي Porte.

لي: «جواب هذا القاضي الفطن يبدو لك جلياً فيما سطرت هنا» وقدم لي الورقة وفيها:

الشافعي	الحنفي
يقول: إن نية النفل تكفي في حجة الفريضة	لا يقول بذلك
يقول: إن نية النفل لا تكفي عن صوم الفريضة	يقول: إن نية النفل تكفي عن صوم الفريضة

ثم قال لي: حاول أن تحرر هذه المسألة مع بيان الأدلة وأَرِنِيْهَا في لقائنا المقبل إن شاء الله. إنه اختبار لاستعدادي في حاسة البيان الفقهي والأصولي..

وبعد،

فإن لشيخنا الإمام - كما أسلفت - منهجاً «صدِّيقيًّا» بثَّه في خواص تلامذته، وأفرغه في مؤلفاته، فقد كان:

١ - يلتمس الأدلة من الكتاب والسنة والإجماع والقياس.

٢ - لا يطلق الحكم إلا مظفَّراً بعزِّ الحجة البينة الملزمة.

٣ - يتمسك بالنص الدال، ويجانب كثرة النقول، فالاختصار المفهم عنده أجدى وأبلغ.

٤ - يقنع بأسلوبه الواضح الحيّ المتزن في ترسل حرّ وبقواطع براهينه ما يبعث في عقل القارىء ونفسه اطمئناناً وارتياحاً.

٥ - يزيل ما علق بقضايا فقهية من ذرائع الضلال والتِواء الشوائب التي أَضَرَّتْ بحيويته وطواعيته ومرونته.

٦ - يتنزه عن التعصب المذهبي والسير وراءه على العمياء لأنه يعوق الفقه الإسلامي عن النفع الجزيل وعن التطور الذي له أحكام مقررة يبينها العلم عند الحاجة.

٧ - ينبذ التقليد البليد والجحود المتزمت وهما من الآفات التي تنذر بالاستكانة والفناء.

٨ ـ يتمرد على قدسية أحكام المذاهب فيما يخالف صريح النصوص القاطعة بالحق.

٩ ـ يبعث روح التجديد في النص التشريعي ليواكب حياة العصر في قضاياها ومستجداتها. ولا تحسبنَّ التجديد عنده أن تُضاف ملحقاتٌ إلى ما أتى به العلماء الأقدمون فحسب، بل أن يبدع فيما قصّروا فيه، أو غفلوا عنه أو سهوا، ويُضفِيَ على هذا الإبداع المتجدد ثوب الابتكار.

١٠ ـ يجتهد في إحياء مدرسة السلف الصالح التي ترشد إلى المنهجية الصحيحة في النقد، وذلك على مسار استقلالية الفكر والبحث بموضوعية وإنصاف وتحرٍّ للحق بعقل راجح، مع الأخذ بالقواعد وتطبيقها تطبيقاً سليماً لا تمحُّل فيه ولا مواربة.

وعلى هذا الدرب سار، وإلى معالمه أرشد في دروسه ومجالسه وكتاباته.. هو بحق صَدْر صَوّال الفكر، متحرر جوَّال، مبدع في اجتهاداته..

أجازه فحول العلماء، ونوهوا به، وأطنبوا في تقريض كتبه وزكوها.. وإليك قارئي الكريم هذه الواقعة:

« ..كنا ضيوفاً على المحب السيّد العلمي: الشيخان سيدي عبدالحي، وسيدي عبدالعزيز، والسيد أحمد بوعياءُ، ورابع نسيته.. وما أن انتهينا من تناول العشاء حتى دخل علينا ـ بعد استئذان من صاحب المنزل لشيخينا ـ ثلاثة نفر تبدو عليهم سيمة العلم والوقار.. سلموا في تؤدة وجلسوا، وشاركونا شرب الشاي.. وأثيرت نازلة.. فألقى أحدهم بدلوه فيها بجزالة، وتابعه آخر وسانده، ونزع منزعه في سداد. وتدخل شيخنا سيدي عبدالعزيز وأطنب وأطرب، واحتدم النقاش وشيخنا سيدي عبدالحي ساكت، يسمع ويوازن، وإذا به يقتحم المعترك، ويفكّ شعاب النازلة، ويعللها، ويمحصها، ويجريها تحت مجهر القواعد المعتبرة التي تأصَّلت في صلب الموضوع، واستقرَّت، وأفضت آخر المطاف إلى فيصل القول الذي باركه الجميع.. وتعاقبت أحاديث شيقة لوذعية امتدَّت بنا مع امتداد الليل

في سمر كانت جولات العلم ونكتُه شَذْرَه وشَذْوَه.. ولما تهيؤوا للانصراف أشار إلي أحدهم ـ وكان ألمعهم وأطولهم باعاً ـ بأن الشيخ سيدي عبدالحي إمام من أرباب الاجتهاد.. فهذه شهادة عالم من أنبغ علماء المغرب، هو فضيلة العلامة الأستاذ الجليل السيّد حسن الزهراوي رحمه الله..»[1].

وعاش شيخنا الإمام حياته في هدوء وتريث محاولاً قدر المستطاع ألا يعكر صفاءَها همّ ولا كدر، متجنباً صراع الأهواء والأباطيل، متزناً في حذر.. عاشها مستأنساً بخواصه في طيب معاشرة، وصدق صحبة، وجميل مُساهاة، وسماحة سجيّة.. تلقينا عليه دروساً فكان خير شيخ.. وسافرنا معه فكان قرة العيون وخاصّة الودّ.. وجالسناه في نُزَهٍ فانشرحنا فيها، واستطبنا منها مُلَح النكت العلمية وطرائف الفكاهات.. كان بحق زهرة الإمتاع وريحانة المؤانسة.. كان أنيقاً في ملبسه وفي مأكله، يتقزز من أدنى نكتة أو لطخة، وضيء الطلعة، طَرِيراً، مُقَذَّذاً، ممتلئاً، مديد القامة.. قد تراه في بعض الأحايين ممعوراً ثائراً معاتباً، لكن سرعان ما تهمد فورته، وتلين عريكته، ويعود إلى أَناتِه ورقته.. كان فيه حياء، وتقوى، وحلم، وكرم ـ أجل:

وليس بمنسوبٍ إلى العلم والنُّهى	فتًى لا تُرى فيه خلائقُ أربعُ
فواحدةٌ: تقوى الإلٰه التي بها	يُنال جَسيم الخير والفضلُ أجمعُ
وثانية: صِدق الحياء فإنه	طِباع عليه ذو المروءة يُطبَعُ
وثالثة: حِلم إذا الجهل أطلعت	إليه خَبايا من فجورٍ تَسَرَّعُ
ورابعة: جُود بمِلك يمينه	إذا نابه الحق الذي ليس يُدفعُ

أقول والأسى ملء قلبي: إني لن أنسى تلك الليلة التي صادفته فيها داخل سيارة ابن أخته وأنا خارج من مسجد بْرِيْش[2] بعد أداء صلاة

---

(١) ترجمته في «إسعاف الإخوان..» ص٩٦.

(٢) مدشر على طريق مدينة أصيلة قرب وادي تاهَدَّرت على بعد ثلاثين كيلومتراً من طنجة.

المغرب، رابتني حالته لما سلمت عليه وقبلت رأسه كعادتي.. فطمأنني بأنه بخير.. وعدته في منزله غير ما مرة فلم ترتح نفسي إلى أعقاب علته.. وإذا به يدخل مصحة الهلال الأحمر، وأجرى له الدكتور إدريس مساعف عملية على الرأس.. وبعد أيام معدودات استأثرت به رحمة الله مع آذان فجر يوم ١٠ يناير **١٩٩٥**.. صلي عليه بالمسجد الأعظم في حشد رهيب، ودفن بالزاوية الصديقية داخل الضريح بجوار والديه المنعمين..

رحمك الله، وأفاض عليك سجال غفرانه ورضوانه، ونفع بعلمك، وجعل له في عالم المعرفة بقاء.. إي سيدي:

كنتَ لي شيخاً عظيماً عَلَما ... لن أرى منك سواك عوضَا

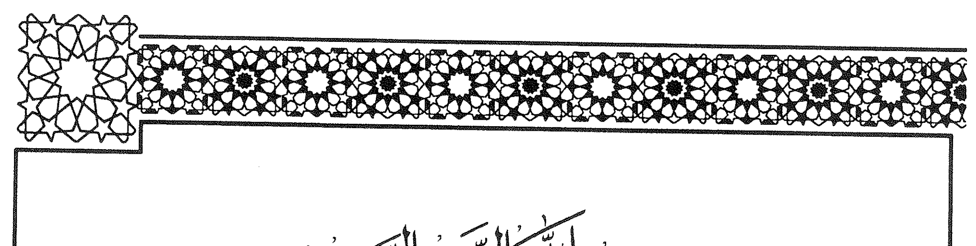
يا دهرُ:

قَدِّم وأَخِّر من تشاء وتشتهِي ... مات الذي قد كنتَ منه تَستحِي[1]

طنجة في ٢٠/١٠/٢٠٠٢



(١) البيت في «ريحانة الألبا» ج٢/٥١.



بسم الله الرحمن الرحيم

الشيخ عبدالعزيز بن الصديق

(١٣٣٨ ـ ١٤١٨/ ١٩١٨ ـ ١٩٩٧)

كان «السيد» يشبهه بالعارف الرباني سيدي عبدالعزيز الدباغ[١]، وفراسة المؤمن لا تخطىء: فقد كانت بين العزيزين صلات في علم القوم، والتصوف، والمعاناة، والقبول..

جبل طارق.. مارس ١٩٦٣.. دخلنا الفندق ليلاً بعد وعثاء السفر، وأردنا أن نتعشَّى فلم نجد في المطعم غير المكلف بالطباخين، وكان يتهيأ للانصراف، فرجوته أن يهيّىء لنا طعاماً خفيفاً، فاعتذر في لباقة ودماثة.. وإذا به يلمح الشيخ الإمام واقفاً بالبَهْو في حسن مظهر، وأناقة وأبهة، فقال لي: من الرجل؟. قلت: عالم من العلماء المسلمين، وأنا رفيقه!. فتوسمه لحظات، ثم التفت إليَّ وقال: ادخلا المطعم فسأجهز لكما عَشاء.. فبادر الشيخ قائلاً: ليكن سمكاً.. فلما ترجمت له رغبة الشيخ أجابه: فليكن ما تشاء! قال لي مستقبل الفندق: عجباً، لو لم أر بأم عيني ما حدث لما

---

(١) عبدالعزيز الدباغ (١٠٩٥ ـ ١١٣١) صوفي كبير، ولد بفاس وفيها توفي. كان أميًا، ما حفظ القرآن وما تعلم، لكنه فتح الله عليه فتوحات في علوم القرآن والحديث أبهرت العقول بنوادرها وغرائبها ومكاشفتها. وكتاب «الإبريز» لتلميذه العلامة أحمد بن المبارك ليشهد على عجائب هذا العارف الكبير.

صدقت أن فلاناً ـ يعني رئيس الطباخين ـ يتطوع فيُعِدّ أكلة في غير وقت العمل.. عجباً!.

هذه واحدة..

وأخرى..

إِسْكورْيال[1].. ٨ مارس ١٩٦٨.. فندق «كالا».. تعرفنا على طبيب جذبته حلة الشيخ الأنيقة، وجرى بينهما حديث سَمَر غاية في الإمتاع حام حول مقارنة الأديان، والغاية من الوجود، والإرادة الإنسانية، وتطورات الأحداث في الشرق العربي، والعلاقة المغربية ـ الإسبانية وأبعادها في المجالات الحيوية، وغيرها من المواضيع الشائكة الشيقة، وكنت صلة الوصل بين الرجلين.. وذات مساء أَلَمّ بالشيخ وَجَع في بطنه، فشخص هذا الطبيب المرضَ ومدَّه بأدوية، واهتم بصحته في إنسانية رائقة.. ولما أردت أن أسدّد أتعابه أبى في امتناع مصرّ وقال لي: أيليق بي أن أتقاضى شيئاً من هذا العالم النبيل الذي سعدت بمعرفته فبجَّلته وأكبرته؟!..

إنها النَّفْحَة الربانية التي يهبها الله عز وجلّ لمن يشاء من عباده الصالحين.. إنها شخصية المسلم في أبهى مظاهرها الزكية وأسمى ذروة همتها في هدوئها الجمالي.. في جاهها الجلالي.. في قوتها الروحية.. في نضارتها المشرقة..

إنه العلامة المحدث الكبير، الناقد الخبير، الشيخ الإمام الصوفي جمال الدين أبو اليسر سيدي عبدالعزيز بن محمد بن الصديق..

زكى ونما في بيت الشرف والأُثال والفضائل والقيم الأصيلة.. بيت العلم العالي، والجمال الخلقي، والتصوف العملي، والصفاء الروحي..

---

(١) اسكوريال: مدينة إسبانية اتسعت حول دير بناه الملك فيليبي الثاني، وهي على بعد خمسين كيلومتراً من العاصمة مدريد. وفيها المكتبة الشهيرة التي تضم نوادر المخطوطات العربية ونفائسها.

بيت دعائمه دستور تستريّ حيث التمسك بالكتاب، والاقتداء بالسنة، وأكل الحلال، وكف الأذى، وأداء الحقوق، وتجنب المعاصي ولزوم التوبة[١]..

وفي سنّ مبكر استظهر القرآن الكريم بعناية الفقيه المعلم السيد محمد المصوري.. ثم انكبّ على العلم مسترشداً بتوجيهات والده الإمام الذي عين له شيوخاً أفاضل أخذ عنهم مبادىء العلوم من نحو وفقه ومنطق وأصول وحديث.. ومال في بداية دراسته إلى الجغرافيا والتاريخ.. فعِلْم الجغرافيا أوقد فيه حبّ الاطلاع، والصبر على البحث، والسكون إلى الطبيعة والتمتع بها، والاستماع إلى أسرارها والتأمل فيها، وشد الرحلات في مناكب الأرض «بعلم يسوسه، وورع يحجزه، ووجد يحمله، وخلق يصونه»[٢].. واستهواه التنقيب في أحداث التاريخ، فعاش مع وقائعه التي أثرت سلباً وإيجاباً في مسيرة الأمة الإسلامية وحضارتها الخالدة.. هي حِقَب تلاحقت أطوارها بين مجد، ومِحَن، واستعمار، وبؤس، ومقاومة، وصحوة.. هي محطات زمانية تركت في نفس الفتى الذِّهِن الفَطِن سمات طبعت شخصيته بالتفاؤل، والنضال، والنزاهة، وصدق الكلمة حتى ما كان يقول إلا ما يعتقده، ولا يعتقد إلا ما يقوله.. محطات ربت فيه استقلالية الفكر، وحضور البديهة، والثقة في النفس، والشجاعة..

وتوفي «السيد» سنة ١٩٣٥.. فانقطع عنه مدد كان مستقاه وأنسه ومفزعه.. وظل بعد هذه الفاجعة مضطرب النفس يكاد لا يهتدي إلى وجهة معينة في شعاب العلوم حتى جاءت العناية الربانية، فحُبِّب إليه الحديث النَّبوي، هذا الكنز الثمين النفيس الذي يهدي الناس إلى أسمى مراتب الشرف، وارتاح إليه خاطره، فانكبّ على مورده الصافي رشفاً وعَبًّا، فبدت عليه مبكراً تباشير الرشد ومخايله..

---

(١) هذه أصول سبعة للطريقة التسترية. انظر «من أعلام التصوف الإسلامي» طه سرور ج٢/٣٨.

(٢) «اللمع» الطوسي ـ ٢٥٢ ـ باب في ذكر آداب الصوفية في أسفارهم.

وكانت سنة ١٩٣٦.. فارتحل مع شقيقه سيدي عبدالحيّ إلى مصر ليواصلا دراستهما العليا بالأزهر. . فجلس على علماء جلّة من فحول أهل التحقيق والتحصيل، وأخذ عنهم النحو والمنطق والفقه والأصول والتفسير والحديث ومصطلحه، ومن بين أشهر شيوخه هؤلاء[١]:

- الشيخ سيدي أحمد بن الصديق ـ شقيقه ـ.
- الشيخ سيدي عبدالله بن الصديق ـ شقيقه ـ.
- الشيخ أحمد رافع الطهطاوي.
- الشيخ شرف الدين الموسوي العالمي.
- الشيخ عمر حمدان التونسي المدني.
- الشيخ محمد الخضر حسين التونسي[٢].
- الشيخ محمد راغب الطباخ.
- الشيخ محمد زاهد الكوثري.
- الشيخ عوض الصعيدي.
- الشيخ عبدالمعطي الشريشي.
- الشيخ محمود الإمام المنصوري.
- الشيخ عبداللطيف المالكي.
- الشيخ محمد عزة.
- الشيخ عبدالوهاب سالم.
- الشيخ علي سرور الزنكلوني.

---

(١) ذكر شيوخه في كتابه: «تعريف المؤتسي بأحوال نسبي» وهي ترجمة لم تطبع بعد.

(٢) عين رحمه الله شيخاً للأزهر في بداية ثورة ٢٣ يوليوز ١٩٥٢ ـ ترجمته في «أعلام الفكر الإسلامي في العصر الحديث» أحمد تيمور ـ ٣٧٨.

وصبر على معاناة التحصيل الجاد، وكدّ واجتهد وما تقاعس وما تبازخ عنه.. وبرز تبسطه في العلوم، وخاصة في فن الحديث الذي أحكمه وبدت لوامح تضلعه فيه حتى تميَّز به وصار من أفذاذ فرسانه[١].. هذا التفوق تجلّى في كتاباته الأولى وقد نُشرت مقالات في جرائد ومجلات كمجلة «الإسلام»[٢] و «الشَّفق» و «الخلود» و «النذير»، وفي بواكير تأليفه إذ سطر قلمه: «نيل الأجر في حكم تلقين الميت في القبر»[٣] و «الإفادة بطريق حديث النظر إلى علي عبادة»[٤].

وقضى في مصر إحدى عشرة سنة تحصيلاً وبحثاً وكتابة، وأجازه علماء صدور إجازة تدريس ورواية وكتابة ومشافهة..

ولما عاد إلى طنجة سنة ١٩٤٦ انقطع إلى رحاب الحديث النبوي يتعمق في علومه هناك في غرفته بسطح الزاوية التي لازمها سنوات، فما كان يبرحها إلا نادراً حتى توسَّط باحة تلك العلوم الشريفة، ونال منها الحظ الأوفر، وصار من عدول[٥] هذا الإرث النبوي الخالد، ومن خدامه ونُصَّاره[٦]، وروَّاده البارزين حفظاً ودراية ورواية. وكفته فيه سموق رتبته وعلو كعبه شهادة شقيقه حافظ العصر الإمام سيدي أحمد بن الصديق الذي وصفه: بالعلامة المحدث الواعية الناقد البصير بالعلوم الأثرية والروائية[٧].

---

(١) نسخ بخط يده أجزاء حديثية كثيرة، فقد كان سريع الكتابة شأن كبار المحدثين، رأيته يكتب مراراً وتكراراً فكانت كلماته تتعاقب دون توقف في استمرار مذهل.

(٢) من بين مقالاته في «مجلة الإسلام»: حكم الماء المشمس (سنة ٨ عدد ٢١) وحكم الجنين (سنة ٧ عدد ٤٨).

(٣) فرغ من تأليفه في ١٩ رجب ١٣٦٠.

(٤) أنهى تصنيفه في ٢٨ شوال ١٣٦٥. وقد اعتنيت بطبعه على الساحبة في ٤ شوال ١٤٠٢ مع تقديمي له. انظره في هذا الكتاب.

(٥) قال مولانا رسول الله ﷺ: «**يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله، ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين**».

(٦) في الحديث المتواتر: «**لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك..**».

(٧) وجاء هذا الوصف وعمر شيخنا تجاوز الثلاثين سنة بقليل. انظر تقديم الحافظ الإمام سيدي أحمد بن الصديق لكتاب شيخنا «الباحث عن علل الطعن في الحارث».

وخرج إلى الناس بعد شبه خلوته تلك التي قضاها بين الكتب تحصيلاً وتصنيفاً.. وتصدَّر للتدريس بالزاوية، وأقبل عليه طلاب العلم يستقون من جُدِّه ويرتوون.. فعلا نجمه، وذاع صيته..

كان محدثاً بارعاً: إذا حقَّق سدّد، وإذا بحث غاص، وإذا بَرهن أقنع، وإذا جدل دَحَض، وإذا نقد قَرع.. تراه بقدر ما يستبطن دخائل علوم الحديث تتسع دائرة اطلاعه في الفقه الإسلامي المقارن.. هو عميق المعرفة بالخلاف المذهبي العالي، متحرراً، مجتهداً، يدعو إلى الإنصاف الفكري، وقيام الموازين بالأدلة المعتبرة، وطرح التقليد والانفكاك من قيوده، ورفض التعصب المذهبي والتنغّر على مكابرته!. كان يقول لنا: أو كلما خط فقيه مقلد متعصب سواداً على بياض ظن أنه أتى بالمحكم من القول والفيصل من الخطاب؟!.

ولو أرسلت - قارئي الكريم - تبصرك في كتبه مثل: «حسن السمعة».. و «القول المأثور».. و «محاضرة النشوان».. و «الجواب المطرب».. و «رفع الجور».. و «حسن الإسوة».. و «الإنارة».. وغيرها لرأيت كيف يستقرئ الحقائق بذكاء، ويحيط بها، ويحرر مداركها بغزارة مادته وفساحة خطاه.. وإذا ما عرض لك خاطر - وأنت تجول في كتبه - يطالبك ببيان أنصع، ودليل ألزم لم تبرح أن تجده أمامك عتيداً راسخاً.. ولا يخامرك شك في أن علمه يتميز بالتفتح الرَّصين الذي تتناصر عليه براهين النقل والعقل، وبالنقد الهادف الذي يدعِّمه الإخلاص الصابح، وبالاجتهاد المتبصر الذي يعضده صمود الأصالة.. كما يتميز باليقظة والاحتراس والتنبُّه لأنه يذود عن حرمة الشريعة الغراء، عن السنة المطهرة.. أو ما قال الإمام التستري - رضي الله عنه -: «المحدثون حراس الأرض».. وشريعة الله هي في الأرض.. وإذا ما علمت أن شيخنا الإمام كان تستري النزعة أدركت حقيقة علمه..

علمه جهاد.. جهاد بالقلم والكلمة والسلوك.. جهاد في أسمى ذراه وأخلصها.. جهاد أذكى فيه نشاطاً ثرًّا متدفقاً، يواصل به على السواء خدمة العلم وإصلاح المجتمع..

كان رابط الجأش، إذا عزم لا تبطأ له صريمة..

كانت في إرادته صلابة قد يحسبها من لم يخالطه أنها من يُبس الطبع وخُشنة الجفوة.. كلا وفوق ألف كلا.. وإنما هي صلابة تصونها عزة ولكن في غير عجب، ويكتنفها إباء ولكن في غير زهو!. حقاً، كانت تملكه حميّة وجرأة إذا ما رأى الحق يُدنَّس، والحرمة تنتهك، والكرامة تهان لأن الحق والحرمة والكرامة عنده أثمن ما يحفظ المؤمنون الأحرار من ذخائر الوجود!. ولذا ما تقاصر قطّ عن الجهر بالحق في قضايا زجَّت بغيره إلى الدعة والمسكنة! وكيف به أن يركن إلى المداهنة، ويعقد لسانه ويلجمه وقد جمع باله إلى قول مولانا رسول الله ﷺ: « ..**ولا يَمنعنَّ أحداً منكم هيبةُ الناس أن يقول بحق إذا علمه..**»[1] أو ما كان يلقّننا هذا الدعاء: اللهم إنا نسألك لساناً قوالاً بالصدق وقوفاً عليه، وقلباً مليئاً بالحق شغوفاً به.. اللهم قرّبنا من معادن الصدق وألف بيننا وبين الحق!.

وصرّح عن محض هذا الحق في خطبه يوم الجمعة التي بدأها في الزاوية الصديقية، فزاوية أهل تقيت الكتانية[2]، فالزاوية الحمدوشية، وأخيراً في مسجد بني مكادة..

ورب سائل سأل: وكيف هي سيمة خطبه؟.

وأسارع قبل الإجابة فأسجل أن شيخنا الإمام ما كان قط من صنف أولئك الخطباء الخُرْس الذين يسكتون عن الباطل وهم يعلمون!.

خطبه.. كانت حيّة متحمِّسة هادفة تتناقلها الألسن في استفاضة لأنها تتدفق من جسم المجتمع ونفسه وكيانه، من قضاياه، من تطلعاته، من مشاكله التي كان شيخنا الإمام يحطّم هَضباتها بتوجيهاته وإرشاداته وتنبيهاته وتصويباته، مشيراً في غاية من الصدق والصراحة إلى منبع الداء، وإلى مصدر الدواء!.

---

(١) من حديث طويل رواه الترمذي عن أبي سعيد الخدري، وذكره الخطيب التبريزي في «مشكاة المصابيح» ج٣/١٤٢٣ حديث رقم ٥١٤٥.

(٢) هي زاوية صغيرة توجد بحي دار البارود أمام دار شرفاء وزان وعلى أمتار من الزاوية الحراقية.

خطبه.. يقودها مقاداً رائعاً.. يسير فيها سيراناً جذاباً، يملك قلب السامع وعقله.. ولا غرو، فهو خطيب ألصق في القلب من غيره، وأمتع في العقل من غيره، وأكبر في العين من غيره.. وبين يدي ـ وبخط يده ـ نُتَف من خطبه تلك التي أحتضِنُها كأثمن وأعزّ ما أحتضن من ذكريات.. هي كالمفكرة: نثرات من رؤوس المسائل التي يسطر معالمها لينفذ منها إلى صلب موضوعه.. ولا يعني هذا أنه يظل مقيداً حبيس خطتها لا يحيد عنها قيْد فتَر، كلا.. فقد كنت ألاحظ من ملامحه والتفاتاته ـ وأنا قرب المنبر ـ أنه إذا ما أتاه خاطر بفكرة باغتة ملائمة وحكَّت في صدره تحرك لها باطنه وحفل بها، ثم يرسلها ويَتَحدَّر معها ويتدافع بها غدقاً، فيملأ الأسماع، وينفذ إلى شُغُف القلوب فيشدها إليه بأقوى صيغ التأثير، ثم ينساب إلى أعماق الضمائر ومواطن العقول، فيلاطفها بتلك الفكرة حتى تنغرس فيها وتركن!.

خطبه.. توجيهات مؤسسة ونقدات بناءة تروم الصالح العام.. لذا قاومت أصناف الجور أينما وُجد.. وشدت النكير على المتعجرفين والمستغلين للنُّفوذ أيّاً كانوا.. وتصدَّت للفتن المذهبية وبدعها.. وأقدعت زيغ الهوى الفكري والآراء الهدامة.. وذمَّت الحلول «المعلَّبة» المستوردة التي صَوْنُها أخطر وأفتك من بَذْلها لأنها خطط ماكرة صيغت لتضعيف شوكة المسلمين، وتبديد كلمتهم، وتمزيق وحدتهم، وتشويه دينهم، وقذفهم في مؤخرة الركب الحضاري وقد كانوا طليعته.. وحذرت من تطورات الأحداث العالمية وتقلباتها السياسية التي تنبئ بخطر جسيم متربص سيداهم الأمة الإسلامية لا محالة إذا ما ظل قادتها يضربون في فراغ، ولم يتآزروا على كلمة سواء!.

كان شيخنا للحق قؤولاً عمولاً ذا جلاد وعزيمة.. فمالت إليه القلوب بتجلة ومودة:

ومتى رُزقت شجاعةً وبلاغة ... أَوطنْتَ من رَبْع العُلى بمُشَيَّدِ[1]

---

(١) للمعري في «لزومياته» ج١/٣٩٠.

أجل.. ما أحوج الناس إلى أحاديث شجعان الخطباء العلماء المصلحين!

إنما العيشُ أن تكون جرِّيئاً ليس ترضى الحياةَ غَمرا ذليلا[1]

وللتاريخ أشير إلى أنه كان من دأبه إذا ما قام من جلسة الاستراحة إلى خطبته الثانية أن يجيب على أسئلة ترسل إليه من الحضور في وريقات، أسئلة حرجة هادفة.. وذات جمعة - وحملة الاستفتاء على الدستور قائمة - سئل عن موقف الإسلام إزاءها من حيث التصويت بنعم أو بلا!! فتبسم وتلا قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ نَعَمْ ۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا..﴾ ولم يزد على ذلك!.

وللتاريخ أيضاً أسجل أنه كان يترصَّد لوزير الأوقاف والشؤون الإسلامية الدكتور السيد عبدالكبير العلوي المدغري في دروسه الحسنية الرمضانية بردّ وتعقيب - عند الاقتضاء - ينشران في جريدة «العلم». كان يناقشه دون لَدَدٍ، وينقده دون صَلَف، ويُجلي - حسب علمه ورأيه - ما جاء في درسه من عثرات الخطأ وتَعْسات الزَّلل قد تفضي بالقارئ إلى نتيجة حتمية، وهي أن الوزير إنما كان يجرِّر حبلاً ليس فيه بعير!. كانت مواجهة علمية حركت أقلام الباحثين، ودفعت بها إلى معترك ولَّد من ضروب الملاحظات والتعاليق ونقد النقد تنازعاً شيقاً مثمراً أثرى الفكر ونشَّطه، لكن أغراض الهوى التي حمَّستها وكمنت وراءها مالت بها إلى صراع مفتعل لا يخلو من لغو الحزازات ودَغَل العشوة ورُعونة الغرور.. هذا «الصراع» أدَّى آخر المطاف إلى أن عُنِّي الشيخ الإمام عن خطبة الجمعة، وحيل بينه وبينها، ففقد الناس خيراً كثيراً، وعلموا في يقين أن «سيدي عبدالعزيز» من الرجالات الأفذاذ الذين ينصب لكلامهم فوق ألف ميزان لأنهم يستطيعون بإخلاصهم وصدقهم أن يهزوا الجبال الرواسي!.

---

(١) لعبدالرحمن شكري في «مجمع الحكم..» ٢٢٧ وشكري (١٨٨٦ - ١٩٥٨) أديب شاعر من رجال التربية والتعليم. له عدة دواوين.

جَزْعُ المساجد والمنابر أنها قد بُدِّلَت من عِزِّها بهَوانِ
كانت مَلاذَ العلم دهراً والهُدى ففدتْ مكان الحُجْن والهَذيانِ[1]

وتلاحقت عليه المكايد فسجن هو وشقيقه العلامة الحافظ سيدي عبدالله بتهمة الصوم والإفطار مع الشرق!! هي ذريعة ـ وقد نسجت من خيط العنكبوت ـ استهدفت «سيدي عبدالعزيز» خاصة بدعوى أنه يثير الشغب والفتن!! وما كان قطّ صاحب شغب ولا فتن.. وكيف يدعو إلى الهرج وهو إنما يذكِّر بالقرآن، وبالسنة، ويحدث الناس بما يعرفون ويرون ويسمعون، ويحتال ألا يميل بعقولهم ولا بشعورهم ولا بآمالهم إلى ما لا يحمد عقباه؟! وكيف يدعو إلى المرج ونصب عينه قول الإمام الراشد سيدنا عليّ ـ كرم الله وجهه ـ: «ما أنت بمحدث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان فتنة لبعضهم..»؟! كلا.. ما كان فتاناً ولا شغاباً، وإنما وضع وراء الشمس في ظل الزنزانة:

ـ لأنه ما ضاعته التهديدات وما هالته، وما انكسر لرهبة وما افتَتَنَتْهُ رغبة!.

ـ ولأنه استعصى إذلاله رغم أشهى العروض التي اقترحت عليه كالأستاذية بكلية الشريعة!.

ـ ولأنه قهر بشجاعته وحزمه من تعرَّم عليه وظن أن مشاشته هشة، وفاته أنه ما خشي شذا أحدٍ يَدَ الدهر!.

أجل، بُسَّت عليه نمائم العقارب فسُجن[2]..

سجن، فصبر على هذا الجرم المرّ صبراً جميلاً[3]، وسكن لجريان القضاء والقدر، وفوض أمره إلى الله جل جلاله وقال: ما ذل ذو حق ولو

---

(١) هما لمطران في «مجمع الحكم» ٣٤٨ بتصرف.
(٢) سجن على عهد عامل إقليم طنجة العربي الكيسي.
(٣) زرناه وهو في سجن «مالاباطا»، فكان هو الذي يصبرنا ويطمئننا. ما أشد جلده على الخطوب!.

كان العالَم عليه، ولا عزَّ وفْر باطل ولو طلع من جبينه القمر![1].

سجن، فغمرت الناس دهشة ومرارة، فصاح أحدهم:

حبَسوك والطيرُ النواطق إنما حُبستْ لمَيْزَتِها على الأندادِ
وتَهيَّبوك وأنت مُودَعُ سجنِهم وكذا السُّيوف تُهاب في الأغمادِ
ما الحبسُ دارُ مَهانةٍ لذوي العُلى لكنه كالغِيلِ للآسادِ[2]

ولم شعورهم هذا الخالص نحوه؟

- لأنه كان رمز الشجاعة بين العلماء.

- ولأنه كان يحس بهموم الناس وقضاياهم: يشاركهم مسرّاتهم، ويواسيهم عند الملمات..

- ولأنه كان يعرف كيف يتلطف بالقلوب فينشر فيها الآمال، ويدنيها من الرجاء، ولا يقنطها من رحمة الله..

- ولأنه كان محسناً في سخاء فياض متواضعاً في رقّة العزّ: وهذا أبو يزيد البسطامي يقول: «إذا أحب الله عبداً أسبغ عليه صفاتٍ ثلاثاً دليلاً على حبه: سخاء كسخاء البحر، وإحسان كإحسان الشمس، وتواضع كتواضع الأرض..»[3].

- ولأنه كان فصيحاً «بنعم»، أخرس «بلا»: فما ردّ دعوة أحد له إلا في أندر الأحيان، وكان حضوره فيها هو كمال بهائها..

- ولأنه الصوت المرتفع على الانحراف والأثرة..

- ولأنه ناصر الضعفاء يدعو إلى التكافؤ الاجتماعي في حدود شريعة الله..

---

(١) قالة للخليفة العباسي المنتصر بن المتوكل في «نثر الدر» للآبي ج١٣٢/٣.
(٢) لأسامة بن منقد في «معجم الأدباء» ج١٩٨/٥ و «لباب الآداب» مقدمة س.
(٣) «من أعلام التصوف الإسلامي» ج١١/١.

- ولأنه كعالم خَبَر الناس والحياة، وقاوم بالكلمة والقلم والسلوك موجات الفساد، والتيارات الفكرية المعادية للقيم والفضائل والأخلاق التي يتميز بها الإسلام..

- ولأنه صارع بكل قواه صَنَم العولمة والعلمانية..

- ولأنه رفض بدعة «الإسلام الاشتراكي»[1] و «الإسلام الرأسمالي»، وزيَّف شعارات التقدمية الجوفاء، والرجعية واليمين واليسار..

- ولأنه أعرض عن الحزبية وتبرأ منها..

- ولأنه.. ولأنه..

وقد يقال: ألم يترشح لانتخاب أول مجلس بلدي لمدينة طنجة على عهد الاستقلال بلون حزب «الاتحاد الوطني للقوات الشعبية»؟.

بلى.. ترشح بانضوائه في هذا الحزب، وفاز بالعضوية، وانتخب نائب رئيس المجلس[2]، وكلّف بتسيير لجنة الشؤون الاجتماعية، وواجه مشاكل جسيمة عويصة، ولم تقعده عِلَل المتقاعسين عن القيام إليها بحزم، والقيام بها بجدّ، وما زالت آثار تدخلاته واقتراحاته في تحسين وضعية الجمعيات الخيرية، ودور الشباب، ومأوى العجزة، وحالة المرضى في المستشفيات العمومية، وزياراته المفاجئة لمطابخها وغير ذلك من المهام التي أنيطت به، ما زالت تُروَى بين الأهالي كمواقف جليلة قلّ نظيرها!.

وقد يقال أيضاً: ألم يكن لهذا الحزب أثر على فوزه في تلك الانتخابات التشريعية الأولى؟.

فأقول بملء فمي: كلا!. وأنا أعي ما أقول بحكم تجربتي الإدارية لسنوات..

---

(١) له كتاب عن «الاشتراكية والإسلام» بين فيه أن الإسلام يتميز بمقومات إنسانية أقرتها الاشتراكية كالعدالة الاجتماعية في غير إجحاف على الأغنياء، وأنه يرفض أشكال الاشتراكية التي تتعارض ومبادئه ومنهجه في الحياة.

(٢) كان الرئيس هو الأستاذ المناضل السيد المختار أبا رودي رحمه الله.

لقد تفوق على منافسيه وبزّهم لأن المواطنين صوتوا عليه تقديراً لشخصه وعلمه ونسبه وشعبيته، لا لتحزّبه.. ولا يعتري أحد شك في أنه هو الذي شرف الحزب بانضمامه إليه، وأن الحزب به تشرف.. ألم نره قد اعتزل الحزبية، وانزوى عنها، وقطع علائقه بها لما رأى أن الأحزاب قد انحرفت عن جادتها؟. ألم يقل بصراحته المعهودة فيه: «إن الأحزاب لم تعد تؤدي دورها كما كانت من ذي قبل، وعبد ربه عرف أناساً عملوا في بعض الأحزاب، وأدّوا واجبهم بمصداقية، كما عرف أناساً عملوا في المعارضة، ثم وصلوا وحققوا فائدتهم ومصلحتهم الشخصية! فالحزب بالمعنى الصحيح، الهادف لإنشاء الجديد، وإحقاق الحق، وإزهاق الباطل، لم يعد له وجود.. ومن يثق الآن في الأحزاب كمن يثق في رياح الشرقي.. الأحزاب تجتمع، والمؤتمرات تعقد هنا وهناك، لكن لا شيء غير الكلام، والكلام لا يعطي أية فائدة..»[1].

وقد رجم بالظن من قال إنه كان يتكلم في المحافل باعتباره ثوريًا.. مناضلاً.. تقدميًا.. اتحادياً.. اشتراكياً!! وهِمَ كل الوهم من قام في ذهنه هذا الحسبان.. لقد كان لسان شيخنا الإمام لسان عالم قدوة يساير حياة المسلم، ويخبر مشاكله التي تتقاطر عليه وتتطلب أحكاماً شرعية ورؤاً واضحة ترتاح لها نفسه، ويطمئن إليها عقله.. كان يتصدى للقضايا المعاصرة الشائكة التي تداهم الأمة، فيبين مراميها الخفية، ويشرح موقف الإسلام الصريح منها، ويعالج آفاتها مثل تحديد النسل، وأطفال الأنابيب، والاستنساخ البشري، وزرع الأعضاء، والجنس، والعولمة، وغيرها..

وما فتىء يترصد لتدفق موجات التغريب، ويحذر من الذوبان في جوانب من الحياة الأوروبية التي لا تلائم مظهر الإسلام وروحَه، ويندِّد بالفساد الاجتماعي والسياسي، ويشير بأصبع الاتهام إلى أولئك الذين يخططون للانحراف الخلقي مستغلين ما لديهم من وسائل الإعلام والتبليغ

---

(١) جريدة «الخضراء الجديدة» عدد ٢٤٧ بتاريخ ١٩٩٧/١١/٢٧ وعدد ٢٥١ بتاريخ ١٩٩٧/١٢/٢٥.

والنفوذ، ويشجعون التميع والتزييف والانحلال الديني، ويسخرون من الفكر الذي يسير على درب الإسلام وهداه، ويهزؤون بأصحابه!.

كان يدعو إلى العدالة الاجتماعية في تكافؤ وتآزر وتآخ على ضوء تعاليم الإسلام وأسسه.. عدالة تزكي شخصية المسلم، وتصونَ جبهته من تراب الذلّة والانكسار حتى يكون مثالاً يقتدى به في الحياة.. المسلم عنده قويّ في غير عنف، مسالم في غير استسلام..

هذا النهج في التوجيه المتبصر والتنبيه اليقظ تجده في رسائله، ومقالاته في الصحف[1] التي تميزت بأسلوبه المبسط المرن الذي تكاد تحسبه «عربية دارجية»، وما هو بذاك، بل هو أسلوب من صنف السهل المطواع الذي لا يتهيأ إلا لقلم يجري صريره على إيقاع المعاني.. أو ما قال: « ..وتعمُّد تنميق الكلمات والألفاظ يدعو غالباً إلى التكلف والتصنع، وقد نهينا عن التكلف..»[2] وإذا ما كان قوام هذه المقالات ـ وهي كما يَبدو مخاطبة صحفية فريدة في صياغتها ـ يتجلى في امتلاك عنان العلم والخبرة والحنكة، فغايتها الأسمى تكمن في ازدواجية القصد، بمعنى أنه كان يتبسط أولاً في الشرح حتى لا يستغلق فهم المسائل على أحد ولو كان من عامة الناس.. ويروم ثانياً فطنة أولئك الذين يتحسسون الدقائق من لمحات كلماته الدالة، ويتقصَّونها، ويقلبون فيها خواطرهم يمنة ويسرة ـ هي إذاً مخاطبة يقع كلا الطرفين فيها على ضالته، لأن فيها إخلاصاً وصدقاً وجدية وبعد نظر..

ودعني قارئي الكريم أخبرك بأني أحتفظ بنسخة من تلك الاستمارة التي تمحورت مواضيعها المتنوعة بين أجوبة شيخنا الإمام وبين أسئلة صحافية إيطالية زارته في بداية الستينات بمعية صديقي الأستاذ محمد أقلعي وكنت رفيقهما. أعجبتْ بشخصيته، بتفتحه، بصفاء فكره، بقوته العلمية،

---

(١) جريدة «العلم» و«الموقف الأسبوعي» و«المحرر» و«الأهداف» و«الاتحاد الاشتراكي» و«البلاغ» و«الخضراء الجديدة».

(٢) «شرح مقطعة: بدأت بذكر الحبيب» له. ص٧.

باطلاعه على مجريات الأحداث ودقة تحليلاته لها، ببُعد نظره. كما أبهرها تواضعه، وتسامحه، ونبله، وإنسانيته العالية، فوصفته بالإمام الراهب!.

ولا رهبانية في الإسلام.. بل زهد وتصوف..

والتصوف عند شيخنا الإمام هو الأخذ بالكتاب والسنة، وتحقق العمل على هديهما.. هو منهج حياة.. هو القواعد الضابطة للسلوك.. هو الانقياد للحق.. هو الإعراض عن الأعراض.. هو الخلق السني..

هذه المدارك التي كونت شخصيته جلبت إليها الداني والقاصي بغض النظر عن دينه، أو جنسيته، أو مذهبه، أو نزعته السياسية، أو مشربه الروحي.. شخصيته تقمصت تلك السلوك، ولازمتها في ذكر ومذاكرة وتفكر وتوجيه.. شخصية قامت بما تعلم فعملت وحققت.. شخصية نرى فيها النموذج الحيّ للعالم المعاصر الناسك.. وأتذكر أني لما كنت أدرس عليه «شرح نهج البلاغة» لابن أبي الحديد، و «أمالي» المرتضى و «أمالي» القالي وذلك بعد صلاة الفجر[1] أجده غالباً على سطح الزاوية بجانب القبة يذكر تحت إيقاع حبات سبحته الطويلة..

وفي رحاب الزاوية أقام حلقات الذكر يعطرها بشرح أصول التصوف وقواعده ومناهجه ومدارجه من خلال سرده لكتابه «طلعة المشتري».. وتسمعه ينطلق في تفسير مقامات القوم وخواطرهم، وأشواقهم، وأذواقهم، وإلهاماتهم، وإشاراتهم بكلمات عذبة، وفطرة صافية وسجية تلقائية جذابة تنشر أفانين من دُرَر تُنَضِّج همتك، وتسمو بك إلى عالم المثاليات، وتنفذ إلى شغاف قلبك وتسري إلى فؤادك وإذا بمآقيك لا تملك للدموع ردًّا.. وتسمعه يغوص في أحوالهم، ومكاشفاتهم، ومجاهداتهم فيشفي أجاج فؤادك ببياناته الرائعة وهو يمازج بين عالم الروح والشعور، وبين عالم المادة والعقل.. وتسمعه يتكلم عن الزهد فيستر أثره فيه بلباقة، فكان يخفي أنه ممن يُخفي عن نفسه الزهد! وتسمعه يفيض عليك بتوضيح سلوكيات منها، على ما علق بذهني:

---

(١) خاصة في فصلي الخريف والشتاء لطول الليل.

ـ أن شرار القوم من أخذ من الدنيا فوق كفايته..

ـ أن كل ضلالة عليها زينة..

ـ أن كل ثقيل على النفس فهو حق..

ـ أن العاقل من خاف ذنوبه ولو كانت لَمَماً..

ـ أن الصبر على جفاء من تواصلهم مكرمة للنفس..

سلوكيات تغذي العقيدة بزادٍ روحيّ مقيم، وتطرد اليَأس من النفوس القلقة، وتوقظ الأمل العريض في الله، وتوطد الرجاء فيه عزّ وجلّ..

وإذا ما تغلَّبت عليه فورة الجلال وقد توقدت في الصدور ينهض فجأة، ويصفق بيديه، ويقيم «العمارة»، وإذا بقلوب الذاكرين تتروَّى بكؤوس الصفاء والقرب، فيقضون لحضات أَسْرَى الخشوع والإنابة في حضرة الأنس بالله جلّ جلاله..

وبعد،

فهذه كانت ومضات خاطفة من حياة شيخي وأستاذي العلامة المحدث الكبير الإمام سيدي عبدالعزيز بن الصديق، وتأملات عابرة في جوانب من فكره ودعوته وجهاده..

حياة حافلة اعتصمت بالعمل الإسلامي على درب الكتاب والسنة وسلوكيات السلف الصالح.

حياة أفرغها في تجذُّر الثقافة الإسلامية في المجتمع بمعيار منضبط دقيق، هو الفيصل في الأحكام الشرعية على طوارق الأحداث والنوازل وفق قوله ﷺ: «**كل عمل ليس عليه أمرنا فهو ردّ..**».

حياة توَّجَتْها مواقفه الشجاعة التي رُقِّمت على جبين مدينة طنجة أبد الدهر..

حياة خلدتها مؤلفاته التي أربت على المائة والخمسين وأغنت ساحة العلم، أذكر منها:

١ ـ في الحديث وفنونه:

ـ «الباحث عن علل الطعن في الحارث» ـ ط ـ ١٩٥٠ ـ مصر ـ ص/٢ ـ ١٩٨٥ لبنان.

ـ «الإفادة بطريق حديث النظر إلى علي عبادة» ـ طبع على الساحبة ـ ١٩٩٢.

ـ «إثبات المزية بإبطال كلام الذهبي في حديث: من عادى لي ولياً» ـ ط ـ ١٩٦٠ ـ طنجة ـ وهو مختصر كتاب «إظهار ما كان خفياً من كلام الذهبي في حديث: من عادى لي ولياً».

ـ «بيان نكث الناكث المتعدي بتضعيف الحارث» ـ ط ـ ١٩٨٥/٢ لبنان ـ ط ـ ١٩٩٠/٣ ـ الأردن ـ.

ـ «إتحاف ذوي الفضائل المشتهرة بما وقع من الزيادة في نظم المتناثر على الأزهار المتناثرة» ـ ط ـ ١٩٨٦ ـ مصر ـ ط١٩٩٦/٢ لبنان.

ـ «التهاني في التعقيب على موضوعات الصَّغَاني» ط ـ ١٩٨٢ ـ مصر ـ ط١٩٩٥/٢ الأردن وهو تلخيص «بلوغ الأماني».

ـ «بلوغ الأماني في التعقب على موضوعات الصغاني» ـ خ ـ.

ـ «التعقبات على تذكرة الموضوعات» للمقدسي ـ خ ـ.

ـ «تسهيل المدرج إلى المدرج» ط ـ ١٩٨٢ ـ سوريا ـ.

ـ «وثبة الظافر لبيان حال حديث: أترعون عن ذكر الفاجر» ـ ط ـ.

ـ «التحفة العزيزية في حديث الرحمة المسلسل بالأولية» ـ ط ـ.

ـ «هداية المكتفي بتخريج أحاديث النسفي» ـ خ ـ.

ـ «ضياء الشروق في تخريج أحاديث شرح الرسالة لزروق» ـ خ ـ.

ـ «التعطف بتخريج أحاديث التعرف» ـ خ ـ.

ـ «تخريج أحاديث الإرشاد» ـ خ ـ.

ـ «تخريج أحاديث البعث» ـ خ ـ.

ـ «النفحات القدسية في تخريج أحاديث الفتوحات المكية» ـ خ ـ.

ـ «رفع العلم بتخريج أحاديث إيقاظ الهمم» ـ خ ـ.

ـ «كشف الريب عن أحاديث مفاتيح الغيب» ـ خ ـ.

ـ «كشف الرين عن حديث: أنا ابن الذبيحين» ـ خ ـ.

ـ «كشف المعمى عن حديث: أحبب حبيبك هوناً ما» ـ خ ـ.

ـ «ضوء الشمعة في الكلام على حديث وقفة الجمعة» ـ ط ـ القاهرة ـ.

ـ «الجامع المصنف مما في الميزان من حديث الراوي المضعف» (في ٣ مجلدات) طبع منه الجزء الأول ١٩٨٦ ـ طنجة ـ.

ـ «المشير إلى ما فات المغير على الموضوع في الجامع الصغير» ـ خ ـ.

ـ «جلاء الدامس عن حديث لا ترد يد لامس» ـ خ ـ.

ـ «أزهار الكمامة على حديث الغمامة» ـ خ ـ.

ـ «مفاتيح الذهبان لترتيب أحاديث تاريخ أصبهان» ـ ط ـ ١٩٨٤ ـ السعودية ـ.

ـ «الجواهر المرصوعة في ترتيب أحاديث اللآلي المصنوعة» ـ خ ـ.

ـ «البغية في ترتيب أحاديث الحلية» ـ ط ـ بيروت ـ.

ـ «ترتيب أحاديث جزء ابن قيل» ـ خ ـ.

ـ «ترتيب أحاديث الزهد» ـ خ ـ.

ـ «ترتيب أحاديث مكارم الأخلاق لابن أبي الدنيا» ـ خ ـ.

ـ «ترتيب أحاديث أدب الإملاء والاستملاء للسمعاني» ـ خ ـ.

ـ «أطراف الأدب المفرد للبخاري» ـ خ ـ.

ـ «المقتطف من حديث المخصوص بكامل العز والشرف» ـ خ ـ.

- «المستدرك على مسند عمر بن عبدالعزيز للباغندي» - خ -.

- «الجواهر الغوالي في الاستدراك على اللآلي» - خ -.

- «المستخرج على أحاديث الرسالة القشيرية» - خ -.

- «المستخرج على أحاديث الأربعين لعبدالغافر الفارسي» - خ -.

- «المستخرج على أحاديث الترغيب لابن شاهين» - خ -.

- «المجلس الأول من الأمالي» - خ -.

- «مسند سيدة نساء العالمين فاطمة بنت سيد المرسلين» - خ -.

- «دفع الحاجة عن سنن ابن ماجهْ» - خ -.

- «مصنف أبي نعيم الأصبهاني» - خ -.

- «الأربعين العزيزية» - ط - **١٩٨٤** - طنجة - وهو مختصر «عقود الجمان» و «المجلة النبوية في حوادث الوقت» - خ -.

- «عقود الجمان فيما أخبر به النبيّ ﷺ من أحوال هذا الزمان» - خ -.

- «نظم الآل فيما أخذه الشمس ابن طولون من كتب الجلال» - خ -.

- «الفتح الوهبي في الكلام على محمد بن السائب الكلبي» - خ -.

- «فتح الرحمن في ثبوت حديث: أحلت لنا ميتتان ودمان» - خ -.

- «التأنيس بشرح منظومة الذهبي في أهل التدليس» - ط - **١٩٨٤** - بيروت -.

- «البحوث النفيسة في الكلام على أحاديث الهريسة» - خ -.

- «الحميديات» - جزء فيما أسنده الحميدي في جذوة المقتبس في تاريخ الأندلس - خ -.

- «الرحبيات» جزء فيما أسنده ابن رجب في ذيل طبقات الحنابلة - خ -.

- «التعريف بجهل من أنكر العمل بالحديث الضعيف» - خ -.

ـ «نقد كتاب تذكرة الموضوعات لابن طاهر» ـ خ ـ.

ـ «ضوء الشموع في الحديث الواهي والموضوع» ـ خ ـ.

ـ «المنتقى من الكنى للبخاري» ـ خ ـ.

ـ «المنتقى من تاريخ واسط» ـ خ ـ.

ـ «المنتقى من الإيمان لابن أبي شيبة» ـ خ ـ.

ـ «المنتقى من الإيمان للقاسم بن سلام» ـ خ ـ.

ـ «المنتقى من العلم لزهير بن حرب» ـ خ ـ.

ـ «المنتقى لاقتضاء العلم والعمل للخطيب» ـ خ ـ.

ـ «جَنْي الباكورة في طرق حديث: لا تدخل الملائكة بيتاً فيه كلب أو صورة» ـ خ ـ.

ـ «القول الأسد في بيان حال حديث رأيت ربي في صورة شاب أمرد» ـ خ ـ.

ـ «ضوء الشموع في ذكر بعض ما في الكنز الثمين من حديث النبيّ الأمين من الواهي والموضوع» ـ خ ـ.

ـ «جزء في حديث العمامة» ـ خ ـ.

ـ «جزء في حديث كان بادنا» ـ خ ـ.

ـ «جزء في حديث لا صلاة لجار المسجد إلا في المسجد» ـ خ ـ.

ـ «معجم الشيوخ» ـ خ ـ.

ـ «إتحاف المستفيد» هي أجوبة عن أسئلة حديثية وصلتْه من الشرق.

٢ ـ في فقه السنَّة

ـ «محاضرة النشوان في الإجابة عن سؤال عالم تطوان» ـ ط ـ ١٩٦٦ ـ تطوان ـ.

- «المعرب عن أدلة استحباب الركعتين قبل صلاة المغرب» - خ - في جزءين.

- «الجواب المطرب» - ط - هو مختصر «المعرب» - ط - ١٩٦٥ - تطوان -.

- «حكم تحديد النسل» - ط - ١٩٧٠ - تطوان - ط١٩٩٢/٢ - طنجة -.

- «حسن السمعة بإبطال قول من اشترط العدد والمكان الخاص لصلاة الجمعة» - ط - ١٩٧٠ - تطوان -.

- «حسن الإسوة بما ورد في إمامة المرأة بالنسوة» أو «إمامة المرأة» - ط - ١٩٨٢ - طنجة -. وهو مختصر من كتابه «القول المأثور في جواز إمامة المرأة بربات الخدور» - ط - ١٩٤٨ - القاهرة -.

- «حكم الإقامة ببلاء الكفار وبيان وجوبها في بعض الأحوال» - ط - ١٩٨٥ - طنجة -.

- «الإنارة بما ورد في تحريك المصلي أصبعه عند الإشارة» - ط - ١٩٦٠ - تطوان -.

- «نيل الأجر بتلقين الميت في القبر» - خ -.

- «إحياء الموات بحكم القراءة للأموات» - خ -.

- «إفادة الأتقياء بما ورد في اطلاع الميت على عمل الأحياء» - خ -.

- «تنبيه الغبيّ إلى طهارة المنيّ» - خ -.

- «دفع الجور عمن يقول بأن الحج واجب على الفور» - خ -.

- «الأجوبة ذات شان عن الأسئلة الواردة من مرشان» - خ -.

- «دفع الوصب على إمامة العزب» - خ -.

- «رسالة في حكم حلق اللحية» - خ -.

- «تصحيح البنية بما ورد في تخليل اللحية» - خ -.

- «الفتاوى» - خ -.

- «إتحاف ذوي الهمم العالية بشرح العشماوية» - ط - القاهرة - ط٢/١٩٨٨ القاهرة.

- «الإبداع في شرح متن أبي شجاع» أو «الإلماع بأدلة متن أبي شجاع» - خ -.

٣ - في التصوف

- «تزيين العبارة بتفسير سورة الكوثر بطريق الإشارة» - خ -.

- «الأنوار القدسية في شرح الوصية الصديقية» - ط - ١٩٨٠ - طنجة -.

- «فتح القريب المجيب في شرح مقطعة: بدأت بذكر الحبيب» - ط - ١٩٨٤ - مصر -.

- «طلعة المشتري في شرح نونية التشتري» - خ -.

٤ - منوعات

- «تعريف المُؤتَسِي بأحوال نَفْسِي» - خ -.

- «ترجمة الحافظ سيدي أحمد بن الصديق» - خ -.

- «السفينة» - خ -.

- «سراج الدلجة في فضل طنجة» - ط - ١٩٥٦ - طنجة -.

- «دوران الأرض عند علماء الإسلام» - ط - تطوان -.

- «دفع الضرر عمن يقول بإمكان الوصول إلى القمر» - ط - ١٩٦١ - تطوان -.

- «الوقاية المانعة من وسوسة أبي بكر بن العربي في قوله تعالى: ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝٣﴾ - ط - ١٩٦١ - تطوان -.

- «التحذير مما ذكره النابلسي في التعبير» - ط -.

- «إعلام النيل بما ورد في رثاء آدم لابنه هابيل» - خ -.

- «قطع الوتين ممن يحب السمن ويغبط السمين» - خ -.

- «السوانح» - خ -.

- «تنزيه الرسول عن افتراء الغبي الجهول» - ط - ١٩٥٩ - تطوان -.

فهذه إذاً بعض مؤلفات شيخنا الإمام[١] التي خاطب بها أهل العلم، وأغلبها لم ير نور الطبع بعد، وفيها من رشيق اللطائف، وطريف النوادر، وجليل الفوائد، ودقيق النقدات، ورقيق المبتكرات، وسديد الاجتهادات، وشائق البحوث ما يثري المكتبة الإسلامية يوم ييسر الله ما تبقى من نشرها بين الناس..

وعاش حياته وكأنه لم يذق منها طعم الدعة رغم كثرة أسفاره وترحاله..

ومرض.. وسقم ونهكته العلة..

وفي زيارتي الأخيرة له.. وقد نحل جسمه دمعت عيناه لما رآني.. ولاع قلبي وأخذتني غصة، فبكيت وقد أحسست أن إشعاعه بدأ يميل إلى الغروب.. وجال في خاطري مسلسل دراستي عليه، وأسفاري الكثيرة معه[٢]، ونزهات ممتعة مع أشقائه وأحبائه..

وطال مرضه وأدنفه..

وفي يوم الجمعة ٦ رجب ١٤١٧ موافق ١٩٩٧/١١/٧ انتقل إلى رحاب مولاه.

كانت جنازته رهيبة مؤثرة في موكب حاشد غفير تأخذ بالأفئدة.. تسمع من أقصى المدينة دوي الأصوات يتعالى في الأفق بالذكر تسبيحاً

---

(١) اطلعت على غير قليل منها، فقد كان يتحفني بقراءتها ثم أعيدها إليه.

(٢) رافقته عدة مرات إلى إسبانيا، وقمنا برحلة طويلة سنة ١٩٦٨ إلى إسبانيا، ففرنسا، فبلجيكا، فهولندا فألمانيا، فالنمسا، فشيكوسلوفاكيا، ودونت هذه الرحلة في كتاب.

وتحميداً وتهليلاً وتكبيراً وحوقلة.. جنازة ما رأت مدينة طنجة مثيلة لها، شيعتها عشرات الآلاف من مختلف مكونات المجتمع وأغلبهم شباب كانوا يتهافتون على حمل نعشه من منزله بعقبة القصبة إلى المسجد الأعظم حيث صلي عليه ظهر يوم السبت، ومن ثمَّ إلى الزاوية الصديقية ودفن بجوار والديه المنعمين..

شيخنا الإمام: أسبغ الله على جدثك سجال رحمته وسحائب رضوانه، وأحلك محل النعيم والكرامة مع النبيّين والصديقين والشهداء والصالحين..

شيخنا الإمام: كلما ذكرتك رأيت فيك رجلاً كان يرعى الوفاء، ويجتهد في أن يعمل بما يعلم ويقول.. أجل أنت نجم ذهب وترك فراغاً موحشاً لا يمتلأ، وثلمة لا تسدّ..

راحتْ وفودُ الأرض عن قبره فارغةَ الأيدِي مِلاَءَ القلوبْ
قد علِمت ما رُزِئَتْ إنما يُعرف قدرُ الشمس بعد الغروبْ

طنجة في ٣٠ أكتوبر ٢٠٠٢

ملحوظة:

اطلع على هذه الترجمة نجل شيخنا الإمام العلامة الفاضل الشيخ سيدي عبدالمنعم بن عبدالعزيز بن الصديق، وأرسل إليّ بكتاب هذا نصه:

بسم الله الرحمٰن الرحيم

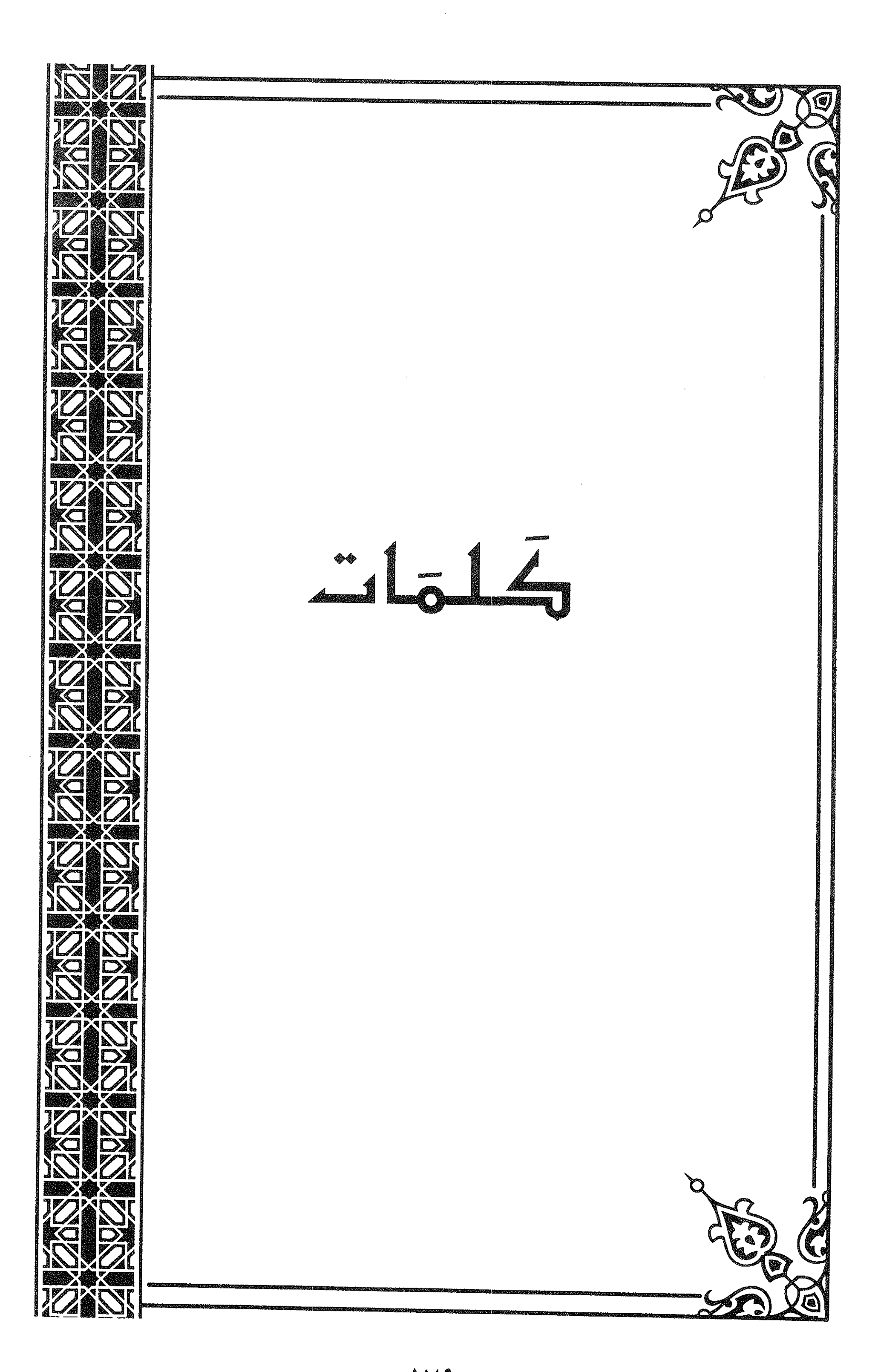
لقد أعرب الأستاذ... بما كتبه من بعض ذكرياته مع سيدي الوالد ـ رحمه الله تعالى ـ عن مكنون محبته له، وعن مدى تأثره بما تلقاه عنه من علوم ومعارف، وما استفاده منه مدة ملازمته إياه.. فكانت هذه الذكريات المكتوبة بحق شهادات تنبض بالصدق والوفاء من تلميذ أبى إلا أن يعترف بفضل شيخه، وبمقدار وفائه لذكراه، وكأنه بها تمثل قول الشاعر:

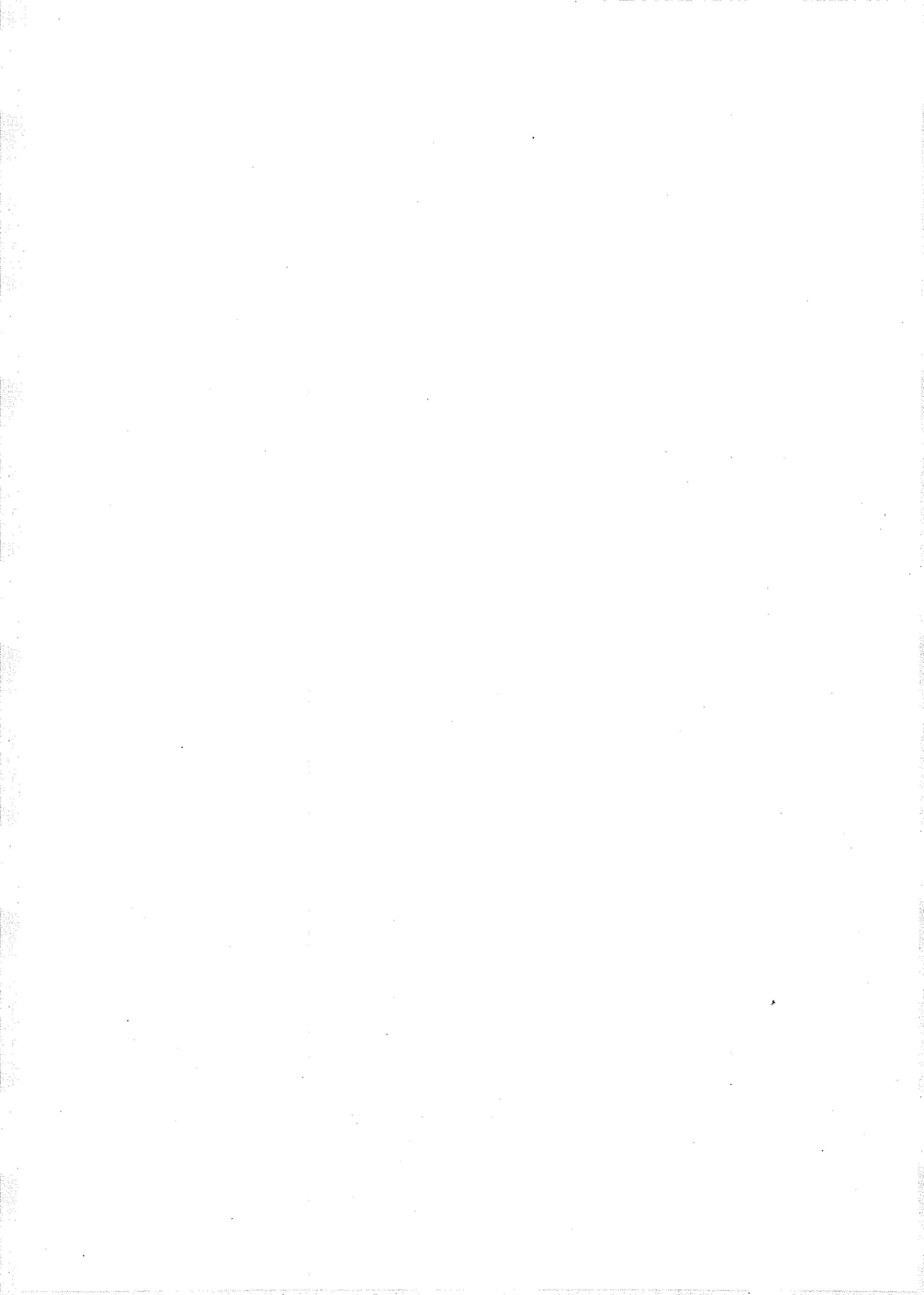
من زار بابك لم تبرح جوارحُه ... تروي أحاديثَ ما أوْليتَ من مِنَنِ
فالعينُ عن قُرَّة، والكفُّ عن صِلةٍ ... والقلبُ عن جابرٍ، والسمع عن حَسَنِ

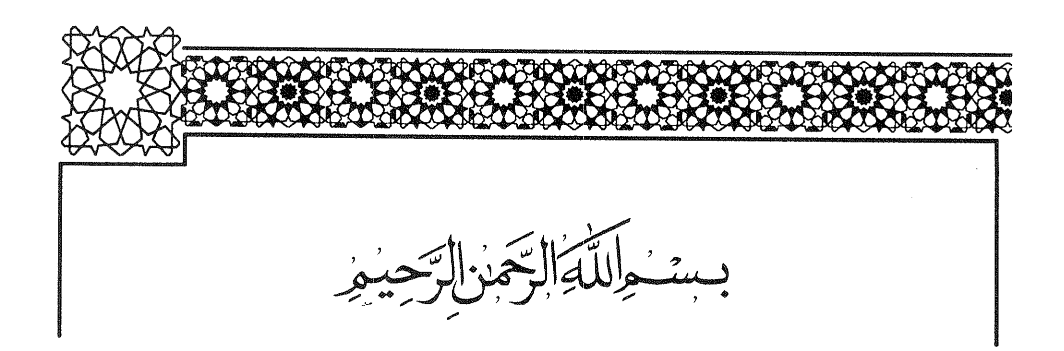
فجزاه الله تعالى خير الجزاء على ما سطره من جميل الثناء، وما أخلده بيراعه من عظيم الذكر في حق سيدي الوالد وباقي أشقائه ووالدهم، ونفعه الله تعالى بمحبته لهم.. آمين.

وكتبه: عبدالمنعم بن عبدالعزيز بن الصديق
في ١٥ محرم الحرام ١٤٢٥هـ




كَلمَات





أخي الأستاذ الدكتور عبدالعزيز خلوق التمسماني ـ مدير مجلة «الطنجيون» ورئيس هيئة تحريرها ـ طنجة.

تحية مباركة طيبة، وبعد:

فقد عرفتك صادقاً في قولك، مخلصاً في بحثك، جادّاً في صراحتك، لا تحيد عنها قُلامة ظُفر، الأبيض عندك أبيض، والأسود أسود.. وصراحتك هي التي جعلتك تخلو بنفسك في شبه عزلة، لأنك لا تطيق في الحق مداهنة ولا مصانعة، ولا تنساق مع تيار «النِّفاق الاجتماعي» الذي يسمِّيه البعض ـ تلطُّفاً ـ: مداراة الناس!

وأخذاً بركاب هذه الخصلة التي أُبَجِّلها فيك سأصارحك أنا أيضاً ـ ودون مواربة ـ بما اختلج في صدري وأنا أمعن في قراءة مقال باللغة الإسبانية للباحث خوسي لويس ماطييو دييسطي، الأستاذ بالمعهد الجامعي الأوروبي ـ فلورانس، إيطاليا ـ الذي أسماه: حِربائية السياسة والحدود الاستعمارية، ونشرته «الطنجيون» في عددها الرابع ـ خريف **٢٠٠٢**.

ودعني أذكرك بدءاً ـ وهذا غير خاف عليك ـ بأن المستشرقين قد استغرقوا وسعهم في إظهار الفكر الاستعماري الغربي أنه منبع الخير كلِّه، ومصدر التقدم كلِّه، ومبعث التمدُّن كلِّه، وأنه الحل الأَقْوم والأمثل والطبيعي لمشاكلنا ـ نحن المسلمين ـ فنستورده كما نستورد بضاعته الاستهلاكية! وأَجَدُّوا في زرع الشّبهات، والافتراءات، والشكوك حول قرآننا، وأحاديث

نبينا ﷺ، وشريعتنا، ولغتنا، وفقهنا، وتراثنا الحضاري.. وما وَنَوْا وما وَهَنُوا في تشويه تاريخنا بالطعن في قاداتنا وعلمائنا، وضَخَّموا لَمَمَ الضعف فيهم ـ وما أقلَّها ـ وأغْضَوا عن سمات القوة فيهم ـ وما أكثرها ـ! وما حملات الطعن في سياسة صلاح الدين الأيوبي رحمه الله عنا ببعيدة!

ثم إنك تعلم ـ وأنت الباحث الثَّبْت الذي له اليد الطُّولى في تاريخ المغرب المعاصر ـ أن الدارس الحق هو الذي يتوغل في استيعاب المصادر المتيسَّرة تنقيباً في مظانِّها على مادة موضوعه، فيرتب، ويمحِّص، ويحلل، ويعالج، ثم يطبق بالحجج ما رآه صواباً.. أما باحثنا الأستاذ المحاضر الذي حبَّر مقاله ذاك عن الحياة السياسية للشيخ الإمام العارف بالله المجاهد سيدي محمد بن الصديق ـ طيّب الله مثواه ـ فقد اكتفى بحشد جملة مصادر غالبيتها ـ على ما أعلم وتعلم ـ تُطمِس الحقائق بِبَهْرجة الشائعات والادعاءات.. مصادر هي من أقلام جفاة المستشرقين، أو أفراخهم، وأذنابهم المستغربين جيلاً تحت جيل، أو هي مستقاة من سجلات مكاتب الاستخبارات الاستعمارية ومحفوظاتها.. مصادر طعَّمَها بمراجع ذات مصداقية تاريخية ذَرّاً للرماد في العيون! اكتفى جَذِلاً بهذه «الموارد» وأهمل، عن قصد أو ربما عن جهل، مصادر هي شاهدة على حياة هذا الشيخ الإمام، لاحقة بها، كتبها من عرفه، وخالطه، وخبَره.. منها «نسيم وادي العقيق» للعالم الصوفي السيد العربي بو عياد، و«نبذة التحقيق» للفقيه الأديب المؤرخ السيد محمد بن العياشي سكيرج، و«حادي الرفيق» للعالم الأديب محمد بن الأزرق الزياتي، و«سبحة العقيق» للحافظ الشيخ سيدي أحمد بن الصديق، و«التصور والتصديق» له أيضاً... ورسالة الأستاذ السيد عبدالسلام بو عياد عن «حياة الشيخ وجهاده ضد الاستعمار».. فمادة باحثنا ـ إذاً ـ مبتورة الأطراف، منخرقةٌ ناقصة. لذا جاء بحثه طافحاً بعثَرات التعجُل، وتسرُّع الخِداج، وهواجس الاعتساف... فقل لي بربك، أخي عبدالعزيز: أَتَلْتَمِس صفاء الصدق، ونور الصواب، ولَحْبَ الدليل من بحث منخرم كهذا، وأنت تعلم أن نصف البحث هو أخطر الجهل، والجهل أدنس شعار الباحث! فكيف بنا يا ترى أن نثق بمقال هذا الأستاذ الذي تجشَّى بغير شِباع وخلص إلى

استنتاجات جلّها بلاء مقيم يُرخي عنان الشك في نفس القارىء، ليؤجّج فيها أسوء الفروض والظنون؟! ثم كيف بنا أن نطمئن إليه وقد بدا جليّاً أن زاده من الثقافة الإسلامية ـ لغةً وحضارةً ـ كَنَقْرَة طائرٍ في بحر! ورحم الله القائل:

ومُكلِّف الأيام ضدّ طِباعها   متطلِّبٌ في الماء جُذْوةَ نارِ

ولك أن تصدِّقني، أخي عبدالعزيز ـ وأقولها بلسان صريح ـ أن لا حاجة لنا إلى باحث غير نقيّ الخِبْءِ لا يأتي إلا بالشُّقَر والبُقَر وبِبَنات غَيْر، ولا يسبح إلا في مياه الاستشراق العكرة، ويساير تيّاره، ويسعى مع ريحه، ويَقتفي جَدِيلَتَه ويَنْجَرِدُ فيها، وعلى بصره غشاوة سميكة تُفْصله عن رؤية معالم الحق!

باحثنا.. يُمثل خير تمثيل توجُّه الفكر الاستعماري المعاصر لأنه عينه التي يرى بها، ويده التي يُحبِّر بها، وعقله الذي يفكر به، وقلبه الذي ينبض به!

باحثنا.. تنكَّب قصداً عن البحث المجرد الخالص من الأهواء فانحرف، وأغرق قلمه في أطياف الأوهام، ومزالق الغي التي دعَّم بها خطّته المُبَيَّتَة الرامية إلى تمزيق أستار الاحترام لشيوخ التصوف وأعلامه، وتحطيم حظوة التقدير لهم.. وبدا لي أنه ما التفت إلى قول صحيح يُقوِّم اعوجاج خُطّته ـ وإن لوَّح له ـ لأن الصحة لا تعنيه ولا تهمّه في هذا الطَّرْح بالذات ما دامت تعارض «منهجه» الذي يَغُرُّ القارىء بالسراب حتى تنقطع به الأسباب، ويزرع من حوله الخِلاج، فيشك، والشك أخطر الخواطر! حقاً، لقد قَعَّده قصده عن الصدق فافترى! وهكذا شأن مِراض القلوب!

ولنتساءل: لِم يا ترى هذه الحملة على شيوخ التصوف وقد اتخذ الشيخ الإمام نموذجاً لها؟!.. ولِمَ إشاعة التُّهم الجارحة من حولهم؟! ألأنَّهم أسوة وقدوة لمن ينشد نبل الفضائل؟ ألأنهم يمثلون صورة القيم الإسلامية المتحركة الفاعلة؟ ألأنهم يندِّدون بمخاطر زحف الغزو الغربي المنظم داخل حياة الأسرة المسلمة؟ ألأنهم يرفضون دعوة التبعيَّة والذَّوبان

في حضارة الغرب «المشرقة»!!؟ ألأنهم يأنفون من تَعِلَّة قابلية الاستعمار والاستعباد؟ ألأنهم يُذكون في النفوس ـ بسلوكهم وسيرتهم ـ شهامة التضحية والمقاومة بمناداتهم للجهاد الذي يخشاه المستعمر وتَصْطَكُّ مفاصله لجرس كلمته؟ جهاد أكبر ضد أهواء النفس وشهواتها الاستهلاكية دون وازع أخلاقي.. وجهاد أصغر ضد كل غزو وغارة على الإسلام سواء أكانت السُّبُل سياسية أم اقتصادية أم اجتماعية؟

باحثنا.. عمد في هذا الاتجاه ـ ومن طرف خفي ـ إلى تشويه صورة شخصيات صوفية مغربية شهيرة ليُرسِّخ الوَهَن في نفوس مواطنيه الإسبان، وليُصرف أنظارهم عن الشيوخ، وهو يرى ويسمع كيف يدخلون في دين الله أفواجاً وأفراداً عن طريق التصوف! وبدا كأنه ناصح أمين ينبِّه على «حربائية» الشيوخ السياسية وقد ألحق بهم تهمة التبعية والولاء لطوابير الاستعمار، ويوهمهم بأن أضالع هؤلاء مطوية على المنافع والخداع لا غير! فيسيؤون الظن بهم، ويتردَّدون في طهارة طَوِيَّتهم، فيعرضون عنهم، وينقلبون عليهم ناقمين! ومن ثَمَّ تراه يغمز ويلمز ـ تلويحاً ـ بأن الإسلام لا خُلُق فيه، ولا قيم، ولا سمو روح، وإنما وصولية ونفاق! وقد جهل كأشد ما يكون جهل الجاهلين أن عماد ثقافة الإسلام أخلاقُه.. جهل هذه الحقيقة المميزة للأجواء الإسلامية فطفق يطعن في أخلاق الشيوخ بأهواء جائرة رسمها في منهجه عن اتباعهم مَسلك سياسة الحربائية، يعني سياسة التلوُّن المستمر في اللّعبة والتعامل مع الدوائر الاستعمارية! وجهل أن الإسلام في جهاده وحربه ضِدّ أعدائه الذين يكيدون له ـ قد أباح ـ عند الضرورة ـ المُداجاة والخُدعة، فإذا لم تَغلب فَٱخْلِب! وذلك لأن الإسلام دين سِلم وسلام، لا استسلام ولا خنوع ولا تذلل.. هو إسلام قائم على إنسانية الإنسان وكرامته، لا فرق بين جنس وجنس، ولا بين لون ولون.. الإنسان فحسب!

باحثنا.. تأسيساً لتصوره الخاطىء للحربائية السياسية اعتمد ـ كما أسلفت ـ مصادر تُفسد على أي باحث تحرِّيات الدقة والصدق، وكل ما لَقَّهُ من «معلوماتها» إنما هو تقليد وضيع أعشى لا يُبصر طريق الصواب! نعم، أخي عبدالعزيز، أقول: تقليد، لأن باحثنا تَشَرَّب أسلوب التفكير

الاستشراقي، فأخذ بِحُجُزات مَن لا حظ لهم ولا خلاق في الأمانة العلمية التاريخية أمثال اليهودي الماكر ليفي بروفانصال، وجورج ادراك، وميشو بيلير وأذنابهم، وأقبل على فُضلاتهم، وعلى أضغاث أحلامهم التي عشَّشَت في قلوبهم النَّغِرة، وعلى افتراضاتهم المرسلة! فتراه لا يَدَع زعماً ساقطاً إلا التقطه، ولا شريدة مَريدة إلا سجَّلها، ولا قِيلاً سخيفاً إلا تصيَّده، ولا شائعة طائشة إلا دَثَّرها بثوب «المنهج العلمي»! نشر كل هذه الأراجيف على عِلاَّتها فخبط فيها خبط عشواء! فيا سبحان الله، الدهر آخره شبيه بأوله!

باحثنا، باختصار.. يشكِّل استمرارية الاستعمار الفكري في إفساد حياة المسلم كلما رآه يتيقظ، ويَعَضّ على ناجد!

أخي عبدالعزيز.. لا تحسِبَنَّ أن بي رغبة أو شهوة في التحامل على هذا الأستاذ الباحث.. كلا وفوق أَلْفِ كلا! إنما هو تنبيه أرجو ألاَّ يظل صيحة في واد.. تنبيهٌ قاسٍ، ولكن على مقال قاس مكابر! تنبيه على أن تبقى «الطنجيون» وَفِيَّة لمبدئها العلمي حيث الجلال فيه، والجلال به.. تنبيه على ألاَّ تُستغل، فتُتَّخذ منبراً لكل بَطَّال أثيم يريد - تحقيقاً لأهدافه - أن يَبثّ منه زوائف المستشرقين ونفاياتهم الكريهة! ولقد ولَّى - دون رجعة - ذاك العهد الذي كان بعض كبار أعلامنا المستغربين - وقد كفروا بالشرق وآمنوا بالغرب وفي طليعتهم طه حسين - يمجِّدون بحوث المستشرقين في إكبار، ويتغنَّون بها، ويتغالون في الإعجاب بها، وقد سلَّموا لنتائجها عقولهم، وعدُّوها حُجَجاً راسخة لا قِبَلَ لأحد بردِّها! إنها عقدة النَّقْص أمام بريق الغرب وسرابه! وعارٌ علينا اليوم، ثم عار، أن نَثِق بما قالوا أو يقولون، وبما نطقت به إصداراتهم في حق شيوخنا وعلمائنا وقاداتنا دون أن نمحِّص، وندقِّق، ونستقرىء، ونستقصي، ونغربل، وننقِّح، ونُجري الأمور على أَذْلاَلَها حتى لا نسيء الظن بهم رحمهم الله! حقاً، لقد كانت لبحوث المستشرقين وأفراخهم وأذنابهم سطوة وصولة، وحقاً أيضاً أن للباطل جولة ثم يَضْمَحِلّ!

واستسمحك - وقد فتحت لهذا الباحث باب «الطنجيون» - لأقول: لا

عذر لك، أخي، وفيك إرادة صامدة، وهمة كاشفة، وصَريمة حَذَّاء ثابرة أن تطوي مقاله هذا، وتُعرض عنه في استخفاف بدعوى أنه شِنْشِنة تعرفها من أَخْزَم! كلاّ.. بل جَرِّدْ قلمك ولا تُغمده، فكَم وكَم أخرستَ به أَلْسِنَةً نَطقَت بأوهام الظنون! فَاحفظ، يا أخي، ما في الوِعاء بِشَدِّ الوِكاء.. وما إخالك إلا فاعلاً!

أخي عبدالعزيز.. لا يخامرني شك في أنك ـ وقد قرأت المقال وأوعيت مراميه ـ تشاطرني الرأي فيه بأنه:

مقال.. يوهم القارىء بأن صاحبه اتبع الأسلوب العلمي الخالص استقصاءً ودراسةً، وموازنة، فيصدِّقه، ويَقَعُ في شَرَك استنتاجاته التي يُوقِن أنها الحقيقة المجردة، وأنها الحق المبين، وأنها الذهب المصفَّى من عيار ٢٤! وما هو إلا زَنْك صَدِىءُ من درجة «صِيرُو»! والقارىء المتبصر يرى أن الباحث طاف به طائف من الغرور، فظن أنه أنطَق أسرار نصوص الطوابير الاستعمارية، وأتى بما لم يأتِ به أسلافه! والحق أنه إنما جاء بالمستحيل الغريب المضحك، وقد تلوَّن فيه تلون أبي بَراقِيش!

وإذا رجوتَ المستحيل فإنما   تَبني الرجاءَ على شُفُر هارِ

مقال.. طَريد، وَلِيد فكرة مبيتة أقبرت الإنصاف في مهده.. فكرة انْبَنَت على تشويه سمعة الشيخ الإمام، وتجريده من كل فضل وصلاح! ولذا حطب في سيل حالِك، وتمسك تمسك الأعمى بأسبابٍ رِمَام، وظنون واهية، وألبَسها طِمْراً أخرَق! ما أتعسَه! ظن أنه رَقَم في الماء، وغاب عنه أنه كان كَالْحَادِي وليس له بعير!

مقال.. تقاطع فيه ـ غير ما مرة ـ مسلسل الأحداث وقد جَذَفَه الباحث حلقاتٍ فارغةٍ لِقصَر باعه، وضيق اطلاعه، وحرصاً منه على مطمعه المُبيَّت.. تراه ينصرف عن المضمون ويَقبع ـ خشية التصريح ـ وراء خفايا التلويح التي فهمناها من ملامح الحروف!

مقال.. لعمري إن أحسنتُ القول فيه فقولي: إنه كبَرْق الخُلَّب، خرج

من تحت قلم آفِكٍ واهٍ مضطرب، أيقظ أراجيف هاجعة قد نَفَثت قطرات سامة في تاريخ شيوخ الصوفية! إنه جاء بهَذَر بارد، وكلام هُراء، ورَأْيٍ فائل الْتَاثَ بالهوى، وتعلّق بالتوافِه الطائشة التي تأَسَّسَتْ على أوهام عريضة من الخبط واللبط! أفيعتمد قارىء متبصّر على مثل هذا المقال ويعتدُّ به، وحسبُه هذا التأسيس انهِياراً لبنائه؟!

وبعد البعد.. فلا أريد أن أطوف بك في رِكام أخطاء الأستاذ الباحث وقد وقفَت عليها قطعاً وأنت أقدر على استكشافها واستئصالها وبَتْرِها بِقَواطع براهينك التاريخية. وأكتفي فقط بأن أسائلك: هل تَجِدُ من جِديَّة الرأي:

- أن الشيخ الإمام كان أحد مَحميِّي المفوضيات الأجنبية فيتحرك طوع يدها؟ (ص٤ و٥).

- أن سياسته الحربائية أو الازدواجية التي فاوض بها إسبانيا وفرنسا على السواء قد أغدَقت عليه أموالاً، وأكسبته جاهاً وشهرةً؟ (ص٤).

- أن كانت له شبكة عَمِيلة مع المفوضية الألمانية، والإقامة الفرنسية، والمندوبية السامية الإسبانية، وجبهة الكَثْلَكَة المعادية للجمهورية الإسبانية الحاكمة؟ (ص٤).

- أنه ساند الحركة الفرانكاوية أثناء الحرب الأهلية الإسبانية **١٩٣٦ - ١٩٣٩**؟ (ص٥) بيد أن الشيخ الإمام توفي في يناير **١٩٣٥** أي قبل هذه الحرب بسنة ونيف؟؟!!

- أن يُهَجِّن الباحث عِرض الشريف المبجَّل سيدي الحاج عبدالسلام الوزاني، نوَّر الله ضريحه، بدعوى أن «علماء» - هكذا بالتنكير - اتهموه بشربه الخمر، وأفتوا بردَّته لأنه قَبِل الحماية الفرنسية؟! (ص٦).

- أن الزاوية الحراقية بتطوان كانت تساند سياسة الاستعمار الإسباني؟ (ص٧ وهامش رقم ١٠ من ص٨).

- أن الشيخ الإمام بعد فشله من إقامة زاوية درقاوية بتطوان نزل طنجة

وهو مُعْوِز مُعدِم، فطلب من السلطان داراً يسكنها بالسقاية الجديدة؟ (ص٨).

ـ أن زواجه من أسرة ابن عجيبة كان نُشداناً لتحقيق مطامعه؟ (ص٨).

ـ أنه كان، في حميَّة دينية، يعارض وجود النصارى في المغرب ولم يقل الباحث: وجود المستعمر؟ (ص ٨).

ـ أن «علماء وفقهاء» شبّهوا طنجة بسادوم وعامورة (أي: قوم لوط)، ووصفوها «بالكلبة» لوجود النصارى فيها؟ (ص٨ و١٣).

ـ أن الشيخ الإمام اغتنم فرصة تخاذل الدول الأوروبية فيما بينها فلعب على حَبْلَيْن وأبرم اتفاقيات مربحة نافعة له؟ (ص٩).

ـ أنه كان عميلاً للدبلوماسية الألمانية التي كانت تساند المسلمين ضد الاستعمار؟ (ص٩ هامش ١٤).

ـ أنه ساعد الاستعمار الإسباني وسهّل احتلاله لقبيلة أنجرة؟ (ص٩).

ـ أنه كان يعادي المجاهد الشريف مولاي أحمد الريسوني رحمه الله؟ (ص١٠).

ـ أنه كان المستشار القانوني للزعيم المجاهد محمد بن عبدالكريم رحمه الله؟ (ص١٠).

ـ أن العقيد الإسباني خوان بيكبيدير منح للشيخ الإمام أموالاً طائلة سنة ١٩٣٦ ليسانده على تجنيد «جبالة» في محاربة الجمهوريين الحُمْر في الحرب الأهلية الإسبانية؟! (ص١٢) عجباً: هل يتعاقد الأحياء مع الأموات؟!

ـ أن هذا العقيد أرسل الشيخ الإمام إلى مصر في يناير ١٩٣٨ حتى لا يعرقل عملية تجنيد «جبالة» من جهة وليغُضّ من منزلته أمام أعين العرب باعتباره سفيراً لخليفة السلطان في منطقة الحماية الإسبانية من جهة أخرى؟! (ص١٣).

ـ أن الباحث اختلط عليه الحابل بالنابل، فطفق يتحدث عن الشيخ

الحافظ سيدي أحمد بن الصديق وهو يعتقد أنه يسرد حياة والده الشيخ الإمام؟!

ـ و. . و. . طمّات تأخذ بتلابيب طمات أخرى. .

فهذه بعض معالم الأخطاء في طريق الباحث، وهي قُلٌّ من كُثْرة. ولك أن تنقضّ على تفاصيلها وتفنِّدها بما حباك الله من تمكن في دراسة تاريخ المغرب المعاصر، وليس من أَنْمَى كمن أَصْمَى!

أخي عبدالعزيز. . حسبي ما قلت، وأرى أني قد تجاوزت هذا الحسب. وها أنا ذا أترك لك أمر الردّ على هذا المقال، وليس بعِبْء عليك، فهو أخفُّ على همتك من جرة قلم. وإن تراني أعدك بشيء في هذا الموضوع فبمقال أخصُّه، إن شاء الله، بترجمة غير مُخِلة لحياة الشيخ سيرةً وجهاداً، رضي الله عنه وأسكنه جوار الأنبياء والشهداء والصالحين.

ولك مني تحية مودة وتقدير، وسلام الله عليك ورحمة منه تعالى وبركات. .

أخوك

المختار محمد التمسماني

طنجة في ١٢ سبتمبر ٢٠٠٢م

❊ ❊ ❊

ملحوظة:

لما وقف فضيلة العلاّمة الأستاذ الكبير المرحوم الشيخ الدكتور سيدي إبراهيم بن الصديق ـ رئيس المجلس العلمي الإقليمي بطنجة ـ على هذه الرسالة التي نشرت بمجلة «الطنجيون» ـ العدد الرابع، خريف ٢٠٠٢ ـ بعث إليَّ بهذه الكلمة:

الحمد لله... أخي الأستاذ المختار التمسماني:

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته...

أشكرك بالغ الشكر وأوفاه، وأهنئك على توفيقك في الدفاع عن الوالد ـ رحمه الله ـ وعن التصوف بصفة عامة، فقد أحسنت غاية الإحسان، وأظهرت من البرور برحمك الديني ما نمّ عن أصالتك، وكرم محدتك..

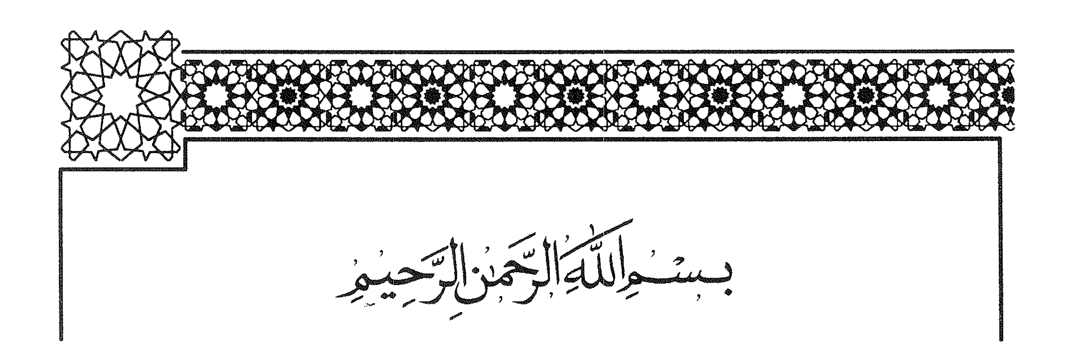
جزاك الله خيراً، وأجزل لك الأجر والمثوبة، وأعانك، ووفقك، وكان لك في كل أمورك.. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

أخوك

إبراهيم الصديق

الاثنين ٢٨ شعبان ١٤٢٣هـ





«السيّد» حِلم.. ووَرع.. وحُسن خُلق[1]

أيها السادة الكرام.. سلام الله عليكم ورحمة منه تعالى وبركات..

أودّ أن نقرأ جماعةً فاتحة الكتاب ترحمّاً على روح «السيد»، وروح ابنه البار سيدي أحمد، أسكنهما الله فسيح جنانه..

أيها الجمع الكريم.. أعوام سبعة وثلاثون مضت وانطوت على وفاة رجل كان يعيش بين الناس كواحد من الناس، لكنه كان أتقى الناس، وأحلم الناس، وأورع الناس، وأحسن الناس خلقاً.. رجل نحيي اليوم ذكراه وبيننا وجوه نيرة أراها هنا وهناك في رحاب هذه الزاوية المباركة، وجوه تمتعت بطلعته، ورافقته، وجالسته، ولازمته، فنالت منه نفحة الخير، وإشراقة المكارم.. هؤلاء الذين عرفوه فبجلوه، كانوا يخاطبونه «بالسيد»، وكان حقّاً سيّداً.

هو الإمام القطب الرباني شيخ الإسلام سيدي محمد بن الصديق رضي الله عنه..

نحيي اليوم ذكرى وفاته، والذكرى تنفع المؤمنين..

---

(١) ألقيت هذه الكلمة في الزاوية الصديقية ليلة الجمعة شوال ١٣٩١ بحضور جمّ غفير إحياءً لذكرى وفاته. وألحقت بنصها الأصلي زيادة طفيفة بعد مراجعته.

ومن الذكرى نستخلص عبراً هي منارات في الطريق، وحياة «السيد» منارة لمثال حركيّ في المجاهدة، في الحلم، في الورع، في مكارم الأخلاق.. ومن هذه المنارة تشع لآلىء العبر التي تتطلع عليها النفس المطمئنة لتفوز بولاية الله في زحمة الدنيا الصاخبة.. ولاية تستند إلى خصال ثلاث من استوفت فيه نالها، خصال بيّنها مولانا رسول الله ﷺ في الحديث الشريف: «**ثلاث من كنَّ فيه استحق ولاية الله تعالى: حلم أصيل يدفع به سفه السفيه عن نفسه، وورع صادق يحجزه عن معاصي الله، وخلق حسن يداري به الناس...**».

هذه الخصال المؤدية إلى الولاية قد تمازجت في حياة «السيد» وتصاهرت، وتماسكت في أعلى مراتب التقوى والاشتياق إلى الأنس بالله عزَّ وجلّ.. إي والله:

فلا عيش إلا مع رجال قلوبهم تَحنّ إلى التقوى وترتاح بالذكرِ

إنها تقوى التوسل بالأفعال!

وبهذه الأفعال كان «السيد» القدوة السامية التي تطبع سلوك مريديه على غرار السلف الصالح.. هي خصال تثمر أغلى المقاصد: الألفة في أخوة إسلامية.. وإلى هذه الألفة كان يدعو، لأنه يعتقد في رسوخ أنها تقوي أواصر الإيمان بين المسلمين، وتصقل أخلاقهم، وتهذّب نفوسهم، وتنوّر قلوبهم، وتحثّهم على ابتناء المحامد، وتمهّد السبيل فيما بينهم إلى الرشد والصلاح.

كان يأتي إليه بعض مريديه وهم على غير طهر.. كان يعلم حالتهم لكنه يسترها عليهم بحلمه وورعه وحسن خلقه - ترونه - رضي الله عنه - يرحب بهم، ويدنيهم منه ويلاطفهم، وإذا قيل له في ذلك أجاب: ألسنا أطباء النفوس؟ كيف بنا وواحد من إخواننا، من مريدينا، من محبينا في أحبولة الشيطان قد وقع؟! ألا نمدّ له يد الإنقاذ والنجاة؟! إنها، ورب الكعبة، الألفة التي تجمع ولا تفرق، وتضم ولا تبدد، وتلائم ولا تقطع،

وتصل ولا تهجر! هي الدعوة بالقدوة الحسنة إلى التغاضي عن مساوي الناس، والتغمّد للإساءة بسعة الصدر.. كأنه يريد - رضي الله عنه - من مريديه ألا يكونوا على قول أبي دلامة الشاعر:

إن القوم غطوني تغطية دونهم ... وإن بحثوا عني ففيهم مباحثُ
وإن حفروا بئري حفرت بئارهم ... ليُعلم ما تخفي تلك النبائث[1]

بل أن يتحلوا بقول الكندي:

إذا أكلوا لحمي وفَّرت لحامهم ... وإن هدموا مجدي بنيتُ لهم مجدا

كم واحد من صواغ الزور سعى بالنميمة على «السيد»، وأثار حوله ترهات وأباطيل، وحين جاءه زائراً وقد أبدى وفاءً ومصافاة يريد من وراءهما أن يسترق السمع، هش له في رعاية وتوأدة، وعامله بالحسنى، وقضى مآربه! إنه الحلم في أبهى مراتبه.

لقد تعرض «السيد» رضي الله عنه لمناوشات المغرضين الذين لم يرعوا له آصرة، وجحدوا ذمامه، واختانوه، وعادوه. وما دروا أن من عادى وليّاً فقد آذنه الله بالحرب! وما زالت معاداتهم «للسيد» إلى اليوم قائمة وهو في عفو الله وفي دار كرمه، هناك راقد في ذاك الضريح تحت القبة المباركة.. ينال منه قوم وكأن حكمة الله البالغة تخبرنا أنه سبحانه وتعالى أراد ألا يحرمه من جريان الثواب عليه!

نعم، أيها السادة.. كان يدعو في تربية عالية ولطف عملي إلى الاقتداء بسيد الخلق أجمعين صلوات الله عليه وسلامه.. إلى اتباع سنته.. إلى فهم روح التشريع.. إلى مقام الإحسان.. إلى حفظ الآداب في العبادات والمعاملات.. إلى رياضة النفوس.. إلى الوفاء بالعهود.

لكن قوماً - وقد نشأوا في رحاب هذه الزاوية - انحرفوا، هداهم الله،

---

(١) عيون الأخبار ج١/٦٩.

عن هذا السبيل القويم، وأخذوا يدعون إلى ما لم تكن عليه سيرة «السيد»: بدَّعوا حلقات الذكر جماعة، والعمارة، وقراءة القرآن على الميت، والجهر بالذكر مع الجنائز وغيرها من القضايا التي لا تتعارض أصلاً وروح الشريعة ومقاصدها.. فما أحوجنا اليوم - إخوان الإيمان - إلى تلك الألفة الصادقة التي طالما نادى بها «السيد».. ألفة أخوية كان، رضي الله عنه، أشدّ الناس حرصاً عليها، وتمسكاً بها، لأنه كان أعرف الناس بآثارها في مجتمع استدرجه الشيطان بخَتْله، فحاد عن سبيل الهداية، وتاه في شعاب الهوى! إي والله.. ما سار أحد على درب الأخوة، واقتفى أثرها إلا وكان من الذين يؤلفون ولا يتفرقون! فالتآلف باب إلى التآخي - وإنما المؤمنون إخوة - والتنافر باب إلى التباغض - ولا تباغضوا عباد الله!

أيها السادة الكرام.. من حسن الخلق الذي يدخل في إطار الألفة: النصح للمسلمين.

لقد مَنَّ الله تعالى على الصفوة من أوليائه ببصيرة نافذة تجلي الأسرار، وتكشف عن الخبايا التي لا نتفطن نحن لها لأنها تنطلي علينا كالسراب الخادع. أما «السيد» فقد تنبه إلى آفات تنخر جسم الإسلام، وتهدم كيانه في عقر دار أهله وهم عنها غافلون.. آفات صوغها الفكر الاستعماري، الاستدماري، التبشيري، المتعصب، الفتاك الذي لا يعرف لدين الإسلام حرمة، ولا لحضارته رسماً، ولا لنظامه اسماً.. حارب «السيد» - وهو الخبير بأهواء الغرب الصليبي - هذه الآفات، وقاوم الغزو الاستشراقي وتياره الملحد في دروسه، ومجالسه، وخطبه، وفي سلوكه حتى أنه كان يتحاشى أن يبدو عليه أبسط مظهر من مظاهر الحياة الغربية في مأكله، ومشربه، وملبسه، وحتى في مفروشات بيته.. أوتدرون أنه ما ذاق الشكلاطة قط؟ رضي الله عنه من رجل ذي همة وإباء وعزة!

لقد حذر بكل قواه من هذه الغارة الماكرة التي لما أخفقت في أن تخضع العالم الإسلامي وتأخذه غِلاباً بدباباتها وقنابلها وعتادها وعدتها غارت على نفوس أهله وقلوبهم وعقولهم، فدنَّست طهارتها، وقوضت معاقل

إيمانها ببهرجة التمدرس والحرية التي تؤدي إلى الفوضوية في السلوك، والانحطاط في الأخلاق! قاوم «السيد» هذا الغزو الفكري اللعين لأنه كان يخشى أكثر ما يخشى أن تندمج شخصية المسلم في حضارة الاستهلاك المادي وتذوب فيها.. و«السيد» ـ وهو الذي لم تخدعه مهارة الشعارات الجوفاء، ولم يُلْهِهِ لمعان المكر ـ أعلنها حرباً ضارية على المدارس، فبين، في كل حين ومناسبة، مفاسد المدارس وبرامجها، وفضح ما وراءها من الأهداف التي تعمل على تمييع العقيدة الإسلامية، ومسخ شخصية المسلم.. وكان يقول ويقول: «احذروا من الغارة، فإن الغرب يحفر البئر بالإبرة، وسيتم له ما يريد إذا ما تقاعس المسلمون وتخاذلوا..» ويكرر ويكرر بأن الاستعمار قد ربَّى ويربي عملاء له من جلدتنا، ولقَّنهم أصول حضارته، ولقحهم كراهية الدين والمتدينين، وأشربهم أباطيل وأضاليل وشبهات حول الإسلام وحضارته، وأعدهم ليكونوا خير معينيه على تحطيم قيمنا ومُثلنا، وبث الشك والإلحاد في الجيل الصاعد والأجيال المتعاقبة حتى لا تبقى لهم قوة في العقيدة ولا دماثة في الأخلاق، وبذلك يفصم الإسلام عروة عروة.

نحن اليوم نتجرع سموماً غربية طالما حذر «السيد» من فتكها وأذاها.. سموماً ينْشرها منشّطوا الأفكار الملحدة الهدامة في مأمن من أمرهم، وفي تحدٍّ سافر، ولا نسمع إلا نادراً من يرشد الإرشاد الحق، ومَن يعظ الوعظ الحق مِنَ العلماء الذين هم أطباء النفوس كما كان «السيد» رضي الله عنه.. فقليل من يصدق في توجيهه وتربيته مثل صدقه، أوَ ليس هو الصديق ابن الصديق؟ وها هم مفكرونا ـ **«دعاة على أبواب جهنم.. هم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا..»** كما وصفهم مولانا رسول الله ﷺ[1] ـ يريدون أن

---

(١) من حديث رواه البخاري ومسلم والترمذي عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه أنه قال: «.. كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يُدركني، فقلت: يا رسول الله، إنا كنا في جاهلية وشرّ، فجاءنا الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير من شر؟ قال: **«نعم»**.. قلت: وهل بعد ذلك الشر من خير؟ قال: **«نعم، وفيه دَخَن!!»**، قلت: وما دخنه؟ قال: **«قوم يَهدون بغير هَدْي تعرف منهم وتنكر»**، قلت: فهل بعد ذلك الخير من شر؟ قال: **«نعم،** =

يغيروا شريعة الله، ويدعوهم - وهم في ضلالهم الدامس - أنهم من حماة الدين.. يا لله! هؤلاء يريدون أن نسلك سبيل الغرب في كل شيء، أن نكون لهم إمَّعَة دُمىً مياقين.. هذا الغرب الذي قال فيه الشاعر المسلم[1]:

والله لا يبدي لك الغرب حرمة ... ولو رحتَ في أذياله تتمسَّحُ
يقول لك الغرب المدِلُّ بنسابه ... وقد جئت تستجدي رضاه وتمدحُ
مكانك يا شرقيّ وارجع بذلة ... فمن ذا رأى الشرقيّ للعز يَصلحُ؟
ومهما سما الشرقي فالشرق نعجة ... تُسمَّن للغرب النهوم وتذبحُ
فلا تلمس عطفاً من الغرب صاغراً ... ذليلاً فما يحنو القوي ويمسحُ
ولا تعبد الغربي جهلاً فإنما ... ستكسب منه كل ذُلّ وتربحُ
ألست تراه رابضاً متربِّصاً ... يَودّ لو أن الصيد يبدو ويمنحُ؟

سادتي الكرام.. كان «السيد» رضي الله عنه نسيج وحده في مواقفه وأحواله. وفي «التصور والتصديق بأخبار الشيخ سيدي محمد بن الصديق» لنجله حافظ العصر الحديث سيدي أحمد رحمه الله، وفي «نسيم وادي العقيق في مناقب شيخنا القطب سيدي محمد بن الصديق» للعلاَّمة الجليل الصوفي سيدي العربي بو عياد رحمه الله ما يشفي الغليل من كراماته وترسماته. وأكتفي بإيراد واقعتين اثنتين سمعتهما من أحد فقرائه الخلَّص تنمان على علوّ همته، وورع زهده، وحسن خلقه.

مرّ ذات مساء على منزل يهودي يهودي بحي مرشان استفرغ ماله وطاقته في تنميقه وورنقه حتى أتقنه غاية.. فدعاه اليهودي إليه وكانت في نفسه حاجة،

= دعاة على أبواب جهنم، من أجابهم إليها قذفوه فيها!»، قلت: صفهم لنا! قال: «هم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا!!»، قلت: فما تأمرني إن أدركني ذلك؟ قال: «تلزم جماعة المسلمين وإمامَهم...»، قلت: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام؟ قال: **«فاعتزل تلك الفرق كلها، ولو أن تعضَّ بأصل شجرة حتى يُدركك الموت وأنت على ذلك»**.

(١) هو أمجد طرابلسي في كتاب: «طه حسين في ميزان العلماء والأدباء» لمحمود مهدي الإستانبولي - ص١٦.

ولما حام «السيد» بالمنزل وهمَّ بالخروج قال له اليهودي: «كيف وجدت، سيدي، منزلي هذا؟» فأجابه: «منزل جميل، لكنك أنفقت مالاً وجهداً في شيء لا بدّ أنت راحل عنه، وتاركه لغيرك..» فسقط في يد اليهودي ولم يبد بنت شفة!

هذه واحدة..

وثانيتهما: أن مريداً ـ وهو ما زال حيّاً يرزق بارك الله في عمره ـ بنى داراً وأهداها «للسيّد» حبّاً فيه وتعلقاً به. واتفق أن جاء والد هذا المريد الصالح في زيارة له، واستفسره عن أمر الدار، فأخبره بأنه أهداها إلى «السيد». فغضب وقامت قائمته، وحذره من مغبة سخطه إذا هو لم يسترجع الدار حالاً.. فبات الابن ليلة ليلاء منقسم النفس، قلقاً، محتاراً لا يرى كيف السبيل إلى إرضاء والده ـ خوفاً من سخطه ـ و«السيّد» خشية تغيّره عليه! وفي الصباح الباكر بينما هو على حالته تلك، وقد ازداد حيرة، أتاه أحد أبناء «السيد» بشيراً إذ أرجع إليه رسم داره مع سلام الشيخ عليه.. وبهذه «الكرامة الصديقية» انفرجت كربته!

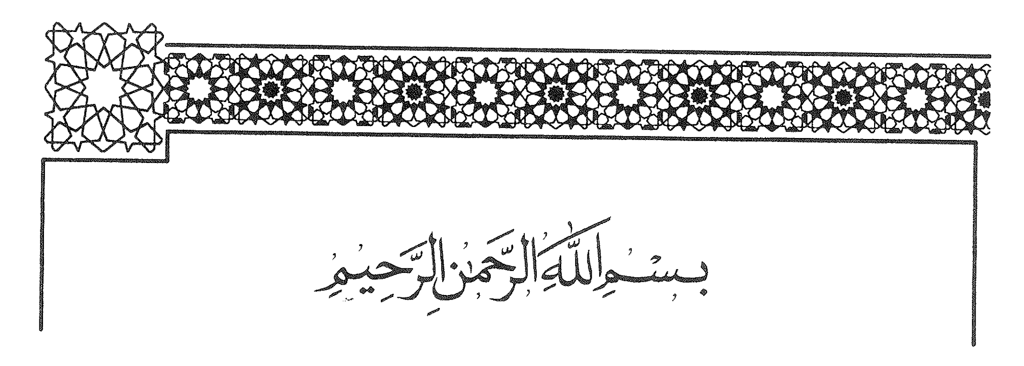
أيها الأفاضل.. هذه ومضة من حياة «السيّد»، وغرفة من بحره المديد الذي كان شعار سفينته: «**إنما المؤمنون إخوة**».

رحم الله «السيد» الإمام رحمة واسعة، وأنزله منزل أصفيائه في أعلى عليين.

﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ صدق الله العظيم والسلام عليكم ورحمة منه تعالى وبركات.

طنجة في شوال ١٣٩١هـ دجنبر = ١٩٧١م





أهلاً بسَرْوِ المكرُمات(1)

الحمد لله الذي تمت بفضله التهاني... الحمد لله الذي تحققت بعزته الأماني.

والصلاة والسلام على من بالمؤمنين رؤوف رحيم سيدنا ومولانا محمد وعلى آله الذين كابدوا وصبروا ففازوا بمنن الديان، وعلى صحابته ومن تبعهم بإحسان أتمّ الرضوان.

بدءاً أستسمح شيوخي الأجلاء واستأذنهم في أن ألقي كلمة ترحيب بالعلاّمة المحدّث الكبير الإمام الشيخ سيدي عبدالله بن الصديق بارك الله في عمره.

سيدي الإمام:

أبى الله إلا أن يردَّك سالماً إلى أهلك ومَن يرعَهُ يَسلمِ

سيدي:

أهلاً بِسَرْوِ المكرُمات ومرحباً بالأَبلج المرجوّ من إخوانهِ

(1) ألقيت هذه الكلمة في الزاوية الصديقية يوم ١٠ دجنبر ١٩٧١ في حفل تكريم العلاّمة المحدث الكبير الإمام سيدي عبدالله بن الصديق.

فالحمد لله الذي قد رَدَّهُ ... من بعد غُربته إلى أوطانهِ[1]

صفحة جديدة افتتحت في سجل تاريخ هذه الزاوية المباركة العامرة علماً وذكراً التي تتباهى رحابها اليوم فرحاً بكم، وافتخاراً بوالدكم المنعم، هذا القطب الإمام القدوة «السيد» الذي يسري وميضه نفحاتٍ زكية من طيب ذكراه يجيش بها القلب إجلالاً ومحبة.

سيدي.. ليس في طوق مثلي أن يواتيني التعبير بما يجول في خاطري من معانٍ تتزاحم عليَّ، وتتسابق لتكون صدراً في أن تقدم لكم باقة الترحاب مشفوعة بصادق التقدير.. إنها المحبة الخالصة التي نشاطرها جميعاً ـ وفي اعتزاز ـ إخوانكم شيوخنا الأجلاء الذين رسموا لنا معالم الطريق السويّ في العلم والسلوك..

وأحصر كلمتي المتواضعة في حادثين اثنين من حياتكم الحافلة، حياة رمزها: العلم والاجتهاد.. وسيرتها: الزهد والحلم.

فعلمكم وافرٌ والزهد ناسبُكم ... وحِلمكم ظاهرٌ عن كل مُجترمِ

فلنتذكر شهر شعبان من سنة ١٣٤٩هـ.. تهيأتم ـ سيدي ـ لرحلة العلم إلى الأزهر الشريف بعد ما ملأتم وفاضكم في جامع القرويين على فحول علمائه، فقال لكم والدكم رضي الله عنه: هكذا كنت أُحبّ، أن تذهب إلى مصر وأنت عالم يلجأ إليك علماؤها ولا تلجأ أنت إليهم! فكانت مطلع كرامة من كراماته رحمه الله.. فكم من عالم وشيخ عرض عليكم ـ هناك ـ معضلات علمية استشكلت عليه، فوجد بزمام يدكم ضالته المنشودة حيث

---

(١) البيتان لحافظ إبراهيم من قصيدة في تحية لأحمد شوقي بعد قدومه إلى مصر من منفاه بالأندلس ومطلعها:

ورد الكنانة عبقري زمانه ... فتنظري يا مصر سحر بيانه

وقد تصرفت في صدر البيت الأول من تلكما البيتين حيث ورد هكذا:

أهلاً بشمس المشرقين ومرحباً ....

ديوان حافظ ج١/٥٨.

الحل الحاضر الدقيق، والجواب المقنع المحكَم، فتبهره بتبصركم العميق وفيه مَفصِل الصواب، وبواسع اطلاعكم وفيه سديد الخطاب، حتى قال أحدهم: إن الشيخ عبدالله خزانة علم متنقّلة! وحق له ما قال..

والحادث الثاني.. أن التاريخ أخبرنا بأنكم لما أحرزتم بتفوق باهر شهادة العالمية الأزهرية هنأكم أحد العلماء بحضرة شيخ الأزهر الإمام محمود شلتوت الذي لم يجد بدّاً من كلمة إنصاف ما قيلت في أحد من ذي قبل، قال: علينا بالأحرى أن نهنىء العالمية في شخص الشيخ عبدالله، فقد أتانا من بلده وهو عالم لا يحتاج إلى شهادتنا! فأكرم بها من كلمة حق!

وإن جولة ولو كرفْرفَة طائر على مؤلفاتكم التي أربت على الثمانين لتبدي أول ما تبدي تتبعكم الدقيق للسقطات العلمية، وتصويباتكم القويمة لما اعوجّ من الآراء والاجتهادات عن المسلك الصحيح، وذلك بغزارة في البحث، وبراعة في الجدل، ووعي في النقد، وجمال في التعبير الموجز.. فكأن كل مؤلف صورة لعلم جديد لا يدع زيادة لمستزيد.. وكم يعجبني - سيدي - بيت الأستاذ الشيخ يس الشيشيني مشيراً إلى مصنفاتكم:

أطلعتَ في ظلم الضلال كواكباً للمهتدين بها فكنت نبيلا

وعلى كثرة ردودكم البينة على أقوال العلماء، ونقدكم لإنتاجهم الذي مال عن خطة الصواب، فإنكم تتميزون بصفاء الطوية، وسلامة الصدر، ورحب الجانب، وقد تدثّر التواضع والحلم بحلتكم العلمية:

يطيب العيش أن نرى لبيباً غذّاه العلم والرأي المصيب

وإن أنسى فلن أنسى يوم أن تلقيت جوابكم الكريم عن كلماتي المتواضعة التي كنت بعثتها لكم وأنتم بمصر، وكم اعتز بدعائكم لي بالتوفيق والسداد.

ولكم - سيدي - في كثير من الأقطار الإسلامية تلامذة قد بلغ بعضهم شأواً كبيراً كالشيخ سيد سابق، والشيخ أحمد الشرباصي وغيرهما.. ورجاؤنا

أن يحظى طلبة العلم بمدينتكم طنجة بنصيب بركتكم العلمية وهم يدرسون عليكم فنون العلوم بحول الله..

لقد لاطفنا فيكم الشوق سنوات طويلة، وقد غبتم عنا وطال الغياب، ونخشى اليوم أن يعود الغياب كرته، خاصة وقد تناقل الناس أن مهمة علمية سامية[1] ستناط بكم في العاصمة، هي منزلة تشريف ولكن أليس من حق أبناء مدينتكم أن يرتشفوا من منبعكم الصافي وهم إليه في سهف شديد؟

إخواني الأفاضل.. هذه كلمتي المتواضعة اكتفيت فيها بإشارات كنقرة طائر ما كانت لتوفي بحق الإمام الشيخ سيدي عبدالله بن الصديق في هذا الحفل التكريمي المبارك.. ولولا خشية الإطالة فالملل لقلت وقلت، ولكن هل تملّ الآذان من الإصغاء إلى حديث يروي لطائف الشيخ الإمام وجولاته العلمية؟ ولكن من الأدب أن أترك مجال الحديث لغيري.

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ صدق الله العظيم.

والسلام عليكم ورحمة منه تعالى وبركات.



(١) وهي التدريس بدار الحديث الحسنية بالرباط.



بسم الله الرحمن الرحيم

الشيخ سيدي عبدالحي بن الصديق تجديد واجتهاد[1]

أحمدك اللّهم حمداً نسعد به في السعداء من أوليائك.. وأصلّي وأسلّم على سيدنا ومولانا محمد خاتم أنبيائك، وعلى آله الأطهار وصحابته الأخيار، ومن تبع هداه بإحسان إلى يوم لقائك.

أيها الجمع الكريم.. سلام الله عليكم ورحمة منه تعالى وبركات:

مضى الذي كنتُ في الأيام آمُلُه   من الشيوخ فيا رُحماً لآمالي

وبعد.. فأستسمحكم بدءاً في مخاطبة شيخي الأستاذ الكبير العلاّمة الإمام سيدي عبدالحي بن الصديق ـ عليه الرحمة والغفران ـ بكلمة هي زَفْرة مرسلة، ودمعة ساكبة، وحسرة والهة أوحت بها وشائج الوفاء، وأواصر الإخلاص لرجل لم يعرفه الناس حق معرفته، لأنه عاش حياة بلا ضجيج ولا اعتلاء، حياة شبه هادئة قضاها بين العلم والتدريس...

---

(١) حاضرت بهذه الكلمة في قاعة المؤتمرات لغرفة التجارة والصناعة بطنجة يوم ١٩٩٩/٢/٢ بمناسبة الذكرى السنوية الرابعة لوفاة العلاّمة سيدي عبدالحي بن الصديق والذكرى الأولى لوفاة العلاّمة سيدي عبدالعزيز بن الصديق تحت شعار: العلماء ورثة الأنبياء.

شيخي العزيز:

كنتَ لي شيخاً عظيماً جليلاً ما رأتْ عيني لك في النَّاس مثيلا

رَعْياً لزمان أنافت عقوده على الأربعة لازمتُ فيها ظلال صحبتك، وتنسَّمت منها زكيَّ سلوكك.

وسعياً لسنين استضأت خلالها بنور مشكاة علمك، وارتشفت فيها من معين معارفك، وأبردتُ أُواري منها ظمأً إلى غَدق دروسك التي تَرمَّقتُها من ألفية ابن مالك، فالبلاغة، فمفتاح الوصول للتلمساني، فرسالة ابن أبي زيد القيرواني، فعلم أصول الفقه لخلاف، فسبل السلام للصنعاني، فالفقيه والمتفقه للحافظ البغدادي، ثم صحيح البخاري، وجامع العلوم والحكم لابن رجب، وأعلام الموقعين لابن القيم، مروراً بكتب أخرى كانت لُمجاً ونقولات..

فواشوقاً إلى مجالسك.. تلك التي تسترقُّ القلوب بغزارة مواردها، وتعزِّز شواهد الحق بنصاعة دُرَرها، وتغذِّي مطارح الفكر بمديد سيلها.

وواحناناً إلى أحاديثك.. تلك التي كانت تنصرف إلى روعة الأغراض، ودقيق المباحث، فتقطع ببيِّناتها الراسخة عِرق النزاع، وتفصل بتوضيحاتها الشفافة بين الخواطر في الجدل، والآراء في الحوار، فترفع عنها آصار اللُّبس وعوارض الانحراف..

حقاً.. ما رأيت أوقر من علمك وقد استبطنتَ دخائله.. ولا أدق من براهينك وقد استحكمتَ عرضها.. ولا أقوى من أدلتك وقد خُضتَ عُبابها.. ولا أسلس من منطقك وقد استقريْتَ كُنهه.. ولا أحضَر من ذهنك وقد نطقتْ بصحته الشواهد.. ولا أمتع من حوارك وقد كنت تشاركنا فيه وكأنك طالب علم مثلنا!

عجباً لثاقب فكرك كيف يغوص على ثمين الحقائق.. ولدقيق بحثك كيف يكشف عن كمين الغوامض.. ولوثيق مسلكك كيف ينزَع إلى لَوامع الشواهد في الفقه المقارن..

عجباً لك، سيدي، ثم عجباً! كيف تترنَّح بأحناء المسائل لتضعها على محجة الصواب! وكيف تروم كَؤُود المعضلات لتوجهها شطر مراسم السَّداد في عبارات متزنة، فصيحة الإشارة، زكية المعنى، قوية النَّفَس، لا لَغْو فيها، ولا تعقيم، ولا اعتساف..

أجل.. إنك ـ دون منازع ـ من الحُذَّاق في ثنايا النظر، ومسالك النقاش.. حُجتك تتناصى، وبراهينك تتصاعد، وأدلتك تتماسك لتُوقفَ على معالمِ الرشاد، وتُبصِرَ بالصواب مَنْ يهيم في غياهب الظنون، ويتيه في دياجيرِ المزاعم، ويَخبِط في أشَبِّ الأوهام..

نعم.. كم ولَّيتَ مُدبراً ولم تُعقِّب على الرِّمام من الأقوال، والواهية من الدعائم.. وكم ضاقت نفسك من التعالي في تقرير الباطل.. وكم احتدمت من المكابرة في تبرير الخطأ، واللهو بالحيِّ واللَّيِّ.

شيخي العزيز.. لقد مضيت وأصبحت «دار العلم» بعدك خالية من قُطَّانها.. نعم.. مضيت، وكدنا لم نعد نستملي بكلام غيرك ونستمرئه، فمذ تعودت آذاننا تصغي إلى تحقيقاتك في معضلات القضايا العلمية ثقلت على أسماعنا بعدك بيانات غيرك!

فعليك تحية العلم وسلامه فقهاً، وأصولاً، ومنطقاً، وبلاغة، ونحواً، وحديثاً.. فأنت بحق حجة ناهضة على صحوة التجديد في ميدان البحث العلمي الرصين.. فأنت:

إذا قلت لم تترك مقالاً لقائل ... مصيبٍ ولم تَثْنِ اللسانَ على هُجْرِ

شيخي العزيز:

لم تمتْ أنت إنما مات مَن لم ... يُبْقِ في العلم والمكارم ذِكْرا
لستُ مستسقياً لقبرك غَيْثاً ... كيف يَخْفى وقد تَضَمَّن بَحْرا[1]

---

(١) البيتان لابن المعتز في «زهر الآداب» للحصري ج٢/٧٢١.

في إجلال وتواضع استأذن روحك الطيبة لأحدث هذا الجمع الكريم الذي لَبَّى دعوة الجمعية المغربية لأساتذة التربية الإسلامية التي تسعى، مشكورة إلى إحياء أيام دراسية متوالية خدمة منها للعلم ولورثة الأنبياء، لبّاها وفاءً لذكراك وذكرى شقيقك شيخنا العلاَّمة المحدث الكبير الإمام سيدي عبدالعزيز[1]، وإكراماً لشخصكما الذي جمع إلى شرف العنصر نزاهة النفس، وإلى طهارة المروءة نبلَ السريرة.. أُحَدِّثه ـ على قدر عجالة الوقت ـ عن عذوبة موردٍ من موارد علمك الفياض، عن جانب من منهج تجديدك واجتهادك..

أيها الجمع الكريم:

التجديد ينازع التقليد وينبذه، لأن التجديد حياة، والتقليد ممات..

التجديد معين دفَّاق عِدّ، والتقليد طَرْق راكد آسِن..

التجديد سعة وجِدّة، والتقليد قيد وحِدّة..

التجديد حرية، والتقليد رقّ أصاب الفقه الإسلامي فعطّل فكره، وأخفى تباشيره، وأذبل نضارته، وأخمد رُواءه، فرثَّت معالمُه وتلاحقت كبواته..

وإزاء هذا التراث الضخم الأصيل انبرى شيخنا الإمام ـ بعد ما تحصَّن بما يتحصن به أفذاذ العلماء من المعارف والعلوم ـ ليزيل عنه ما عَلِق به من أوشاب كَبَتت حيويته، وليحرِّره من أغلال ألجمتْ حركتَه، وأصدأت إنتاجه!

لقد أراده فقهاً سلفياً لا يَنْضَرِح، حَرَكياً لا يتلبَّث، قوياً لا يلتبس أمامه صَعْبٌ.. فقهاً ناصعاً لم تشبه أقذاء التعصب والتزمت والجمود..

إنه التجديد في أوج مداركه، تجديد ينفي عن الفقه وأصوله وعلومه تحريفَ الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين.

---

(١) كنت شاركت بكلمة في الحفل التأبيني الأربعيني لوفاته الذي هيأته هذه الجمعية النشيطة بقصر المولى عبدالحفيظ بطنجة يوم ١٩٩٧/١٢/٢٠، وهي مدرجة في هذا الكتاب.

وعلى هذا الأُس المتين يدسِّم شيخنا الإمام ما يعالج من مسائل فقهية بضوابط القواعد العلمية ـ حديثية وأصولية وبلاغية ونحوية وغيرها ـ في براعة نادرة وإمتاع علمي لا يجارى، ويقلِّبها ذات اليمين وذات الشمال على مِحكّ البراهين الدقيقة والأدلة الناصعة. .

والقارىء لتلك المسائل الفقهية التي تصدَّى لها شيخنا الإمام في كتبه ورسائله سيميّز دون عناء من خلال هذا المنهج الصديقي الحيّ بين خيطها الأبيض وخيطها الأسود، ثم يركن إلى الحق في يقين، ويخلد إليه في اطمئنان لا يلوي عنه قيد فتر!

ولأذكر ـ لو سمحتم ـ جانباً من ملامح التجديد في هذا المنهج الصديقي الذي طالما بثَّ شيخنا الإمام بذوره في خواصّ طلبته، ورعى غرسه بعناية وتوجيه في دروسه، وأحاديثه، وحواراته كما زخرت به مؤلفاته التي أربت على الثلاثين، وهي تحيي في القارىء المتأني ملكة التدبّر، وتثير فيه دقة النقد، وتُبصِّره بمقاصد التمحيص. . هو منهج تجليه المميزات الآتية:

١ ـ التماس الأدلة من معاقلها المعتبرة عند الجمهور: الكتاب والسنّة والإجماع والقياس. .

ولْنقف برهة على عتبة النص ـ كتاباً وسنّة ـ ونَتروَّ في تنبيهاته الآتية:

أ ـ إن التأويل بصرف النص عن ظاهره لا بدّ فيه من دليل أقوى من النص الذي يدل بظاهره على الحُكم، أما إذا كان دونه في القوة فلا يصلح لصرف النص عن ظاهره.

وبهذا التنبيه دحض شيخنا الإمام اتجاه الفقهاء المقلدة الذين يؤيدون الشبهات المقررة في مذاهبهم بتأويل النص الصريح من الكتاب والسنّة مثل قولهم: التيمم طهارة غير تامة!! وهو ردّ صريح للنص القرآني.

ب ـ إن قول الصحابي لا يصرف النص عن ظاهره، بل ظاهر النص مقدّم على قوله. وبهذه القاعدة الملزمة نقض أدلة المانعين من التيمم بالحجر دون التراب. .

ج ـ إن اعتقاد الفقهاء أن كل خطاب عام جاء في القرآن أو السنّة هو خاص بالأئمة باعتبار أنه عام أريد به خصوص، وهو اعتقاد فاسد أدّى بهم ـ في تخاذل ـ إلى أن قرروا عدم جواز تقليد الصحابة!! وهذه طامة كبرى في بؤرة البدع!

أما بالنسبة للقياس فقد فنّد شيخنا الإمام مزاعم فقهاء المذاهب، وفرّق بين الخطأ والصواب من تلك القواعد الأصولية التي تحايلوا عليها تدعيماً لمسار المذهب وإن في خطّ أعوج مُلتوٍ! فنبّه ـ رحمه الله ـ مما نبّه عليه في مؤلفاته:

أ ـ أن القياس لا دخل له البتّة في التقديرات الشرعية، لأنه مبني على معرفة العلة التي أنيط بها حكم النص، والتقديرات الشرعية لا تُدرَك علتها، فلا يصح القياس فيها..

ب ـ أن القياس على قول الإمام أو أحد أئمة مذهبه قياس باطل، لأن القياس يكون على أصل لا على فرع، وقول الإمام فرع.

ومن ملامح التجديد في هذا النهج الصديقي المتميز:

٢ ـ تماسك البراهين في خطّ محكم متين.

٣ ـ تسلسل منطقي رصين لا تنفصم عراه حتى إذا ما أطلق شيخنا الإمام حكماً لم يكن أبداً عارياً من الأدلة، وغُفلاً من العلل.

ولْنصغ إلى مثال واحد من تلك النكت اللطيفة ـ وقد اختصرته بتصرف من كتابه الممتع «المجتبى»[1] ـ وفيه يحلل تحليلاً غاية في الدقة حديث أبي هريرة[2]: سأل رجل رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، إنا نركب البحر

(١) مخطوط من مخطوطاته التي نرجو الله أن يقيض لها من يخرجها إلى عالم الناس ليستفيدوا مما حوته من درر، وعندي نسخة مصورة من جزئه الأول في ١٩٧ صفحة، وقد عالج فيه واحداً وسبعين موضوعاً في مختلف القضايا.

(٢) الحديث أخرجه أصحاب السنن، وابن أبي شيبة، وصححه ابن خزيمة، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. انظر: «نيل الأوطار» ج١/٢٤، و«سبل السلام» ج١/١٥، و«فقه الإسلام» ٦.

ونحمل معنا القليل من الماء، فإن توضأنا به عطشنا، أفنتوضأ بماء البحر؟ فقال رسول الله ﷺ: «**هو الطهور ماؤه الحِلّ ميتته**».

قد يقال: كان مقتضى الظاهر جوابَ السائل بنعم لأنه يفيد الحكم مع الاختصار، فلماذا عدل ﷺ إلى الجواب بما ذكر؟ أي: «**هو الطهور ماؤه كل ميتته**».

أ ـ لو أجاب ﷺ بنعم لفات ذكر علة الحكم، واقتران الحكم بعلته ـ وهو دليل مشروعيته ـ يكون باعثاً على الامتثال والاطمئنان والإذعان.

ب ـ في ذكر «**الطهور ماؤه**» إيحاء إلى علة جواز التوضُّؤ بماء البحر، لأن الطهور صيغة مبالغة تدل على أنه طاهر طهارة متناهية.

ج ـ إن السائل شك في جواز الوضوء بماء البحر، فجاء الجواب مبيناً لوصف الطهورية وصفاً لازماً لماء البحر خاصة وقد أُخرج الكلام في صورة الحصر بتعريف المسند إليه..

د ـ إن سؤال السائل كان عن حال الضرورة، فلو أجاب ﷺ بنعم لأفاد أن التوضؤ بماء البحر يكون فقط عند الضرورة، فلما عدل ﷺ عن الجواب بنعم وأجاب بما ذكر عُلم أن جواز التوضؤ بماء البحر عام في كل حال..

هـ ـ لو جاء الجواب بنعم لربما يفهم منه أن الجواز هو خاص بالوضوء، ولا يجوز التطهُّر به لبقية الأحداث والأنجاس بخلاف الجواب بأنه «**هو الطهور ماؤه**» فإنه نصّ في جواز التطهر به لكل حدَث ونجَس.

و ـ إن الحديث دلّ على حكمين عامين:

ـ طهورية ماء البحر.

ـ وحِلّ ميتته.

وعموم هذين الحكمين ليس في مرتبة واحدة، ذلك:

ـ أن عموم حل ميتته لا خلاف فيه لأنه عام مبتدأ غير وارد على سبب.

ـ أن عموم طهورية مائه فيه خلاف لأنه ذُكر في معرض الجواب عن مسؤول عنه، فيمكن ادعاء تخصيصها بحال الضرورة أو بالوضوء دون غيره من أنواع الطهارة باعتبار أن العام الوارد عن سبب يقصر على صورة السبب.

فهذا المثال الواحد الذي أوردته باختصار شديد ليبدي لكم ـ أيها السادة ـ أن في مباحث شيخنا الإمام علماً غزيراً، وتمحيصاً فسيحاً، وتجديداً لامعاً في دروب المفاهيم والمقاصد بالإضافة إلى أن مباحثه تعد تطبيقات نيّرة، واضحة المعالم لقواعد أصول الفقه التي أَسْلس قيادها، وغاص في أسرارها، وخَبر دقائقها، وبسطها في بيان سهل أخّاذ وحلاوة ممتعة، فهو ـ ولا معارض ـ من أسناد هذا العلم الجليل وفرسان أثباته..

ولأعد بكم إلى تلك الملامح في المنهج الصديقي لأقرر إن شيخنا الإمام يدعو إلى:

٤ ـ تحرير الفقه من أصفاد الجمود، وقيود التقليد التي أفرغت فيه «قواعد» صلبة عاتية تأبى اليسر، وتخنق مرونته، وتعارض الإنصاف.. وكتابه «رخصة الطهارة والصلاة وتشديدات الفقهاء» لخير مثال لمواجهة هذه القيود المتطرفة الجامدة.

٥ ـ رفع لواء الثورة على هوى التعصب المذهبي، وصَلَف المكابرة في تقديس أقوال سدنة المذاهب التي تجانبت محجّة الصواب، لأن القصد من البحث العلمي النزيه هو ـ كما قال ـ ملاحقة الصواب ومناصرته، والأخذ بزمام الحق، ورفض الاعتلاء الأجوف الذي هو على شفا جُرف هارٍ، وبتر خيوط الباطل التي هي أهون من نسيج العنكبوت!

وكأني أسمع شيخنا الإمام يردّد مع عالم قرطبة وقاضيها الكبير الإمام منذر البلوطي:

عَذيري من قوم يقولون كلّما	طلبتُ دليلاً: هكذا قال مالكُ
فإن عدتُ قالوا: هكذا قال أَشهبٌ	وقد كان لا تخفى عليه المداركُ

فإن زدتُ قالوا: قال سَحنونُ مثلَه　　ومَن لم يقل ما قاله فهو آفكُ
فإن قلتُ: قال الله، ضَجُّوا وأكثروا　　وقالوا جميعاً: أنت قِرْنٌ مُماحِكُ
وإن قلت: قد قال الرسول، فقولهم:　　أَتَتْ مالكاً في تَركِ ذاك المسالكُ!!

يا سبحان الله! هكذا يضيع الحق ويضمحلّ الصواب بين عناد ذي كسرات، وتحدٍّ ذي هَزَرات!

٦ ـ إماطة القناع عن تحايل الفقهاء المقلدة في التنكير لقواعد قرروها هم أنفسهم في كتبهم، وعززوا بها مذهبهم، واحتجوا بها على خصومهم.. غير أنهم ـ وهذا من العجب، بل ضرب من الخذلان ـ يتنكبون عنها، ويجحدونها، ويتنكرون لها في إصرار وعُتوّ عندما تقارع قضايا مذهبهم، وتعارضها، وتخنق مسالكها، لأنهم يعلمون في يقين لا يدنو منه ظل للشك أنهم لو طبقوها على تلك القضايا لانهارت، ولتبدَّدت شذراً، ولذا نراهم يتمسكون بذيول أقوال واهية عليلة وَصِبة فيُنهضونها ويرفعونها في تحدٍّ سافر إلى مقام النصّ الذي لا اجتهاد معه!!

ومن هذا الجمود على نُصرة الباطل تولدت فروع وأقيسة قامت عليها فتاوى غالباً ما أساءت ـ وما زالت تسيء ـ إلى الفقه الإسلامي وتبديه سقيماً في حين أنه متين الأركان، وثيق البنيان.

وهذا الجمود المقيت يعدّ انحرافاً صريحاً عن المنهج الاستقرائي الإسلامي الذي ابتكره أئمتنا الأعلام ـ وفي مقدم الركب الإمام الشافعي رضي الله عنه ـ وأسسوا على أرضيته الخصبة قواعد عصموا بها عقل الفقيه من الوقوع في الخطأ أثناء استنباط الأحكام الشرعية، وحصَّنوا بها أيضاً فكره من التيه في النظرة المنطقية المجردة التي لا تخلو من مزالق وآفات وعقم.. جمود يتصلّب إزاءه غير قليل من المقلدة، وهم بموقفهم هذا إنما يقاومون ـ في غفلة وتخليل ـ ابتكاراً إسلامياً متميزاً كان الجسر القوي للنهضة الغربية الحديثة..

ومن تلك القواعد المعتبرة التي تنكَّر لها فقهاء الشافعية خاصة،

وخالفوها عندما تتعارض واتجاه مسائل مذهبهم، واحتجوا بها عندما تتوافق ومسائلهم تلك:

- تقديم الجمع بين الأدلة عند إمكانه على الترجيح.

- مفهوم اللقب ليس بحجة.

- التخصيص لا يجوز تأخيره عن وقت العمل بالعام.

- تقديم المنطوق على المفهوم عند تعارضهما.

- المنطوق إذا خرج مخرج الغالب لا يعتبر مفهومه.

- فضائل الرسول ﷺ لا تنسخ ولا تخصص.

- وجوب الرجوع إلى الأحاديث كلها الواردة في مسألة معينة لا الاقتصار على حديث واحد منها.

ولقد فصل شيخنا الإمام مراتب هذه القواعد - وغيرها كثير - ومثل لها بمسائل ونوازل وقضايا فقهية عالجها في جل مؤلفاته، وأجلاها بفنية رائقة ليس من السهل اقتفاء سبيل منهجها.

ومن ملامح التجديد أيضاً في هذا المنهج الصديقي العتيد:

٧ - تطبيع القضايا الفقهية بروح التشريع ومقاصده لتظل جذوة الحياة تُذكي معالمه وتصون محارمَه.

٨ - إنشاء مدرسة ذاتية قوامها الاستقلال الفكري في طرق البحث العلمي، والتجديدُ في سُبل التحليل والالتزام بالقواعد التي تمليها سلوكيَّة النقاش البناء، والحوار الموضوعي على غرار مدرسة أعلام السلف أمثال ابن حزم، وابن عبدالبر، وابن القيم، وابن دقيق العيد، والشوكاني، وأضرابهم رضي الله عنهم.

فمن قرأ مثلاً كتابه «حكم اللحم المستورد من أوروبا النصرانية» - وقد تشرفت بتقديم طبعته الثالثة - وهو في الأصل ردّ على فتوى الشيخ ابن

العربي المعافري والدكتور يوسف القرضاوي[1] ـ من قرأ كتابه هذا وقارن بينه وبين ما أفتى به غيره كالشيخ الإمام الأكبر عبدالحليم محمود، والشيخ عبدالقادر عطا[2]، وبين كتاب «أحكام الذبح واللحوم المستوردة من الخارج»[3] الذي ضمَّ بحوثاً لعديد من كبار العلماء كالشيخ عبدالعزيز بن باز، والشيخ محمد بن إبراهيم، والشيخ عبدالرزاق عفيفي، فقد أدرك ـ لا محالة ـ أن فتاواهم وأبحاثهم لا تَبِلُّ للظامىء غُلّته، ولا تروي جرَّته، وأن البون جدّ شاسع بينها وبين ما حرره شيخنا الإمام في مؤلفه هذا، كما تيقن أنه قد وقف على مقطع الحق وفصل الخطاب، وقد رأى كيف ترصّد شيخنا لكل دعوى فأعراها، وانقضّ على كل زعم فحصره، ثم فنّده عروة عروة، ولم يزل به حتى لم يترك بعده قالةً لقائل، ولا إضافة لمتزايد.. إنه البحث الهادىء الرزين الذي يتحلى بالصبر على معاناة الاستقراء والاستقصاء.

ولا تحسبنّي، أيها الجمع الكريم، أني ألقي هذا القول جزفاً، أو غلوّاً في مدح.. كلا ـ فبالمقارنة والموازنة يَسفِر الحق الصبيح.

وكتابه «الإهلال بجواب السؤال عن حكم أغلال» فيه ـ على صغر حجمه ـ من دسم العلم ونفيسه، وغزير المادة وفسيحها، ما يُبهر ويُمتع ويُقنع.. نراه بعد ما ذكر تضارب الأقوال في أكل الحلزون ـ أي: أغلال ـ يميل إلى إباحته معززاً ترجيحه بأدلة قواطع من النقل والعقل، ثم ينقض عن تسعة وجوه دليل الاستخباث الذي ركن إليه الشافعية واعتمدوه علّة للتحريم. ثم يناقش أقوال الحنفية ويُبطلها ببينات نواهض. ولم يكتف بهذه البراهين الفاصلة، فخنق قول الإمام ابن حزم الذي تشبث بالتحريم، وبيَّن في إسهابٍ مركَّزٍ أن صاحب «المحلى» ينكر القياس، ويجمد على ظاهر النصوص، ولا يقيم وزناً لعلل الأحكام المستنبطة، ولا لمقاصد الشريعة.

هذه دسامة علمية زخر بها أصغر كتبه، فما بالنا بمؤلفاته التي أربت

---

(١) ولذا سماه: «الرد القوي على ابن العربي والقرضاوي».

(٢) في كتابه «هذا حلال وهذا حرام» ص١٥٤ فما بعد.

(٣) صدر عن الجمعية العربية السعودية للثقافة والفنون ١٩٧٧.

على الثلاثين بين المطبوع والمخطوط وقد عالج فيها مواضيع وقضايا ذات أهمية منها ما هي لاصقة بحياة المسلم أيما التصاق.. عالجها برصانة وتأنٍ ونصاعة بيان وشروح سخية بحيث يدرك القارىء أحكامها بغير كدّ ذهن، أو إجهاد عقل، بل تأخذ بلبّه دون كَلَل نفس، وتحرّكُ فكرَه، وتبعث فيه نشوة البحث المتحرر من قيود التقليد، وتضعه برفق على مَحَجَّة الهدى وسبيل الرشاد.

والحق أن ما سطَّره يمينه لإنتاج فريد محصَّن يعدُّ بذاتيته مدرسة علمية جامعة تتميز بالموضوعية، والتحقيق، والاستقصاء، والاستقراء، والتركيز، والاستدلال، وكلها أمارات التجديد البناء.. وكأن لسان حاله يهمس إليَّ بقول أمير المؤمنين الإمام سيدنا عليّ كرّم الله وجهه:

إذا المشكلاتُ تصدَّيْن لي ... كشفتُ حقائقها بالنظرْ
وإن برقَت من مُخيل الصوا ... ب عمياءُ لا يجتليها البصرْ
مقنَّعةٌ بخفيّ الشكو ... ك وضعتُ عليها صحيحَ الفكرْ
ولستُ بإمَّعة في الرجال ... يسائل هذا وذا: ما الخبرْ[1]؟

حقاً، ما رام شيخنا الإمام معضلة علمية مقنّعة إلا تيسرت له!

وإشارة تجدر في هذا الصدد إلى أن مؤلفاته المطبوعة وأخص منها بالذكر:

- «نقد مقال»[2].
- «التيمم في الكتاب والسنّة».
- «أريح الآس في إبطال فتوى عالم فاس».

---

(١) «زهر الأكم» اليوسفي ج٣/١١٣.

(٢) هو ردّ على ما كتبه الأستاذ الكبير العلاّمة الأديب شيخنا سيدي عبدالله كنون - رحمه الله - في مجلة «العربي» عدد ١٥٢ - يوليو ١٩٧١، طبع الكتاب مختصراً من أصل مجلد ضخم، وقد تشرفت بإعداد تقديم لطبعته الثانية التي لم تر النور إذ وافى شيخنا الأجل المحتوم والكتاب ماثل للطبع.

- «تبيين المدارك لرجحان سنية تحية المسجد وقت خطبة الجمعة في مذهب مالك».

- «إقامة الحجة على عدم إحاطة أحدٍ من الأئمة الأربعة بالسنَّة».

- «مؤلف كتاب أصول التشريع الإسلامي يبطل العمل بحديث رسول الله ﷺ».

- «بذل الماعون في مسألة أماوون».

- «رخص الطهارة والصلاة وشذرات الفقهاء».

هذه المؤلفات وغيرها لم تُعقبها أقلام العلماء على اختلاف مشاربهم المذهبية إلا بخير المحامد، وجليل الثناء، على الرغم مما أثارته من صريح النقد لقواعد مذهبهم، ومن حزم الاعتراض على ضروب مزاعمهم، ومن مَطعن مندِّد بدعاويهم، وكلها مآخذ لم تخلُ في بعض الأحايين من حرارة القول! ولو أن هؤلاء العلماء - ومنهم من هو صَدْر مُبَجَّل - لمسوا في مؤلفاته غير إشراقات الجواب، وسبُل الإنصاف، وموازين القسط لما ثَنوا عنان أقلامهم عن الردّ، ولأثاروها زوابع عاتية من حولها، لكنهم جنحوا إلى السلم لما عرفوا من الحق، وكما قال ابن عباس رضي الله عنهما: لم يمل إلى المغالبة إلا من أعياه سلطان الحجة!

وبالمناسبة أذكر لكم شهادة عالم جليل فاضل، وهو المرحوم الأستاذ عبدالله الجراري، في حق شيخنا الإمام.

ذلك أنه زار ذات يوم في مهمة التفتيش المعهدَ الأصلي بطنجة، وباغت شيخنا في حصة الصباح وهو يدرس طلبة قسم الباكلوريا موضوعاً دقيقاً في أصول الفقه حول مسالك العلة، وانطلق شيخنا يجول ويصول في هذا البحث، ويرخي فيه فضل زِمامه بما حباه الله من بسطة في هذا الفنّ، وتضلُّع راسخ في عبابه، والفصل كله سَمعة الأذن.. ثم تورَّد عليه الأستاذ المفتش فجأة في حصة المساء، وكان التفسير المادة المقررة، فأبدأ فيها

شيخنا وأعاد. وحين انتهى الدرس قام الأستاذ الجراري وحيّ شيخنا، وأطنب في التنويه به، ثم خاطب الطلبة قائلاً: «لقد اقتبست من أستاذكم هذا العلامة المبرز فوائد وعلماً، فاعقدوا عليه الخناصر، وعضّوا على درره بالنواجذ، فإن مثيلهُ اليوم يكاد لا يُلفَى».. وذات أصيل صادفه في مدينة الرباط، فحياه تحية إجلال وتقدير، وقال له: «ما زلت أتلذذ بما شنف أذني من تحليلاتك واستطراداتك القيمة».

أيها الجمع الكريم.. حسبي هذه الملامح المقتضبة، وقد أوردتها مورد التنبيه على منهج شيخنا الإمام في مسار التجديد، تجديد يُنزله منزل المجتهد المطلق، لأنه قد بنى اجتهاده على الأصول المقررة، والقواعد المدونة، فيأخذ القول من الدليل المعتبر عند الجمهور، ويرفض ما خالفه وإن قال به الأئمة الأعلام، لأن الحق أحق أن يُتّبع، وبذلك فهو لا يتقيد بمذهب معين، فأينما يوجد الصواب فثَمّ وجهته. ولذا سلِمت آراؤه وأقواله من نزوات الأهواء.

وأخيراً.. فقد أطلت عليكم بعض الشيء، فمعذرة، لأن الحديث عن شيخي وأستاذي الإمام سيدي عبدالحي بن الصديق حديث يمتد بامتداد نفسه الطويل، ومن العسر أن نطوف في عجالة على مزايا إنتاجه وملامح خصائصه، فهل أسعد يوماً بملتقى معكم على مائدة شيخنا العلمية؟ ربما أحظى منكم بهذا اللقاء في كتاب أنا - بحول الله ومنّه - في صدد إعداده وقد أسميته: الشيخ عبدالحي بن الصديق مجدداً ومجتهداً.

فارحم اللّٰهم أستاذنا الكبير شيخنا الإمام العلاّمة الحجة سيدي عبدالحي بن الصديق رحمة واسعة، وتغمّد بالمغفرة والرضوان أشقاءه الأعلام قدوة العلم ومنار الاجتهاد سيدي أحمد، وسيدي عبدالله، وسيدي محمد الزمزمي، وسيدي عبدالعزيز، هؤلاء الجهابذة الخمسة الذين لم يعرف عصر من عصور تاريخ الإسلام أشقاء أمثالهم انحدروا من رحم واحد، وتوقّلوا أعلى مدارج العلم:

وكلّهم من رسول الله ملتمِسٌ ... غرفاً من البحر أو رشفاً من الدِّيمِ[1]

وبارك اللّهم في عمر إخوتهم الأجلاء العلاَّمة سيدي الحسن، وفضيلة العلاَّمة الدكتور سيدي إبراهيم والمبجل سيدي المرتضى.

يا دهر بِع رُتَب المعالي بعدهم ... بَيْعَ السماح ربحتَ أم لم تربحِ[2]

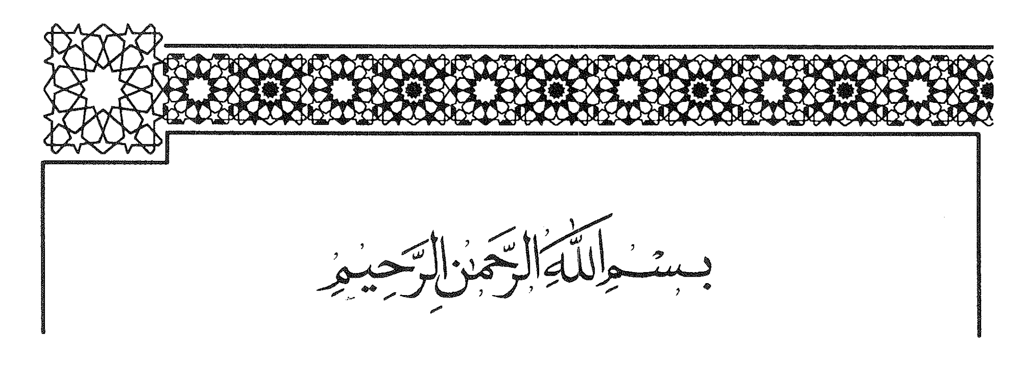
والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته..

طنجة في ٢ فبراير ١٩٩٩م



(١) «ريحانة الألبا» ج١٠٦/٢ للخفاجي.

(٢) نفس المصدر ج٥١/٢.



بسم الله الرحمن الرحيم

شيخي.. كما عرفته[1]..

أكـذا الـمَـنـونُ يـقـطـرُ الأبـطـالاَ   أكذا الزمانُ يُضعضِع الأجبالاَ[2]

أحقاً خبا من طنجة نورها؟ رباه!

أكابد نفسي وأخادعها علّها تقتنع بأن شيخي لم يفارق هذه الحياة، وأرغمها على أن تتصوَّر - ولو في عناء - أنه ما غاب، وإنما هو في رحلة قد تطول، ثم يعود! ولكن الواقع المرّ يصادمني في لحظة تطغى فيها صولة التعقل على هذيان الشعور.. وأعيد الكرّة لأنشل نفسي من مخالب الحتم، فأغالطها، وأمنيها لتتوهم - مجرد توهّم - أن شيخي في غياب عن عالم المحسوسات، وسيستيقظ، وسيستأنف نشاطه كأشد ما يكون قوةً وعطاءً:

ومـا هـو مـيْـت ولـكـنّـه   بَـشاشـةُ دهـرٍ مـحـاهـا الـزمـنُ
ومـعـنًـى خـلا الـقـولُ من لـفْـظِـه   وحُـلُـم تـطـايـر عـنـه الـوَسَـنُ

---

(١) ألقيت هذه الكلمة في الحفل الديني التأبيني بمناسبة الذكرى الأربعينية لوفاة العلاّمة المحدّث الكبير الإمام الشيخ سيدي عبدالعزيز بن الصديق، حفل نظمته الجمعية المغربية لأساتذة التربية الإسلامية، وجميعة الجسر للثقافة والفن والرياضة.. والجمعية المغربية لمفتشي التعليم الثانوي.. وجمعية المديح والسماع، وذلك بقاعة المحاضرات.. قصر المولى عبدالحفيظ بطنجة يوم ١٩ شعبان ١٤١٨ موافق ٢٠ دجنبر ١٩٩٧.

(٢) البيت للشريف الرضي وهو مطلع قصيدة في «يتيمة الدهر» ج٣/٣٣٢.

هي لحظات امتدت بي في غفلة الخيال، ثم صحوت.. وإذا بي أجدني أهرع إلى مؤلفاته أتصفحها في لهف، وفي حيرة أيضاً، وأتنسَّم منها جولات أنفاسه، وجرأة أقواله، وغوادي مساجلاته.. وأظل ما شاء الله في سبحات النعيم بين أفكاره وتوجيهاته وتنبيهاته، بين حججه البتراء وأدلته اللوائح.. وإذا بخاطر يجول برّاقاً في خلدي على امتداد سنوات قد نيَّفت على الأربعين حيث الدروس هناك بمنارة العلم بالزاوية الصديقية، في «بيت السطح»، وحيث الرحلات المتكررة إلى أوروبا ـ وحيث زيارات الأولياء والصالحين ـ وحيث النزهات.. ثم عقبتها فترة نقاهة.

ورجعت إلى نفسي ـ بعد ما أفاءت إلى رشدها ـ لأتصور شخصية شيخي كما أعرفها لآنس بها في لحظات غياب مرير.. هي شخصية ذات جوانب متميزة نادراً ما تتلاقى إلا في الأفذاذ من العلماء الأبطال:

ـ كان قوّالاً بالحق، لا يداهن الباطل، ولا يغُضّ الطرف عنه، لم يُعقد الصمت لسانه قط أمام مجارف الأحداث المخزية التي تُصبُّ صبّاً على من أرغموا أن يعيشوا على هامش الحياة!

ـ كان يرى الحياة ساحة للوغى والمعارك والنضال، وليس موطناً للسكينة، ولا واحة للدعة، فكان يقول لي: «من استهوته زينة الحياة الدنيا وبهرجتها فهو ميت قبل أن يموت!»، ويقول: «من ترك الحزم فبشره بطول التعب»!

ـ كانت له واعية باطنية، وحاسة دقيقة بمسالك الأحداث، يمحِّصها تحت مجهر تجاربه وفراسته، فيستخلص مراميها وكأنه يستشف نتائجها من سِتْر رقيق!

ـ كان منذ حركة مهده إلى سكون لحده ذا شعلة ثائرة فائرة على الطواغيت «المقنعة» بخمار العصرنة والتغريب والعولمة والتجديد وحرية الرأي.. رماهم بصريم نقده، وغزير براهينه، فشقي معارضوه في هدم صرحه رغم ما نسجوا حوله من صنوف الأراجيف، وضروب الأباطيل، فما صغُر، وما انكسر، وما نكل، وقد اعتقل ـ فكأن لسان حاله يردد:

أنا إن عِشتُ لستُ أَعدَم قوتًا		وإذا متّ لست أعدم قبرًا
هِمَّتي همة الملوك ونفسي		نفسُ حُرٌّ ترى المذلَّة كفرًا

ـ كان يروم في خطبه، وفي أحاديثه، وفي مجالسه إنعاش فورة الإيمان من إغفائها، وإيقاظ صولة العزيمة من رقادها «ليجعل من خشية الله وحده قانون وجود الإنسان على الأرض».

ـ كان يتحدث بإفاضة شائقة، ويتكلم بكل وجدانه، ويشيع من حوله جاذبية روحية تمسك بمفاتيح القلوب، فتملأ النفوس روعة، والعيون إكباراً، والعقول إجلالاً.

ـ كانت في ألفاف مقالاته التي تنشر في صحف سيارة صراحة نادرة، وصيحات إيمانية تنادي: ألا فليعلم الناس!

ـ كان يصون العلم، فصانه العلم، وكان يعظِّم الشرف، فعظَّمه الشرف.

ـ كان درعاً واقية، وحصناً متيناً على حمى السنّة المطهرة، ينافح عنها، ويجدّ في أن ينير حياة المسلم بتعاليمها وهداها، لأن فساد الدين في طرح السنة جانباً، وفي نبذها جرأة على الله عزَّ وجلّ.

ـ كان يعيش في عزة إيمان، وعلوّ همة، وقوة نفس، قد تعتريها في بعض الأحايين صولة من القلق والضجر، لكنها صولة تفجرها العزة بالكرامة، وضجر يدفقه الشعور بالحق.. هي خصال كانت تطغى على سلوكه، وكأنها رمز معالم سيرته، والرقيب الغيور عليه، فلا تحيد عن قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

عزيزٌ على نفس الغيور اتضاعُها		وعارٌ عليها أن تميل لذلَّةِ
زمام المراقي في التَّسامي إلى العُلا		وخوضِ المنايا لاقتناء المعزةِ[1]

---

(١) هما لحفني ناصف بك في «مجمع الحكم» ٣٢٩.

كانت أخلاقه فضائل، وفضائله أخلاق.. هي مخايل تُضفي عليه هالة من الهيبة والوقار، وتقود إليه مودات القلوب لأنه كان ـ وهو الربوة الشماء ـ عطوفاً ألوفاً جواداً متواضعاً تواضع العلماء، رقيقاً لا يكاد يملك سوابق العبرات..

وهنا أريد أن أعرج على إبراز جانب من هذه الخصال تجسمها أحداث عايشتها خلال رفقتي له في سفر طويل عبر أوروبا سنة ١٩٦٨[١]، دونت مراحله في كتابي «رحلات».. والرجل في السفر هو غيره في الحضر.. هي أحداث ثلاثة أقف إزاءها وكفانيها دليلاً على مميزات هذه الخصال التي طبعت شخصيته بأخلاقية أفذاذ الرجال..

في مدينة «إسكوريال» ـ بإسبانيا ـ حيث مكتبتها الشهيرة التي استقطبت اهتمام شيخي مخطوطات نادرة كـ «أمثال الحديث» للرامهرمزي[٢] و«الرؤية» للدارقطني وغيرهما، وفي فندق «كالا» تعرفنا على طبيب جذبته حلة شيخنا الإمام الأنيقة، وجرى بينهما ذات ليلة حديث سمر غاية في الإمتاع، حام حول مقارنة الأديان، والغاية من الوجود، والإرادة الإنسانية بين القضاء والقدر، وتطورات الأحداث في الشرق العربي، والأبعاد الاقتصادية بين المغرب وإسبانيا، وغيرها من القضايا الشائكة الشيقة التي يحلو الكلام فيها ويلطف.. وكنت صلة الوصل بين الرجلين، واتفق أن ألمّ بشيخنا الإمام وجع في البطن، فشخص له الطبيب المرض، ومدّه بأدوية، واهتم بصحته في إنسانية عالية.. وهنا بيت القصيد إذ لما أردت أن أسدد أتعابه أبى عليّ في امتناع شديد وقال: «أبداً، لا يليق بي أن أتقاضى شيئاً من رجل عربي نبيل عالم سعدت بمعرفته فبجلته وأكبرته».

هذه واحدة.. وأخرى أننا عندما وصلنا إلى حدود ألمانيا من قرية «زوزْفادُولْف» بشيكوسلوفاكيا واجهنا جمركي في صلف وخبث قائلاً:

---

(١) دام هذا السفر من ٦ ماي إلى ٨ يونيو ١٩٦٨.

(٢) طبع سنة ١٩٨٨ بتحقيق أحمد عبدالفتاح تمام بمؤسسة الكتاب الثقافية، وقبله أخرجه الدكتور عبدالأعلى الأعظمي.

«ارجعوا من حيث جئتم، لا تقبل الجالية العربية في ألمانيا!!» صدمتنا هذه المفاجأة المباغتة، وارتبكنا، وإذا بجمركي آخر ينادي على صاحبه بعد ما فحص جوازاتنا: «يا هذا، خلِّ سبيلهم، إنهم من المغرب!!» وهنا احتدم شيخنا وتمعَّر وجهه وصاح في سورة غضب: «أوَ ليس المغاربة عرباً؟! أوَ ليسوا مسلمين؟! تباً وخزياً لتَرحاب نازي ماكر لحاه الله وقبَّح سعيه وقطع دابره!!» وفزع إلى سبحته ليستريح بذكر الله، ويطمئن قلبه..

وثالثة.. كان الوقت زوالاً، وشوارع مدينة «فرانكفورت» الألمانية تموج حركة.. وفجأة حدَّق إلي شيخنا بعينه وقد اعتلت وجهه صُفرة مشرقة، تلك اللمعة التي تعتري مُحيّا العارفين بالله، وقال لي ـ وكنت قد امتلأني والله نفس الشعور ـ: «لنذكر الله».. ورفعنا أصواتنا بالتكبير والتهليل، والكل ينظر إلينا في تعجب، وفي سخرية ونكير أيضاً! هي لحظات غمرت نفوسنا بدفْءٍ روحي، وحلاوة إيمان قلما يلامسها إحساس، ويلاطفها شعور.. والتفت إليَّ في ابتسامة رقيقة ولمحات الخشوع تتهلل على جبينه وقال: «اذكر الله حتى يقال: مجنون!».

أيها السادة الكرام.. إذا ما سأل سائل عن شيخنا الإمام قيل له: هو المحدث الكبير.. العلاَّمة المتبحّر.. المجتهد الصدر.. الصوفي الزاهد.. الفقيه الضليع.. الخطيب الثائر.. الكاتب النحرير.. حقاً هو كل هذا، وأكثر من هذا أيضاً.. هو ـ كما عرفته ـ لغوي بارع، وناقد ذكيّ، ومتكلم بصير بالمذاهب والنِّحل، وجوَّال واعٍ بأحداث التاريخ وسير أعلامه.. ولربما أسأل: وكيف يا ترى لمست فيه هذه المميزات السامقة؟

هنا أحب أن ألمح إلى أن من أخصب أوقات التحصيل ـ طلباً للعلم ـ تلك السنوات التي قضيتها مع شيخنا الإمام بالزاوية في جلسات خاصة تفردت بها معه بعد صلاة الفجر على امتداد فصل الشتاء في أواخر الستينات. قرأت عليه جزء من «شرح نهج البلاغة» لابن أبي الحديد، ثم «الأمالي» لأبي علي القالي، ثم «غرر الفوائد ودرر القلائد» المعروف بأمالي المرتضى.. وخلال هذه الدراسة في الفكر الشيعي والاعتزالي ـ وكلاهما

على خطٍ متوازٍ ـ لمحت فيه براعة اللغوي، وذكاء الناقد، وتبصر المتكلم، ودقة المؤرخ.. وكان بعد شرحه لمغالق النصوص يملي عليّ آراءه، وتصويباته، وتحليلاته.. وما زلت أحتفظ ببعض هذه الدرر محررة بخط يده.. وكما يقول ابن عطاء الله: «ليس شيخك من سمعت منه، وإنما من أخذت عنه».. وأنا ـ والحمد لله والشكر ـ قد سمعت منه وأخذت عنه!

وليعلم أن شيخنا الإمام في مجالسه العلمية «الجَفَلى» ـ حيث كان يدرس لنا بالزاوية كتاب «الباعث الحثيث» في شرح اختصار علوم الحديث لابن كثير ـ هو غيره في مجالسة الخاصة حيث كان ينطلق على سجيَّته يصول ويجول دون قيد ولا حرج في علوم يقتضيها المقام وتدعو إليها النكت العلمية البارعة..

أيها الحضور الكريم..

لو أني أفضت في ذكر جوانب شخصية شيخنا الإمام لطال بي عنان الكلام، ومهما أقول وأقول فلن أستوفي محيطها ولو حاولت.. ولذا أكتفي بهذه اللمحات السريعة التي أردتُها ناطقة في صدق بما تثيره الذكرى عن رجل كان مثالاً للفضيلة.. لمحات ما كنت أريد بها أن تكون كلمة رثاء، وما كانت لتكون، لأن شيخنا الإمام أعز من أن تنحدر في ذكراه دموع الأسى، وأكرم من أن يتصايح عليه عويل الفقدان! هو حيّ بيننا ببنات فكره التي أربت على مائة وخمسين مؤلفاً، حيّ بمواقفه الشجاعة، حيّ بفضائله السرية.. وكفاه هذا افتخاراً..

نزلت به وهو في أخصب نشاطه وعكة قاسية حجبته عن أحبائه، ومريديه وأصدقائه أشهراً معدودة، وكان في القلوب رجاء وفي النفوس أمل، وعلى الألسن دعوات بالشفاء العاجل، لكن المرض كان أعتى وأشد، فسار به رويداً إلى رحاب الله، فطوته المنية إلى حيث الرحمة والمغفرة والرضوان..

أيتها النفس أجملي جزعاً ... إن الذي تحذرين منه قد وقعا

إي نفسي:

كـان الـذي خـفـتِ أن يـكـونَـا   إِنَّـا إلـى الله راجـعـونَـا[1]

شيخنا الإمام.. سلام عليك ممن عرف جليل قدرك، وناله عريض فضلك فطوى قلبه على ودّك واحترامك.. وتحية ممن توفر خالص برك عليه، وامتد جميل إحسانك إليه فقام بواجب شكره لك وثنائه عليك.. وعرفان ممن كنت له ملاذاً وركناً وسنداً..

رحمك الله، وأكرم مثواك، وأسكنك جوار النبيّئين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا..

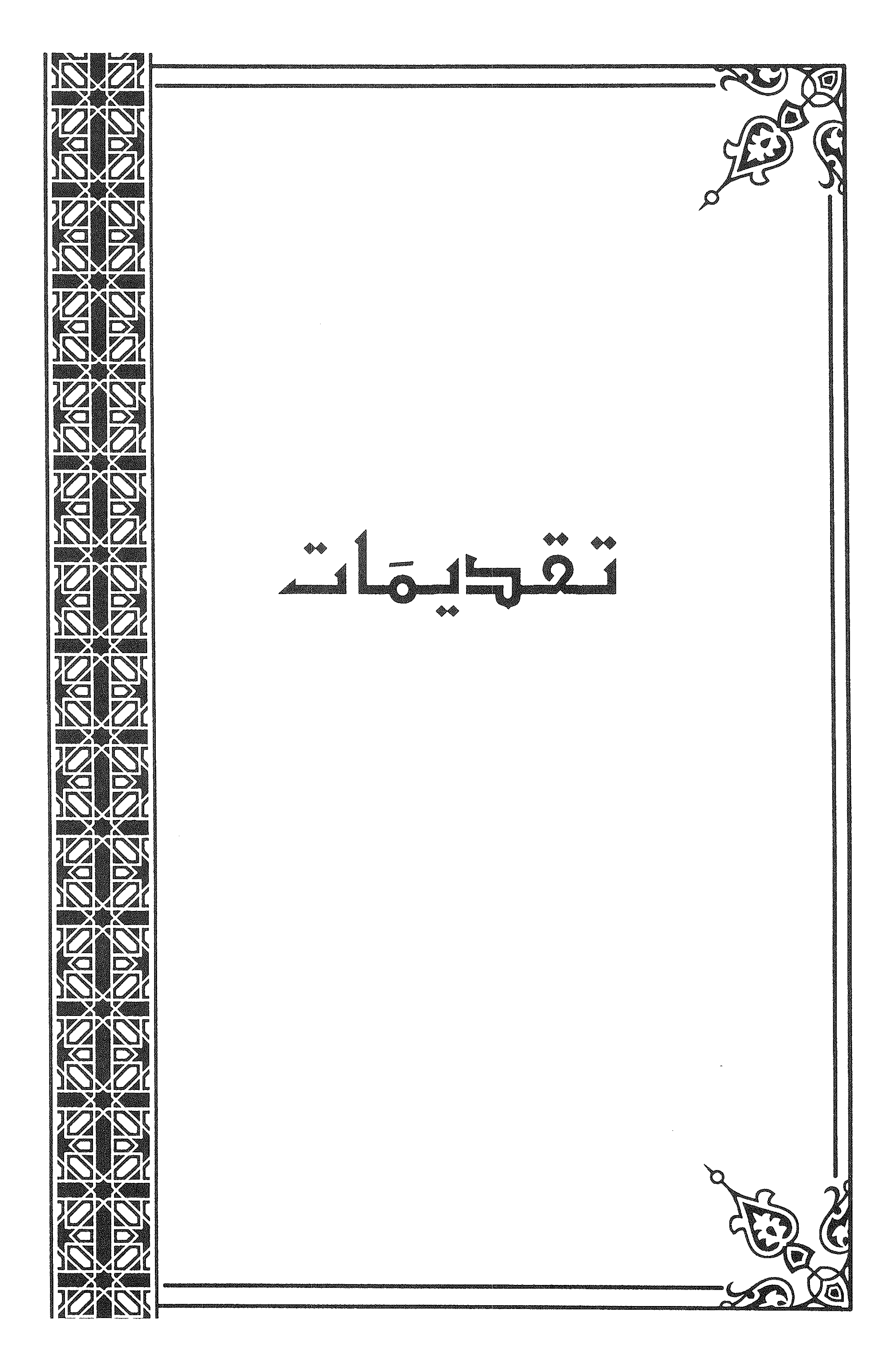
والسلام عليكم ورحمة منه تعالى وبركات...

طنجة في ٢٠ دجنبر ١٩٩٧م



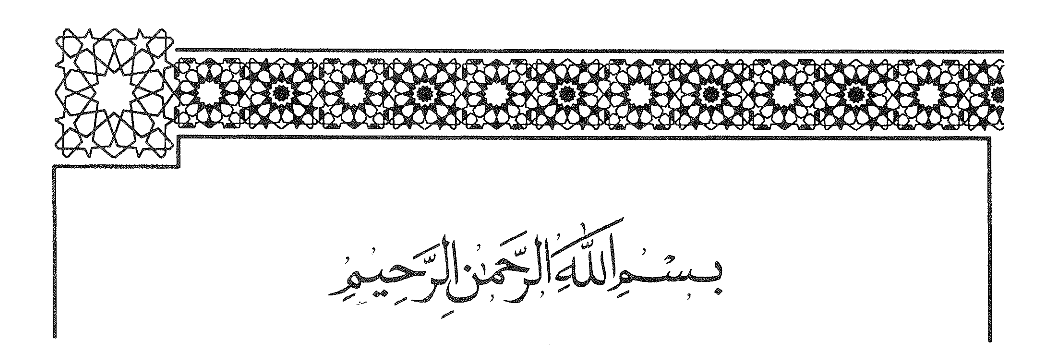
(١) هو لأبي محمد الصميعي في «أخبار الشعراء» للصولي ٢٠٣.





تقديمات





شذرات عن طنجة
من خلال «جُؤنَة العطّار» للشيخ أحمد بن الصديق[1]

في منتصف سنة ١٩٥٦ بدأت دراستي العتيقة في الزاوية الصديقية - منارة العلم والهدى - على العلاَّمة الإمام الشيخ سيدي عبدالحي بن الصديق رحمه الله، فظَفِرت بإناء علم مُترَع ينساب عُذوبة على حلقاته التي يَلوح منها مقطع الحق العتيد عند المقارنة في أنصع بيانه، ويتدفق فيها فصل الخطاب عند الترجيح في أبهى شموخه، كما يَرشَح سلساً سائغاً على جلساته التي يقودها مقاداً سهلاً طيّعاً لا التواء فيه ولا غموض.. وأكبرت الشيخ، ولازمته، وتوثقت بيننا عرى الصداقة الخالصة على مدى أربعة عقود كان لي خلالها أباً روحياً حتى أفضى إلى دار الكرامة.

وكثيراً ما كنت أسمعه يقول في إعجاب: قال الأخ في «جؤنة العطار»، وذكر الأخ في «جؤنته».. فقويت عندي الرغبة في الاطلاع على هذا الكتاب، فدلّني على نسخة منه بيد الشيخ الجليل العلاَّمة سيدي عبدالله

---

(١) أحمد بن الصديق (١٩٠١ - ١٩٦٠) من كبار العلماء الحفاظ الأثبات المجتهدين، درس بالأزهر وتوفي بالقاهرة، حياته حافلة، له أزيد من مائتين وخمسين مؤلفاً، بعضها في أجزاء من تفسير وحديث وفقه، وتصوف، ونقد وتراجم وغيرها، وجلها مخطوط.

التليدي ـ بارك الله في عمره ـ الذي استأذنته في نسخها ـ وهي بخط يده ـ فأذن في ترحاب ومكّنني منها.. وكنت أرجع عند تحقيق النص من تدعيات الأخطاء إلى بعض أمهات كتب الحديث والتراجم والأدب، وأقارنه بمخطوط الخزانة العامة بتطوان، ثم أنقّحه أخيراً مع شيخنا الإمام بحضور ثلة من الرفقاء. فكان أحدهم يسرد أصل مخطوط الشيخ التليدي وأنا أتابع في دفتري ما نسخت بخط يدي، وشيخنا يرشد وينبّه. وكنت أضع لكل فقرة من فقرات «الجؤنة» ـ وقد بلغت حسب ما انتهيت إليه من عدد نصوصه سبعمائة وواحدة وستين فقرة تختلف طولاً وقصراً ـ أضع لها عنواناً يلائم فحوى مضمونها لأن المؤلف ـ رحمه الله ـ اكتفي بأن يصدرها بِلَفْتَةٍ يسميها: فائدة، أو غريبة، أو طريفة، أو لطيفة.. وطبعت الجزء الأول والثاني على الساحبة سنة ١٩٨٢، ولم أتمكن من طبع الجزء الثالث لأسباب حالت دون هذه الرغبة خاصة وقد ذاع أمر الجزءين!

وبالأمس القريب بشرني صديقي الدكتور عبدالعزيز خلوق التمسماني بأن مجلة «دار النيابة» الغراء ستستأنف ـ قريباً بحول الله وفي حلة جديدة ـ مسيرتها العلمية بعد فتور أدركها وطال مداه، وقد ترك فراغاً داجناً في حقل الإصدارات التاريخية عن المغرب المعاصر.. بشرني وطلب مني أن تكون لي في عددها المقبل كلمة عن الزاوية الصديقية. فجالت في خاطري اختيارات قد تنساق مع المنهج العلمي الذي سارت «دار النيابة» على دربه من أبحاث، ودراسات، وعروض، وتعريفات، وتحقيقات، واستقر عزمي ـ آخر المطاف ـ على أن أجلي عن كتاب «جؤنة العطار» غبار النسيان، وقد أودع فيه مؤلفه حافظ العصر الشيخ الإمام سيدي أحمد بن الصديق ـ أسكنه الله أعالي الجنان ـ مواهبه الحديثية، وأثراها بملاحظاته وتعقباته وتعليقاته على الكتب والحياة، وصبَّ فيها مساجلاته ـ وما أخصبها! ـ وأفرغ سجاياه ومشاعره في غير قليل من المواضيع الحرجة الحاذقة.. هذا الإمام النحِّرير الذي تحلّى بطهارة المروءة، وزهد العفة، وعزة النفس لا يعنو لهوان، ولا يصبر لغضاضة.. ائتمرت به نوادب الدهر وصرفه، فأذكت عليه دوائر الاستعمار عيوناً راقبة، ونصبت له المراصد حيثما حلّ وارتحل..

فأوذي وسُجن.. وأساء إليه قومه، فلم يُغْضِ على القذى - وهو ذو حِفاظ - فغضب في حميَّة، واستل قلمه البتار، واقتحم المعترك، فكانت مما كان قصيدته تلك «بعرة النعجة» التي ثار النقع حولها ردَحاً من الزمن، وتجدد الجدل حولها من فترة قريبة! وفي «الجؤنة» إشارات إلى بعض معاركه القلمية واللسانية التي أصبحت طرائف تاريخية تروى اليوم دون إثم ولا حرج..

ومن هنا مالت بي الرغبة - والشرط أملك - إلى مراجعة هذا الكتاب الممتع، لأنتَجف شذرات ونتفاً من وقائع لها صلة تاريخية وعلمية بمدينة طنجة وببعض أهاليها رحمهم الله. وآثرت أن أبث النص بحرفه كاملاً غير مبثور، وأن أتجنب فضول التعليقات. ونزوة الاستدراكات، وهوى الإشارات حتى لا أقحم نفسي بين سجية المؤلف وقابلية قارئه إلا ما كان من بيانات طفيفة يلحّ عليها المقام..

فلْنُصغِ إلى شيخنا الإمام الحافظ سيدي أحمد بن الصديق يحدثنا فيقول:

❊ ❊ ❊

تاريخ الفقيه الغسال عن طنجة(١)

ألّف صديقنا الحاج الغسال الطنجي - رحمه الله - رسالة في تاريخ طنجة في نحو ثلاث ورقات أو أربع سماها: «إيضاح البرهان والحجة على

---

(١) طريفة رقم ١٤١ من تحقيقي.
وأشير إلى أن في العدد الأول لمجلة «دار النيابة» كشفاً عن مخطوطات العالم الفقيه السيد الحسن الغسال (١٨٦٦ - ١٩٣٩) التي بلغت واحداً وعشرين مؤلفاً، وقد صرف الدكتور عبدالعزيز خلوق التمسماني عنايته بها، فنشر منها إلى حد الآن:
- «الرحلة الطنجوية الممزوجة بالمناسك المالكية» ١٩٩٨ - مطبعة فضالة بالمحمدية - وقدمت لهذا الكتاب عرضاً نشر في «جريدة طنجة».
- «إيضاح البرهان والحجة في تفضيل طنجة»، مجلة «دار النيابة» ع١٠/١٩٨٦.

تفضيل ثغر طنجة» ذكر في أوله أسطراً دون نصف ورقة في وجه تسميتها طنجة، وفي أول من بناها، ثم لم يعدل إلى ذكرها فضلاً عن براهين تفضيلها، بل ذكر أن أهلها مبتلون بسوء الحظّ من بين سكان المغرب، وجلب بعض الأشعار[1] والنقول في سوء الحظ، فتم بذلك تاريخ طنجة وإقامة البرهان على تفضيلها!!

❋ ❋ ❋

مؤلفات الفقيه الغسال تجمع كلها في ظرف[2]

رأيت في ورقة بخط الغسال المذكور أسماء مؤلفاته، فرأيت من بينها الرحلة إلى جبل طارق من طنجة، وهو سفر ساعة ونصف إلى ساعتين في البحر، والمدينة فيها شارع واحد يقطعه المرؤ في بضع دقائق، ومع ذلك فليس بها مسلم، ولا مآثر، ولا ما يلفت النظر بالمرة، وإنما هو جبل دائر به البحر من جميع جهاته إلا من جهة واحدة، فإن لم يسؤه في هذه الرحلة سوء الحظ ـ كما قال في تاريخ بلده ـ فما أدري ما قال!

وأغرب من هذا أنه ذكر في تلك الورقة أيضاً أنه اختصر حزب الجزولي المعروف عند المغاربة «بحزب عيساوة»!

وكان معنا مرة في مجلس فجرت فيه مذاكرة في مسألة فألف فيها تأليفاً وجعله داخل ظرف من ظروف الجوابات المعروفة، وبعث به إلى بعض أصدقائه.. ومن ذلك تعلم مقدار جُرم مؤلفاته التي لو جمعها كلها في ظرف لوسعها!!

❋ ❋ ❋

---

(١) يخلو النص المنشور للإيضاح من الأشعار التي أوردها المؤلف. ولعل في النسخة التي وقف عليها الشيخ سيدي أحمد بن الصديق إضافات لم توجد في هذا النص.

(٢) طريفة رقم ١٤٢.

أحد علماء طنجة يعرف الحيوان الناطق بأنه المصوت[1]!

كنت في أيام الطلب في مجلس مع بعض علماء طنجة، فجرى ذكر قول المناطقة في تعريف الإنسان: إنه حيوان ناطق، فأردت اختبار معرفتهم، فقلت: ما مرادهم؟ فقالوا: المتكلم. . فعرفتهم بأن مرادهم به المفكِّر بالقوة العاقلة. . فأبوا كل الإباء من تسليم هذا، فمررت في طريقي بدكان عالم منهم يدرس دائماً «الآجرومية» و«الاستعارة» والنصف الأول من «الخلاصة»، وربما درس «السلم» في المنطق أيضاً، فقلت له: ما مراد المناطقة بقولهم في تعريف الإنسان بأنه حيوان ناطق؟ فقال: مصوت!! فقلت له: قد وسعت الدائرة وزدت في الطنبور نغمة!

❋ ❋ ❋

الفقيه الزوضي وجرأته[2]

حدث صديقنا الفقيه محمد بن العياشي سكيرج[3] الفاسي نزيل طنجة قال:

«زرت الفقيه عبدالرحمن الزوضي[4] الطنجي يوم عيد شوال سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة وألف وهو يذاكر بالتاريخ ويدعي معرفته، فقلت له: من عجائب الاتفاق ما وقفت عليه في ترجمة كتب التاريخ الألمانية للمغرب بالعربية أن في سنة خمس وثلاثين ومائتين وألف كان حاكم طنجة الحاج عبدالسلام بن عبدالصادق، وهذه سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة وألف وحاكمها أيضاً الحاج

---

(١) طريفة رقم ١٤٣.

(٢) طريفة رقم ١٤٤.

(٣) أورد الدكتور عبدالعزيز خلوق التمسماني في كتابه «بحوث ونصوص حول تاريخ المغرب المعاصر» ص١٠٨ بحثاً مفيداً مجيداً عن مخطوط الفقيه الأديب المترسل محمد بن العياشي سكيرج (١٨٧٥ ـ ١٩٦٥).

(٤) عبدالرحمٰن الزوضي (ـ ١٩٣٤) عالم فقيه مشارك، له إلمام بالطب، ولوع بالطرب الأندلسي، درس في القرويين، وعمل كاتباً ممتازاً بدار النيابة، اعتزل الوظيفة ولزم بيته سنوات، فكثر عليه الزوار من الأعيان والأهالي، وكان يفتي فيما يعرض عليه من النوازل، قبره بغرسة ضريح بوعراقية بطنجة.

عبدالسلام بن عبدالصادق، فتوافق الحاكمان في الاسم، واسم الأب، والوصف وبينهما مائة سنة! فاستعجب من الاتفاق، ومضينا في الحديث، وإذا الحاكم الحاج عبدالسلام المذكور جاء لتهنئته بالعيد، فلما جلس التفت الزوضي إليه وقال له: سأفيدك بنكتة تاريخية عجيبة لا يعرفها أحد، وحتى هذا ـ وأشار إليَّ ـ الذي يدعي معرفة تاريخ طنجة لا يعرفها أيضاً! ثم ذكر ما حكيته له.. قال: فأبلست من وقاحته وصفاقة وجهه»!

❋ ❋ ❋

السَّنوسي والدّكّالي من القرنيين[1]

كان الشيخ عبدالله السنوسي[2] الفاسي نزيل طنجة ودفينها يميل إلى الاجتهاد والعمل بالدليل، ويتمذهب بمذهب القرنيين في الأولياء والصوفية وينكر عليهم. وكان لا يسود أحداً، وإذا سمع من يسود ولياً أو عالماً يزجره عن ذلك ويقول له: إنه شرك، والسيد هو الله تعالى.. وكان له خادم من طلبة أهل طنجة رافقه في سفرة سافرها متوجهاً إلى السلطان مولاي عبدالعزيز لأنه كان يكرمه. ولما قرب من مدينة فاس ونزل ببعض المنازل كتب إليه كتاباً يعلمه بقدومه، وبعدما كتب ديباجة الكتاب بدا له، فترك الديباجة ورمى بها إلى الخادم ليحرقها، ثم شرع في كتاب آخر.. فلما قرأ ذلك الخادم الديباجة وجد فيها: إلى سيدنا الإمام العادل! إلخ.. مخاطبة الملوك، فاحتفظ بها عنده، ثم بعد مدة وهو جالس معه صار يذكر بعض الأولياء باسم السيادة جهاراً أمامه، فغضب منه وقال له: ألم أنهك أن تسود مخلوقاً، وأقل لك إن السيد هو الله

---

(١) لطيفة رقم ٤٣٧.

(٢) عبدالله السنوسي (ـ ١٩٣٠) علاَّمة محدّث مجتهد، كثير الإنكار على المقلدة، شديد الوطأة على المبتدعة والمتصوفة، رحل إلى الشرق، انتقل من فاس إلى طنجة مع السلطان المولى عبدالعزيز بعد خلعه تمسكاً ببيعته له. درّس صحيح البخاري في الجامع الكبير ومسجد مرشان حيث دفن بغرسته.

وحده؟! فقال له الخادم: أنا إنما اقتديت بك لأني رأيتك تسود المخلوق! فقال له: كذبت، ومتى سمعتني أسود مخلوقاً؟ فأخرج له الكتاب بخطه، فلما رآه صار يصيح به: اخرج عني يا خائن! فذهب عنه وفارقه..

ونحو هذا تقريباً وقع من شعيب الدكالي[1] الوزير، فإنه كان على مذهب القرنيين، وفي آخر عمره ضرب بالفالج، فالتجأ إلى زيارة الأولياء والتوسل بهم! ثم نزل به الحال إلى أن صار يفعل ما يفعله جهال عوام النساء من كتابة الحروز حتى عند أحبار اليهود! وذهب ما كان يصرصر به على الكراسي طول عمره! فاعتبروا يا أولي الأبصار! بل ولما زال من الوزارة ذهبت إليه يوماً فصار يذكر لي أنه صوفي درقاوي كوالده وجدّه، وأنه قال في هذه الأيام لحفيد مولاي العربي الدرقاوي: نحن خدامكم من قديم، وها أنا الآن ترى نزعت من الوزارة مع أن المقري الجاهل عامي رئيس الوزارة، فأين بركتكم تعود معنا حتى أرجع للوزارة وأنا أفعل وأفعل!! فصرت أتعجب منه غاية وهو يحكي لي هذا بلسانه الفصيح مع ما كنت أسمعه منه أيام وزارته وهو على الكرسي من الاستهزاء بأهل الطرق والطَّنْز عليهم! ولله في خلقه شؤون.

❁ ❁ ❁

بين المؤلف وشقيقه سيدي عبدالعزيز حول شرح «لثم النعم»[2]

لما نظمت «حكم» ابن عطاء الله رضي الله تعالى عنه وسميته «لثم

---

(١) أبو شعيب الدكالي (١٨٧٨ ـ ١٩٣٧) علاّمة حافظ، التحق بالأزهر ودرّس به، كما درّس بمكة وأعطي الفتوى في المذاهب الأربعة، وأيضاً بجامع القرويين، عمل قاضياً بمراكش ووزيراً للعدلية والمعارف الإسلامية، توفي في الرباط.

(٢) طريفة رقم ٢٨١.

النعم»[1] بعثت به إلى شقيقي عبدالعزيز[2]، وأرفقته بقصيدة طلبت منه فيها أن يشرحه، واستعملت فيها بعض الألفاظ العامية بقصد المزاح والمباسطة، فقلت:

إليك جمالَ الدين نظمي للحكمْ ... به تمَّ يسري إذ لَثَمت به النعمْ

وما كنتُ أرجو أن يكون كماله ... ولكن به منَّ الإله وقد أتمْ

فإن كنت كَوّازاً كما قد أظنه ... فجرِّدْ لكتب الشرح منك له القلمْ[3]

ولا تكن مِعْجازاً كَسولا كشارب ... لكاس الآتاي بعد أكل لحم الغنمْ

يرى كل يوم فسحة بعشية ... محتَّمة فرضاً بها الله قد حكمْ

بلى، كن نشيطاً تَمْضِ في العلم بالذي ... تفوق به الأقران كالطود والعلَمْ

ولا سيما علم التصوف إنه ... إلى الخير مفتاح به تدفع النِّقَمْ

فإن كان مصحوباً بذكر دليله ... من السنة الغراء تمَّت به النعمْ

فجرد سيوف العزم وانبذ عوائقا ... وبادر بما تشرحه من نظمي «الحكَمْ»

وإن كنت مختاراً لما قد أقوله ... فسمِّه بعد العزم منك فتح الحكمْ

وإن لم يكن منك النشاط فإنني ... لتصنيف علْم ناشطٌ راسخُ القَدمْ

وما ذاك من حولي ونفسي وقوّتي ... ولكن بما مَنَّ الإله وما قسمْ

ودعني لترتيب لها متوجهاً ... بشرح له إن كان في الأزل انقسم

ولا تُبدِ تطويلاً مُملاً وإنما ... تحلّ به الألفاظ حلاًّ به يفهمْ

---

(1) «لثم النعم بنظم الحكم» في سبعمائة وسبعة وستين بيتاً، فرغ منه يوم الإثنين ١٠ ربيع الثاني ١٣٧٠ وهو بسجن أزمور، وعندي نسخة مصورة بخط المؤلف، وللعلاّمة الشيخ سيدي محمد البقالي شرح لم يتم على هذه المنظومة، وبيدي ملزمة منه مصورة.

(2) عبدالعزيز بن الصديق (١٩١٩ ـ ١٩٩٧) علاّمة محدّث كبير بحاثة واسع الاطلاع، درس في الأزهر على كبار المشايخ، له مواقف حازمة مقدامة، ترك إلى عديد من مقالاته في الصحف والمجلات أزيد من مائة وخمسين مؤلفاً في الحديث والفقه والتصرف وغير ذلك من فنون العلم.

(3) كواز بالعامية = مقتدر حاذق.

ويكفي ابن عباد وما لحواشيه ... وشرح لجدِّنا الذي يوقظ الهمم[1]

فإن تم فاعلم أنني سأزينه ... بحاشية والأمر سهل، فقل: نعم

فإني فاعل في أقرب مدة ... فهيئ لها الأسباب منك ولا تنم

واذكر في شرحي الحديث مجردا ... من العَزْو كي تعزوه أنت بلا وهَمْ

فقل: ما تريد الشرح أو أنت رائد ... لحاشية، أو قل: أميل إلى العدمْ

لأني مشغول عن الكل منهما ... بشأني وشأن البيت والزَّلْط قد ألمّ[2]

فكتب إليَّ مجيباً بقوله:

أسوق سلاماً عاطراً وتحية ... مباركة تنحو الإمام الذي نظمْ

إماماً تود العين رؤية وجهه ... ويسعد مني الفم إن كفَّه لثمْ

فقد صار قلبي من تغيب وجهه ... وطلعتِه الغراء لحماً على وَضَمْ

لشدة حزني والأسى وتحرُّقي ... فهل مع هذا يمكن الشرح للحكمْ؟

ولكن إجابة لطاعة أمركم ... سأشرع في شرح لمن لثم النعمْ

أحلّ به لفظاً تعذَّر فهمه ... وأبدي به معنىً على القارىء انْبَهمْ

وأبذل مجهودي بذكر دلائل ... من السنة الغراء تشهد للحكمْ

أجنِّبه التطويل في اللفظ مثلما ... ذكرتُم فإن الجيْل ليس بهم هِمَمْ

ولست كما قلتم كسولاً كشارب ... لكأس الآتاي بعد أكل لحم الغنمْ

وليس له هَمٌّ سوى ملء بطنه ... مع العصبة الخرقاء بالحَيل الأَشَمّ

---

(١) محمد بن عباد النفزي الرندي أبو عبدالله (٧٣٣ ـ ٧٩٢ = ١٣٣٢ ـ ١٣٨٩) وُلِد برندة في الأندلس وتوفي بفاس، كان يقال: مما منّ الله به على العباد شرح الحكم لابن عباد. وسمى شرحه «غيث المواهب العلية بشرح الحكم العطائية» طبع في جزءين بتحقيق الدكتور شيخ الأزهر عبدالحليم محمود والدكتور محمود بن الشريف.
وللحكم العطائية شروح بلغت أربعة وعشرين شرحاً على ما يعلم، كما عُني بنظمها شعراً فبلغت سبع منظومات.
ويشير المؤلف بقوله: وشرح جدنا، إلى كتاب «إيقاظ الهمم في شرح الحكم» للعلاَّمة المفسر العارف سيدي أحمد بن عجيبة (١١٦١ ـ ١٢٢٤ = ١٧٤٧ ـ ١٨٠٩).

(٢) الزلط بالعامية = الإملاق والعسرة والفاقة.

بلى، ليس من شُغلٍ عن العلم صارفٍ — لرغبتنا حتماً ولا الزلط إن ألَمّ
فإن لنا في الزلط أكْمَلَ راحة — وفيه بدا التخريج من موقظ الهِمَمْ[1]
عزوتُ به آثار شرح لجدنا — وخرَّجتها عزواً وأنرتُ به الظُّلَمْ
كذاك «تصرف» الكلاباذي بعده — بعزوي له قد كان والزَّلط قد هجمْ[2]
كذاك رسالتي «الإفادة» بالذي — روى الناس عن خير الأنام بما انتظمْ[3]
بتفضيل نظرة لوجه خليفة — هو المرتضى خير الصحاب بلا وهمْ
ونقدي للصاغاني في حكمه على — الحديث بوضع كان في زلطة أطمّ[4]
كذا كل ما ألفته وكتبته — وحققته في العلم والزلط ما انعدمْ
فقد أنِست روحي به وبفضله — تفرغت للتأليف والواجب الأهمّ
فإن كان سيف العزم مني مجرّداً — ما قلتمُ فالشرح سوف يكون تمّ
وهذا جوابي ناظماً مرسَلاً إلى — إمام جليل فاضل نظَّم «الحكم»

❋ ❋ ❋

التكبيرات السبع على الجنازة[5]

توفي بطنجة الشريف التهامي الوزاني[6]، فحضرت جنازته، وقدمت

---

(١) يعني كتابه «رفع العلم في تخريج أحاديث إيقاظ الهمم بشرح الحكم» مخطوط.

(٢) يشير إلى كتابه «التعطف في تخريج أحاديث التصرف في مذاهب التصوف» مخطوط.
و«حسن التصرف بشرح التعرف» كتاب جليل لأبي بكر التاج الكلاباذي (ـ ٣٨٠) المحدّث الكبير صاحب كتاب «التعرف لمذهب أهل التصوف» الذي قيل فيه: لولا التعرف لما عرف التصوف.. كان الكلاباذي من أهل بخارى، حنفياً صوفياً مشاركاً في مختلف العلوم، له عدة مؤلفات.

(٣) هو كتابه «الإفادة بطرق حديث النظر إلى علي عبادة» مخطوط ـ وقد كنت طبعته على الساحبة سنة ١٩٨٢ وصدرته بتقديمي له.

(٤) يلمع إلى مؤلفه «التهاني في التعقيب على موضوعات الصاغاني» ـ طبعته دار الأنهار القاهرية سنة ١٩٧٧.

(٥) فائدة رقم ٢٠٩.

(٦) الشريف مولاي التهامي الوزاني هو ابن الشريف القطب سيدي الحاج عبدالسلام رحمه الله (١٨٢٩ ـ ١٨٩٢) توفي عام ١٩٤٠ عزباً في سن متأخرة، كان نبيلاً وديعاً.

للصلاة عليه، فكبرت عليه سبعاً. وكان في الجنازة كل أعيان طنجة وقاضيها وعدولها، فقامت قيامتهم لفرط جهلهم بالسنة، فقائل منهم: إن هذه صلاة العيد! وقائل: ما سمعنا بهذا في الدين! بل بالغ بعض علماء البادية المقيمين بها فقال: هذا بلد يجب أن يهجر!! فألفت لذلك في المسألة جزءاً حافلاً سميته: «الإجازة للتكبيرات السبع على الجنازة»[1]، سال معه لعابهم وانحلت له حِبابهم، وكان ذلك أول ما طرأ ذهنهم.. فالحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، ولا حول ولا قوة إلا بالله سبحانه.

ولما بلغ خبر هذا لبعض المدرسين الكذابين في مدينة رباط الفتح ذكر يوماً في درسه هذه القضية وزاد فيها: فقيل له: لم كبَّرت عليه سبعاً؟ قال: لأنه كان كثير الذنوب!! كذا افترى علينا، ولعنة الله على الكاذبين.

❋ ❋ ❋

من آفات حبّ الدنيا[2]

حب الدنيا رأس كل خطيئة، وأصل كل رذيلة، ومنشأ كل بلية، وهو مفتاح باب الكفر، بل هو الكفر بعينه، ولأن يبتلي الله العبد بكل كبيرة ما خلا الشرك بالله خير له من أن يبتليه بحب الدنيا. فحب الدنيا يصيِّر الجبال الشمّ من العظائم كالذرة، ويريك السيئات حسنات، والرذائل فضائل! ويخلع عن وجهك برقع الحياء، بل يقلعه من نفسك بالكلية، ويرمي به مع الفضيلة حيث لا تبقى تعرف لها معنى، ولا تشم لها رائحة، ويبقى أخس الكلاب وشرهم أفضل منك قدراً وأعظم منك حياءً ومروءة! ولولا حكم الله السابق لقلت: إن محب الدنيا يجب قتله حدّاً بالرجم كالزاني المحصن! ويشاركه في رذائله ـ مع الإعلان بالكفر والإلحاد ـ من دخلت نفسه روح التفرنج والعصرية التي يسميها الملاحدة: الوطنية! فهذان الصِّنْفان جرثومة الفساد في

---

(١) ما زال مخطوطاً، وعندي نسخة منه مصورة.

(٢) فائدة رقم ٤١٨.

الكون، وقد رأينا منهم العجائب الدالة على فقدان الدين والمروءة والإنسانية.

منهم رجل مملوك كان بنّاء، فآويناه وعلمناه إلى أن صار من العلماء المدرسين، بل وولي خطة القضاء في بعض النواحي، وعاش معنا أزيد من ثلاثين سنة وهو في ظلنا ونعمتنا إلا أنه كان يحب الدنيا حبّاً مفرطاً، وتقلب في طلبها، وسلك فيها كل مسلك، وأخيراً توجه إلى طلبها من طريق الجاسوسية والتقرب إلى الحكومة بها، وجعل هدفه في ذلك جانبنا، فأتى إلينا ما يطول شرحه! وأخيراً لما اعتقلنا صار يتردّد إلينا إلى المعتقل كزائر وهو يتجسّس ويريد أن يوقعنا فيما هو أعظم.. ففطنا لذلك وسرنا نسايره إلى أن نزلتُ يوماً - وأنا في الاعتقال - إلى مدينته الساكن بها بقصد العلاج والتداوي، فجاء إليّ مُسلّماً، ثم ذهب في الحال إلى الحكومة وأعلمها بقدومي وكأنه عرف من أخبره بأن قدومي على سبيل الهرب والخيانة، ولم يعلم بأني قدمت بتسريح ممن هو مكلف، فكاد يجعل من ذلك شر كبير! وجاء إليَّ - بعد رجوعي إلى المعتقل - مدير السجن متعجباً، فلما أطلعته على التسريح الذي كان بيدي فرح بذلك لأنه أتاه عتاب من الرئاسة بالرباط!!

وأعظم من هذا رجل من بلده أيضاً - وهو يحب الدنيا مثله - عاشرني سبعة عشر عاماً أتيت إليه فيها من الإحسان وأنواع البرّ والخدمات ما لم يستطع والده أن يأتيه إليه كما كان هو يعترف بذلك في المجالس والمحافل. وبفرط محبتنا له واعتقادنا إخلاصه وصدقه أطلعناه على بعض الأسرار.. لا والله، ما أطلعناه عليها إلا ليتوصل بذلك إلى نفع دنيوي! فذهب عدو الله وخاننا لظنه أنه سيتوصل بتلك الخيانة إلى منفعة أكبر مما قصدنا له! فكانت خيانته لنا سبباً في فتنة كبرى مات من جرائها قوم تحت الضرب، وسجن فيها أزيد من أربعين نفساً كنت منهم، وحكم عليّ بثلاث سنين ونصف سنة سجناً!!

فانظر إلى حبِّ الدنيا ماذا يصنع.. فإذا علمت أحداً تمكّن من قلبه

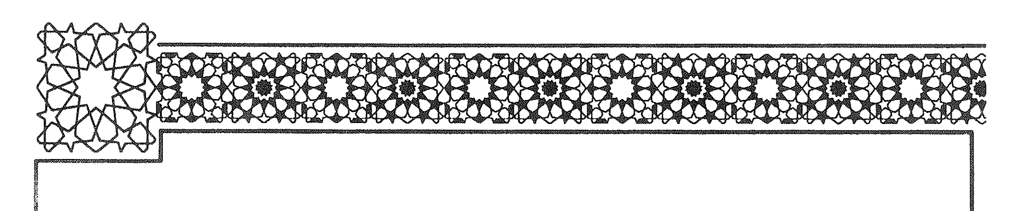
حبّ الدنيا فلا تردّ عليه السلام فضلاً عن أن تبدأه به. وكان أول الرجلين متظاهراً بالصلاح والتصوف، مربّياً للناس داعياً لهم إلى سلوك سبيل الخير! فأوصله حبّ الدنيا بعد أن نال منها بالجاسوسية ما نال إلى ترك الصلاة وإلى الاستهزاء بالدين!!

فالحمد لله على العافية، ونسأل الله تعالى أن يعصمنا من حب الدنيا.. آمين..

وبعد.. فحسبي هذه المقتطفات النَّزر من «الجؤنة» التي ما أوردتها إلا مورد الإشارة إلى وقائع وأحداث من سجل التاريخ الصامت!

طنجة في ١٨ يناير ٢٠٠٢





بسم الله الرحمن الرحيم

جؤنة العطّار في طرائف الفوائد ونوادر الأخبار
للإمام الحافظ الشيخ أحمد بن الصديق

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على أفضل الخلق، سيدنا ومولانا محمد وعلى آله الأطهار وصحابته الأبرار.

هذا كتاب غاية في الإمتاع واللطافة، جمع فيه شيخنا الإمام ـ رحمه الله ـ من نوادر الأخبار وطرف الفوائد ما يجعل القارىء يجلّ في إكبار سعة اطلاعه، وزخارة علمه، وحصافة آرائه، ومحكم أفكاره، وقوة حجته.

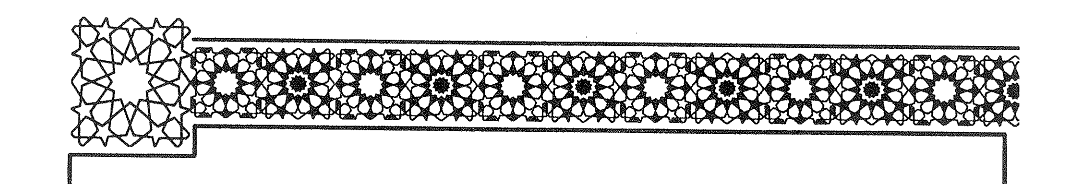
إن قلت: هو كتاب حديث وتفسير، فإنك لم تحد عن الصواب، وإن أجزمت بأنه كتاب نقد وتحليل فإنك ـ لا ريب ـ على درب الحق، وإن أعلنت أنه كتاب فقه وتصوف، فلا شك قد واكبت القصد.

هو كتاب جديد في طرازه، جديد في محتواه، لم يألفه الناس في عصرنا الحديث على هذا النسق.. حقاً، ألف في هذا السياق غير قليل من الأقدمين ـ كما أشار المؤلف إلى ذلك ـ وغير واحد أيضاً من المعاصرين، إلا أن «جؤنة العطار» يمتاز بشيء يبرزه وضَّاءً ناصعاً، ويطغى على كل فائدة، أو نادرة، أو غريبة، أو طريفة يذكرها الشيخ الإمام، أو يعقب عليها بنفَسه الرسيّ، يمتاز بالصراحة، والصدق، وإحقاق الحق.

فالكتاب تحفة نادرة، وعقد فريد، وكنز ثمين، ومؤانسة ممتعة.

وأتطرق ـ فيما يلي وبكل اختصار ـ إلى المحاور الآتية:

- حياة الشيخ الإمام.
- أخلاقه.
- نزعته الفكرية.
- مكتبته.
- عملي في الكتاب.



أحمد بن الصديق

(١٣٢٠ ــ ١٣٨٠ = ١٩٠٠ ــ ١٩٦٠)

نسبه:

هو الحافظ الحجة المجتهد المطلق الإمام الشيخ أبو الفيض شهاب الدين أحمد بن محمد بن الصديق بن الحاج أحمد بن محمد بن قاسم بن محمد بن محمد بن عبدالمؤمن بن محمد بن عبدالمؤمن، ينتهي نسبه الشريف إلى مولانا إدريس الأنور بن مولانا إدريس الأكبر بن مولانا عبدالله الكامل بن سيدنا الحسن المثنى بن سيدنا الحسن السبط بن سيدنا علي وسيدتنا فاطمة الزهراء بنت سيدنا ومولانا محمد رسول الله صلّى الله عليه وآله وصحبه.

مولده ونشأته:

وُلِدَ بمنزل عمته بقرية بني سعيد يوم الجمعة **٢٧** رمضان **١٣٢٠**، وبعد شهرين من ولادته عاد به والده إلى طنجة، فنشأ بها، وتعلم القرآن في كتاب.

وفي سنة **١٣٢٩** رافق والده في جمع من المريدين لأداء فريضة الحج، وكان معه أينما نزل في المدن الإسلامية، فرأى وسمع ولاحظ.

ولما رجع انكب على إتقان حفظ القرآن والمتون من نحو وفقه وبلاغة ولغة وحديث. وكان والده ـ رضي الله عنه ـ يعتني به أيما اعتناء، يذاكره

في شتى العلوم من تفسير وحديث وتصوف وتاريخ وجغرافية وتراجم الرجال، ويحثه على الارتواء من بحر علوم القوم، فنال منها حظاً وافراً، غير أن نفسه تاقت إلى علم الحديث، فانشغل به حفظاً وتحصيلاً وتمحيصاً حتى برّز فيه، وأدرك مرتبة عالية وهو لم يتجاوز بعد سنّ العشرين.

رحلته الأولى إلى القاهرة:

في سنة **١٣٣٩ ـ ١٩٢٠** توجه إلى القاهرة لمتابعة دراسته العليا بالأزهر، فاتصل بكبار الشيوخ الذين عينهم له والده أمثال الشيخ بخيت، والشيخ محمد إمام السقا، والشيخ محمد شاكر، والشيخ محمد حطاب السبكي وغيرهم، فلازمهم، وعقد صلته بهم، وجلس في حلقات دروسهم، فأعجبوا به لما رأوا فيه من سرعة الفهم، وتيقظ الإدراك، وقوة الحفظ، وحصافة العقل، وسديد الحجة، وحضور الذهن.

العودة إلى طنجة:

وفي سنة **١٣٤١ ـ ١٩٢٢** عاد إلى بلده بطلب من والده حيث كانت أمه تعاني شدة المرض الذي أثخنها، فلم تمر غير أيام معدودات من قدومه حتى توفيت رحمها الله، وهي الشريفة السيدة الزهرة بنت عبدالحفيظ بن أحمد بن أحمد بن عجيبة العارف صاحب التفسير(١) وشرح الحكم العطائية(٢).

وبعد هذه الفاجعة بشهور أذن له والده برحلة إلى مدن في المغرب والجزائر، فجال فيها واتصل بعلمائها(٣)، غير أنه قطع رحلته، وعاد إلى طنجة إذ ألمّ به مرض فألزمه الفراش ثلاثة أشهر.

---

(١) المسمى: «البحر المديد في تفسير القرآن المجيد».

(٢) المسمى: «إيقاظ الهمم في شرح الحكم».

(٣) انظر: لطيفة رقم ١٣٧ وطريفة رقم ١٣٨، وطريفة رقم ١٩٩ من «جؤنة العطار» ج١/ ص٨٨ و١٤١.

الرحلة الثانية إلى القاهرة:

وفي سنة ١٣٤٣ ـ ١٩٢٤ رجع ثانياً إلى القاهرة، وأقبل على علوم الحديث صارفاً له كل طاقته وهمته، متعمقاً في دراسة هذا الإرث النبوي الخالد، وظل على هذه الحال مدة طويلة لا يبرح منزله إلا لصلاة الجمعة أو زيارة الأولياء.

وفي سنة ١٣٤٤ زاره والده بمناسبة حضوره مؤتمر الخلافة بالقاهرة الذي انعقد في ١٣ ماي ١٩٢٦.

عودة ثانية إلى المغرب:

ورجع مع والده إلى المغرب، فبقي به أزيد من خمس سنوات قضاها في التأليف والتدريس.

الرحلة الثالثة إلى القاهرة:

ارتحل إلى القاهرة في شعبان ١٣٤٩ ـ ١٩٣٠ مع شقيقيه سيدي عبدالله وسيدي محمد الزمزمي ليتابعا دراستهما بالأزهر، فمكث معهما إلى سنة ١٣٥٤، وخلال هذه المدة صنف كتباً تعدّ قمة في التأليف الحديثي، فذاع صيته في الأقطار الإسلامية، وتناقل الدارسون والباحثون ما وصل إليه من غزارة علم وعمق اطلاع، فالتفوا حوله، وعقد معهم حلقات علمية، وأملى بالمشهد الحسيني مجالس في الحديث أحيا فيها مسلك القدامى من فطاحل المحدثين وأعلام الحفاظ.

عودة ثالثة إلى المغرب:

وفي شوال ١٣٥٤ وصل إليه نبأ وفاة والده ـ رضي الله عنه ـ فعاد إلى طنجة، ومكث فيها سنوات قضاها في التدريس[1] والتأليف والإرشاد

---

(١) كان منهجه منهجاً فريداً متكاملاً في تدريس «صحيح مسلم» و«جامع الترمذي» بالمسجد الأعظم.. يبدأ أولاً بسرد الأحاديث فيبلغها تارة إلى ثمانين حديثاً إملاء بأسانيدها ومن حفظه، ثم يرجع إلى الحديث الأول، فيتكلّم عن تخريجه، فيذكر من=

والنضال[1]، وشاءت إرادة الله أن يبتلى، فتداعت عليه قوارع المحن وتوالت في شدة[2] من شماتة وطعن واعتقال[3]، فتحملها في صبر، وعلو همة، وأخلاق صوفية.

القاهرة.. العودة الأخيرة:

وفي ربيع الأول من سنة ١٣٧٧ عاد إلى القاهرة، فظل فيها مناراً للعلم، ومقصداً للمعرفة، وسافر إلى سوريا والسودان تلبية لرغبة علمائها، وحج واعتمر وزار غير ما مرة.

وفاته:

ولم يزل يشعُّ فرائد عقده، وفيض علمه في جلسات ومناظرات وتآليف إلى أن اشتد عليه مرضه العِداد، ففارق الحياة يوم الأحد فاتح جمادى الأخيرة سنة ١٣٨٠ ـ رحمه الله ـ وأكرمه بجوار جده سيدنا ومولانا محمد صلّى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلّم.

أخلاقه:

في بيت الشرف والعلم وُلِد الشيخ الإمام، وفي كنف التصوف والإشراق نشأ، فوهب حياته لإعلاء كلمة الله، ولرفع راية الحق أينما حل ونزل.

= وافق المصنف على هذا التخريج من أصحاب الأمهات والأصول المسندة بذكر ألفاظها وطرقها ورواتها، وهو في هذا كله يُصَحِّح ويحسن ويضعف، ثم ينتقل إلى رجال هذا الحديث فيترجم لهم واحداً واحداً في إسهاب مدهش. ومن هنا ينطلق إلى غريب الحديث معالجاً مشاكل ألفاظه مع إعراب ما يجب إعرابه، ثم يخلص إلى فقه الحديث مبيناً مذاهب العلماء فيه مع تحليل وجهات نظرهم وذكر الإيرادات والأجوبة وهو في هذا الأفق يصحح ويعضد بالبراهين والحجج ما عززه وبينه. ثم يتوسع في عرض ما يشتمل عليه الحديث من درر وفوائد ونكت.

(١) تاريخه السياسي مفصل في كتابه «البحر العميق في فهرسة ابن الصديق».

(٢) انظر: طريقة رقم ٤٨٢ من «الجؤنة» ج٢/٢٠١.

(٣) اعتقل وظل سجيناً ثلاث سنين ونصف، أي من منتصف عام ١٣٧٠ إلى أواخر ١٣٧٣.

كان مثالاً حياً لقوله ﷺ: «**المؤمن غرّ كريم**» يحسن الظن بالناس، وينساق معهم في كرم نفس، وسلامة صدر، ونقاوة ضمير، يخدعونه فينخدع في سذاجة إيمان! فكم من متاعب ومحن تجرَّعها في جلد، وكم من نوائب ومكاره تكبدها في صبر يقيناً منه أنها قدر الله وقضاؤه، وأنها ابتلاء وامتحان، و«أنها موائد الله التي أكرمه بها».. ومن مغبة هذا السمو في الأخلاق، وهذا النبل في الفضائل أنه اعتقل، ثم تغرب بعيداً عن وطنه!

يا نفس صبراً على ما قد منيت به فالحرّ يصبر عند الحادث الجَلَلِ

أجل.. كان لسانه لسان صدق، وقلمه قلم صراحة: لا يداهن، ولا يراوغ، ولا يخاتل، ولا يعرف للجبن طريقاً، ولا للوهن سبيلاً، ولا للذهول موطناً! فكثر أعداؤه ومعارضوه، وأطلقوا فيه أباطلهم لا لشيء إلا لأنه كان يقول للأحمر أحمر، وللأزرق أزرق! وكثر حساده، وذنبه أنه ما كان يحسد أحداً، وكان يحب الخير لكل أحد.

وما هذه الأخلاق إلا مواهب وإلا حظوظ في الرجال تُقسمُ

عجباً! إذا كان غيره يطلب العلم ليتوصل به إلى جاه عريض، ورئاسة سامقة، فغايته هو منه غير هذه الغاية المنفعية الوصولية.. العلم عنده لذاته، لا لشيء آخر، فلا مباهاة، ولا خيلاء. ومن هنا كانت غربته وهو بين الناس، فطابت نفسه بهذه الغربة التي بها سما نجمه! وأدركه القصد من العلم: تواضع.. حلم.. جود.. زكاة! تواضع من عزت همته، وشرف أصله.. وحلم من ذكر الله خالياً ففاضت عيناه.. وجود من أعطى عطاء لا يخشى من ورائه فقراً.. وزكاة من أنفق من علمه ـ ولم يكتمه ـ إنفاقاً لا يَنْزَحُ عِدُّه تدريساً وتأليفاً ومجالسةً ونصحاً... فمن جاشت جوانبه بمدارك هذا العلم النقي من شوائب المظاهر أشرقت نفسه بمكارم الأخلاق، وحسن الخيم ومعالي القيم، وسمت روحه في فضاء الصفاء.. ولذلك تجده يجل الصوفية أيما إجلال، ويصغي إلى أهل الله في تواضع وتصديق وإكبار لأن روحه من روحهم السنية، وأنفاسه من أنفاسهم الزكية، وعلى قدر هذا

الإجلال لأولياء الله تعالى وأصفيائه كانت نفسه تحتقر في سخط من يعاديهم، وتحتدم غيظاً وحرباً على من يلمزهم بسوء.

هي الأخلاق تنبت كالنبات إذا سقيت بماء المكرمات

فأرومته ونضارة علمه بالإرث النبوي أبلغتاه السند الشامخ والمطلب العالي.

نزعته الفكرية:

لا شيء كان أبغض إليه ولا أحقر ولا أسقط في عينه من التقليد الأعمى، وما التقليد عند الشيخ الإمام؟ هو العناد في الباطل أمام الحق، هو الإصرار على التمسك بالقول المخالف للنص الصريح(١).

لقد أرشد إلى العمل بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، والتمسك بالحجة والدليل، ودعا إلى نبذ التقليد المشين الأسير، وأحيا ـ تدريساً وتأليفاً وتوجيهاً ـ منهج السلف الصالح، وحَرَّر العقل من سفالة الجمود وحقارة الخمول، وانتشله من براثن الدعاوى الواهية، وأنار السبيل نحو فقه السنة آخذاً الأحكام من أصولها المعتبرة مع رد الفروع إلى معقلها، مبتعداً عن بؤرة التعصب وسخافة التزمت. وسلك ـ بعد يقين وتمكن(٢) ـ مسلك الاجتهاد المطلق. واعتلى ركب أعلام الإسلام أمثال ابن حزم، وابن تيمية، وابن القيم، والسيوطي، والأمير الصنعاني، والشوكاني، غير أنه لم يتوقف عن معارضتهم إذا ما نكبوا ـ في رأيه ـ عن جادة الصواب. فهو ـ نصرة للحق ـ لا ينظر إلا إلى ما قيل دون اكتراث لمن قال!

ونفس الصرامة التي واجه بها المقلدة ساخراً من تفاهة أقوالهم، مسفهاً

---

(١) انظر: فائدة رقم ٢٩٧ ـ ج٢/٤٧، وكتابه «الإقليد في تنزيل كتاب الله على أهل التقليد».

(٢) راجع فائدة رقم ٢٤٤ ـ ج٢/٧، ثم ما حدث لشيخنا الإمام في انتقاله من مذهب إلى آخر، ثم نبذها جميعاً واعتلى مشارف الاجتهاد المطلق.

سخافة آراءهم فيما يخالف صريح النصوص الصحيحة، صبها صواعق على من اتهمهم بالنصب أمثال الأئمة الأعلام ابن تيمية والذهبي وابن كثير وابن خلدون وابن العربي المعافري والباقلاني وغيرهم رحمهم الله[1]، وأماط النقاب عن كمين غاياتهم وستير مقاصدهم.

وبهذه الحماسة الفياضة التي استمد قوتها من غيرته على الكتاب والسنة شنّها حرباً ضارية على أولئك المستغربين من «أبناء الإسلام».. كان يرى أن الكلمة الطيبة والموعظة الحسنة لم يعد لهما تأثير في نفوس هؤلاء «العصريين» الذين انحرفوا عن الإسلام، ومرقوا منه، ودخلوا جحر ضب الغرب! ويعلن أن ما أصاب المسلمين اليوم من نكبات وهزات وتخاذل هي نتائج حتمية لتقليد الغرب واستيراد لنظمه الفاسدة. فدوى صوته على المنابر، ونشرت تآليفه بين الناس، وهو في هذه وتلك، يرهب وينهي ويحذر وينصح وينبّه في صدق وإخلاص وغيرة إيمانية على أن الاستعمار قد أحكم خطته ليغزو من جديد البلاد الإسلامية بسلاح فتاك مبيد، سلاح الثقافة والفن[2]، فهذه مسارح[3] ومعارض سينمائية تفتح، وكتب الخلاعة والإلحاد تطبع، ودعوة الاختلاط تجد آذاناً صاغية وترحيباً مشجعاً لأنها تقدم وانفتاح!! أجل إنه تقدم إلى الوراء، وانفتاح على مهاوي الشر! ولا قبل للمسلمين في مواجهة هذا الغزو إلا بالرجوع إلى الأصالة الإسلامية، إلى الارتواء من منبعها الصافي.

لقد وافاه الأجل وفي نفسه حسرات على حال المسلمين[4].

مكتبته:

«سيكون ولدي سيدي أحمد سيوطي عصره» كلمة تنبأ بها والده الإمام «السيد» ـ رحمه الله ـ فأبره الزمان!

---

(١) انظر: طريفة رقم ٣٣ و٤١، ولطيفة رقم ٤٢.

(٢) يراجع كتابه القيم «الاستنفار لغزو التشبه بالكفار».

(٣) انظر: كتابه «إقامة الدليل على حرمة التمثيل».

(٤) طريفة رقم ٩١ ـ ج١/٥٦.

فهذه أزيد من مائتي وخمسين مؤلفاً ـ بعضها في مجلدات ـ أتحف بها شيخنا الإمام المكتبة الإسلامية ومنها مواضيع بكر لم يسبق إليها. وسأذكر بعضها مرتبة أبجدياً وحسب فنونها:

١ ـ في التفسير:

ـ الإقليد في تنزيل كتاب الله على أهل التقليد ـ خ[١] ـ.

٢ ـ في الحديث:

ـ الأجوبة الصارفة لإشكال حديث الطائفة ـ خ ـ.

ـ إتحاف الحفاظ المهرة بأسانيد الأصول العشرة ـ خ ـ.

ـ إتحاف الفضلاء والخلان ببيان حال الحديث الممسوخ من النجوم والحيوان ـ خ ـ.

ـ الأربعون المتوالية بالأسانيد العالية ـ خ ـ.

ـ إرشاد المربعين إلى طرق حديث الأربعين ـ ط ـ.

ـ الاستعاذة والحسبلة ممن صحح حديث البسملة ـ ط ـ.

ـ إسعاف الملحين ببيان حال حديث إذا ألف القلب الإعراض عن الله ابتلي بالوقيعة في الصالحين ـ خ ـ.

ـ الإسهاب في الاستخراج على مسند الشهاب ـ خ ـ[٢].

ـ الإشراف بتخريج الأربعين المسلسلة بالأشراف ـ خ ـ.

ـ إظهار ما كان خفى من بطلان حديث لو كان العلم بالثريا ـ خ ـ.

ـ اغتنام الأجر في تصحيح حديث أسفروا بالفجر ـ خ ـ.

ـ الإلمام بطرق المتواتر في حديثه عليه الصلاة والسلام ـ خ ـ.

---

(١) طريفة رقم ٢٣٢ ـ ج١/١٦٣.

(٢) لطيفة رقم ١٢٠ ـ ج١/٧٧.

- الأمالي الحسينية - خ -.

- إياك من الاغترار بحديث: «**اعمل لدنياك**» - خ[1] -.

- البيان والتفصيل لوصل ما في الموطأ من البلاغات والمراسيل - خ -.

- تبيين البله ممن أنكر حديث: «**ومن لغا فلا جمعة له**» - خ[2] -.

- تبيين المبدأ في طرق حديث: «**بدأ الدين غريباً وسيعود كما بدأ**» - خ -.

- تخريج أحاديث الشفا - خ -.

- تعريف الساهي اللاه بتواتر حديث: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله**» - خ -.

- تعريف المطمئن بوضع حديث: «**دعوه يئن**» - خ -.

- التقييد النافع لمن يطالع المجامع - خ -.

- جمع الطرق والوجوه لحديث: «**اطلبوا الخير عند حسان الوجوه**» - خ -.

- جهد الإيمان بطرق حديث: «**الإيمان يمان**» - خ -.

- حصول التفريج بأصول العزو والتخريج - خ -.

- درء الضعف عن حديث: «**من عشق فعف**» - خ -.

- دفع الرِّجز بطرق حديث: «**أكرموا الخبز**» - خ -.

- الرغائب في طرق حديث: «**ليبلغ الشاهد منكم الغائب**» - خ -.

- رفض اللي بتواتر حديث: «**من كذب عليّ**» - خ -.

- رفع المنار لحديث: «**من سئل عن علم فكتمه ألجم بلجام من نار**» - خ -.

- زجر من يؤمن بطرق حديث: «**لا يزني الزاني وهو مؤمن**» - خ -.

---

(١) فائدة رقم ١٧ - ج١/١٣.

(٢) فائدة رقم ٩٨ - ج١/٦٠.

- سبل الهدى في إبطال حديث: **«اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً»** - ط -.

- شهود العيان بثبوت حديث: **«رفع عن أمتي الخطأ والنسيان»** - خ -.

- صرف النظر عن حديث: **«ثلاث يجلي البصر»** - خ -.

- صفح التياه بإبطال حديث: **«ليس بخيركم من ترك دنياه»** - خ -.

- صلة الوعاة بالمرويات والرواة - خ -.

- طرفة المنتقي للأحاديث المرفوعة من زهد البيهقي - خ -.

- الطرق المفصلة لحديث أنس في البسملة - خ -.

- العقد الثمين من حديث: **«إن الله يبغض الحبر السمين»** - خ -.

- عواطف اللطائف بتخريج أحاديث عوارف المعارف - خ -.

- فتح الملك العلي بصحة حديث: **«باب مدينة العلم علي»** - ط -.

- فتح الوهاب بتخريج أحاديث الشهاب - ط - في مجلدين.

- فك الربقة بطرق حديث: **«الثلاث وسبعين فرقة»** - خ -.

- كتاب الحسن والجمال والعشق والجد من الأحاديث المرفوعة خاصة - خ -.

- الكسملة في تحقيق الحق في أحاديث الجهر بالبسملة - خ -.

- كشف الدين في طرق حديث: **«مرّ على قبرين»** - خ -.

- لب الأخبار المأثورة في مسلسل عاشوراء - ط -.

- المؤانسة بالمرفوع من حديث المجالسة - خ -.

- المداوي لعلل المناوي - خ - مجلدات.

- المستخرج على الشمائل الترميذية - خ -.

- مسامرة النديم بطريق حديث: **«دباغ الأديم»** - خ -.

- مسند الجن - خ -.

- المسهم بطرق حديث: «**طلب العلم فريضة على كل مسلم**» - خ -.

- المعجم الموجز للمستجيز - ط -.

- معقل الإسلام (شرح لسنن البيهقي) - خ -.

- مغني النبيّه عن المحدث والفقيه - خ - (هو بشرح للسنن الكبرى للبيهقي).

- المغير على الأحاديث الموضوعة في الجامع الصغير - خ -.

- مفتاح الترتيب لأحاديث تاريخ الخطيب - ط -.

- المناولة في طرق حديث المطاولة - خ -.

- المنتدة بتواتر حديث: «**المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده**» - خ -.

- منية الطلاب بتخريج أحاديث الشهاب - خ -.

- موارد الأمان بطرق حديث: «**الحياء من الإيمان**» - خ -.

- الميزانيات - خ -.

- نصب الجرة لنفي الإدراج عن الأمر بإطالة الغرة - ط -.

- هداية الرشد في تخريج أحاديث بداية ابن رشد - ط - في ٨ مجلدات.

- هدية الصفراء بتصحيح حديث التوسعة يوم عاشوراء - ط -.

- وسائل الخلاص في تحريف حديث: «**من فارق الدنيا على الإخلاص**» - خ[1] -.

- وشي الإهاب بالمستخرج على مسند الشهاب - خ -.

---

(١) طريقة رقم ٩٩ - ج٦٠/١.

٣ ـ في فقه السنَّة:

ـ الإجازة للتكبيرات السبع على الجنازة ـ خ[١] ـ.

ـ الأحاديث المسطورة في القراءة في الصلاة ببعض السورة ـ خ[٢] ـ.

ـ إزالة الخطر عمن جمع بين الصلاتين في الحضر ـ ط ـ.

ـ الاستعاضة بحديث وضوء المستحاضة ـ ط ـ.

ـ الإقناع بصحة الصلاة خلف المذياع ـ ط ـ.

ـ بيان الحكم المشروع في أن الركعة لا تدرك بالركوع ـ خ[٣] ـ.

ـ تحسين الخبر الوارد إلى الجهاد الأكبر ـ خ ـ.

ـ تحسين الفعال بالصلاة في النعال ـ ط ـ.

ـ تحقيق الآمال في إخراج زكاة الفطر بالمال ـ ط[٤] ـ.

ـ تخريج الدلائل لما في رسالة القيرواني من الفروع والمسائل ـ خ ـ.

ـ تشنيف الآذان باستحباب السيادة في اسمه عليه السلام في الصلاة والإقامة والأذان ـ ط[٥] ـ.

ـ توجيه الأنظار لتوحيد العالم الإسلامي في الصوم والإفطار ـ ط ـ.

ـ الحسبة على من جوز صلاة الجمعة بدون خطبة ـ ط ـ.

ـ رفع شأن المنصف السالك وقطع لسان المتعصب الهالك في سنية القبض في الصلاة عند مالك ـ ط ـ.

ـ الزواجر المقلقة لمنكر التداوي بالصدقة ـ خ ـ.

---

(١) فائدة رقم ٢٠٩ ـ ج١٤٨.
(٢) طريفة رقم ٨٤ ـ ج٤٧/١.
(٣) فائدة رقم ٢٧ ـ ج٢٠/١.
(٤) فائدة رقم ٤٨٣ ـ ج٢٠٣/٢.
(٥) فائدة رقم ٧٣ ـ ج٤٣/١ ـ وفائدة رقم ١٠٨ ـ ج٦٨/١.

- شد الوطأة على منكر إمامة المرأة - خ -.

- شمعة العنبر ببدعة آذان الجمعة على المنارة عند المنبر - خ -.

- فصل القضاء في تقديم ركعتي الفجر على صلاة الصبح عند القضاء - ط -.

- المثنوي والبتار في نحر العنيد المعثار الطاعن فيما حج من السنن والآثار - ط[1] -.

- مسالك الدلالة على مسائل الرسالة - ط -.

- مطالع البدور في جوامع أخبار البرور - ط -.

- المنح المطلوبة في استحباب رفع اليدين في الدعاء بعد المكتوبة - ط[2] -.

- بعث الروع بأن الركعة لا تدرك بالركوع - خ -.

- نيل الحظوة بقيادة الأعمى أربعين خطوة - خ -.

٤ ـ في التصوف:

- البرهان الجلي في تحقيق انتساب الصوفية إلى علي - ط -.

- تحفة المريد بما ورد في حلة أهل التجريد - خ -.

٥ ـ في النقد:

- إبراز الوهم المكنون في كلام ابن خلدون - ط -.

- بيان غربة الدين بواسطة العصريين المفسدين - خ -.

- التعريف لما أتى به حامد الفقي في تصحيح الطبقتين خاصة من التصحيف - خ -.

---

(١) طريقة رقم ٦١ - ج٣٧/١.

(٢) طريقة رقم ١٥٦ - ج٩٨/١.

٦ ـ **في التراجم**:

ـ الاستئناس بتراجم فضلاء فاس ـ خ ـ (هو اختصار «سلوة الأنفاس» مع الذيل عليهما).

ـ البحر العميق في فهرست ابن الصديق ـ خ ـ.

ـ بذل المهجة ـ خ ـ.

ـ التصور والتصديق بأخبار الشيخ سيدي محمد بن الصديق ـ ط ـ.

ـ سبحة العقيق في ترجمة الشيخ سيدي محمد بن الصديق ـ خ ـ.

ـ المؤذن في أخبار سيدي أحمد بن عبدالمؤمن ـ خ ـ.

ـ مجمع فضلاء البشر من أهل القرن الثالث عشر ـ خ[١] ـ.

٧ ـ **مختلفات**:

ـ الائتساء بإثبات نبوة النساء ـ خ ـ.

ـ الأسرار العجيبة في شرح أذكار ابن عجيبة ـ خ ـ.

ـ الاستنفار لغزو التشبه بالكفار ـ ط ـ.

ـ إحياء المقبور بأدلة بناء المساجد والقباب على القبور ـ ط ـ.

ـ إعلام الأذكياء بنبوة خالد بن سنان بعد المسيح وقبل خاتم الأنبياء ـ خ[٢] ـ.

ـ الإفضال والمنة برؤية النساء لله في الجنة ـ خ[٣] ـ.

ـ إقامة الدليل على حرمة التمثيل ـ ط ـ.

ـ بلوغ الإصال في فضائل الأعمال ـ خ ـ.

---

(١) طريفة رقم ١٧٢ ـ ج١/١٠٦.

(٢) فائدة رقم ٥٥ ـ ج١/٣٤.

(٣) فائدة رقم ٧٧ ـ ج١/٤٥ ـ وفائدة رقم ٤٨٣ ـ ج٢/٢٠٢.

- تحفة القاضي الداني بشرح منظومة الزرقاني - خ -.

- جؤنة العطار في طرف الفوائد ونوادر الأخبار - ٤ أجزاء - (طبعت منه جزءين).

- رياض التنزيه في فضل القرآن وفضل حامليه - خ -.

- شوارق الأنوار المنيفة بظهور النواجذ الشريفة - ط -.

- لثم النعم بنظم الحكم - خ - (٧٦٧ بيتاً).

- ليس كذلك - ط -.

- مطابقة الاختراعات العصرية بما أخبر به خير البرية - ط -.

- منظومة تائية في التاريخ - خ - (٦٠٠ بيت).

عملي في الكتاب:

لي مع هذا الكتاب قصة. . .

ذلك أني كثيراً ما كنت أسمع شيخي وأستاذي العلاَّمة الإمام سيدي عبدالحي بن الصديق - بارك الله في عمره ونفع الخلق بجلال علمه - يقول في حلقات التدريس، وفي جلسات خاصة من ساعة الفراغ: قال الأخ في «جؤنة العطار» أو: ذكر الأخ في «جؤنته»[١]. فتجري على لسانه طريفة أو فائدة نطرب لها ونهتز. . فقلت في نفسي: لا بدّ لي أن أقف على هذا الكتاب ما دام شيخي يثني عليه ويطريه إطراء المعجب به. فاستأذنته ذات يوم أن يدلني عليه وقد اهتاجتني الرغبة إليه، **فأشار إليّ بأن نسخة منه توجد عند العلاَّمة الصوفي الشريف الشيخ سيدي عبدالله التليدي، أحد خواص تلامذة ومريدي الشيخ الإمام ومقربيه الخلّص**. فأهرعت إليه مستعيراً إياها، فمكنني منها - وهي بخط يده - في رحابة صدر، جزاه الله خيراً. فكانت الأصل الذي اعتمدت عليه في التحقيق[٢].

---

(١) يعني به شقيقه الأكبر الشيخ الإمام الحافظ الحجة سيدي أحمد بن الصديق رحمه الله.

(٢) لم يكن تحقيقاً على الوجه المطلوب، وإنما هو نسخ مع تمحيص وتوثيق.

وبدأت في عملية النسخ.. وكنت أراجع ما أكتبه مع شيخنا وأستاذنا سيدي عبدالحي بحضرة ثلة من الرفقاء[1]، وذلك في مناسبات تأتي على اتفاق. فكان أحدهم يقرأ في أصل نسخة الشيخ التليدي، وأنا أتابع ما نسخته في كتاب، وشيخنا يرشد وينبه. وعند انتهاء سرد كل فقرة كنت أقترح عليه عنواناً لها أختاره في سياق الموضوع لأن المؤلف ـ رحمه الله ـ لم يقترن فقرات «جؤنته» بعنوان، وإنما كان يكتفي بأن يصدرها بلطيفة أو غريبة أو طريفة أو فائدة. وغالباً ما كان شيخنا يوافق على العنوان المقترح، ونادراً ما كان يهذبه. وكنت ـ أثناء النسخ ـ إذا ما استعصت عليَّ قراءة كلمة غامضة أرجع إلى مخطوط آخر صورته من نسخة مودعة بالخزانة العامة بتطوان، أو استغلق عليّ معناها أبحث عنها فيما لدي من أمهات كتب اللغة والحديث والتراجم لأتحقق من سلامة النص كتابةً ومعنىً قبل عرضه على شيخنا الإمام.

وبعد ما أتممت الجزء الأول[2] ـ بفضل الله وعونه ـ شرعت في طبعه على الساحبة حفاظاً عليه من الضياع ومن عبث العابثين، وأخرجت منه نسخاً معدودة وزعتها على شيوخي وبعض معارفي.

---

(١) هم غالباً السيد أحمد بن العربي بو عياد ـ رحمه الله ـ وسيدي عبدالصمد البقالي والسيد محمد الرمالي الملقب «بالفقيه الشِّيحة».

(٢) ثم عقبه الجزء الثاني الذي قدمت له بهذه الكلمة:

بين يد القارىء الكريم الجزء الثاني من «جؤنة العطار» للإمام الحافظ الحجة الشيخ سيدي أحمد بن الصديق تغمده الله برحمته ورضوانه.

والحق أني كنت عقدت النية على أن أمهد لهذا الجزء بمقدمة أبدي فيها بشيء من التفصيل ما فاتني تسجيله في الجزء الأول من خصائص المنهج الصديقي الذي ارتسمه شيخنا الإمام في مسالكه العلمية، هذه الخصائص استنتجتها من استقرائي لما عثرت عليه من مؤلفاته المخطوطة منها والمطبوعة.

غير أني حريصاً على أن تخرج «الجؤنة» لحيز الوجود في أقرب الآجال خشية نوازل الدهر وصروفه التي كابدت منها ألواناً في مسيرة نسخ هذا الكتاب وطبعه قاومت في إصرار كل عائق وأعدلت عن كل ما من شأنه يكون سبباً مباشراً أو غير مباشر في=

فالله أسأل أن يهيئ السبيل لمن يخرج هذا الكتاب النفيس[1] في طبعة

= تأخير رغبتي الملحة لإذاعته ونشره ولو في دائرة ضيقة ريثما يقيض الله تعالى له من يقوم بإشهاره في دائرة أوسع، وعلى وجه أكمل، عدلت عن هذا وارتأيت أن أبرز «المنهج الصديقي» في دراسة وافية أرجو الله عزَّ وجلّ أن يوفقني إلى إدراجها في كتاب مستقل خاصة وقد جمعت غير قليل من العناصر.

فهذا إذاً الجزء الثاني من «الجؤنة» وقد سلكت فيه نفس المسلك الذي بينت خطوطه العريضة في محور عملي في الكتاب، عند تقديم الجزء الأول.

ولا تفوتني الإشارة إلى أن أخطاء مطبعية تسربت في كلا الجزءين رغم ما بذلته من جهد مضنٍ عند المراجعة والتصحيح. فمعذرة للقارىء الكريم. والأمل في أن تجنب هذه الأخطاء في طبعة جديدة محققة ومنمقة تناسب ـ أولاً ـ نفاسة الكتاب باعتباره تراثاً فكرياً أصيلاً، وتليق ـ ثانياً ـ بمقام صاحبه لكونه إماماً حافظاً عبقرياً فذّاً ما زال كنزاً ثميناً لم تكشف بعد ذخائره، وجوهرةً لامعة مغمورة بين غفلة النسيان وسكرات الحسد! لكن الصحوة على عتبة المنطلق المبارك.

فعلى الله سبحانه وتعالى حسن التوكل، وهو الهادي إلى سواء السبيل.

طنجة في ١٠ جمادى الأولى ١٤٠٣ = ٢٣ فبراير ١٩٨٣.

(١) أصل الكتاب يقع في أربعة أجزاء، نسخت أجزاءه الثلاثة الأولى، ولم أتمكن من الجزء الرابع الذي يوجد ـ كما يقال ـ عند أحد إخوان شيخنا الإمام وهو به ضنين!

وتجدر الإشارة هنا إلى أني ـ بعون الله ـ قد نسخت الجزء الثالث وأوصلت فقراته إلى لطيفة رقم ٧٦١ التي عنونتها: ليس كفراً مخالفة الإمام مالك، وطبعته على ورق الساحبة، غير أني لم أخرجه إرضاءً لرغبة شيخي العلاّمة سيدي عبدالحي ـ رحمه الله ـ الذي بعث إلي بكلمة ذكر فيها أن الكتاب لا حق لأحد في طبعه بأي وسيلة إلا بإذننا نحن الورثة، وغيرنا سارق ليس بوارث! وأنه فيه سب وقذف لأبرياء لهم كل الحق في مطالبة طابعه بتعويض مالي أو عقوبة بدنية!

وذات يوم استعار مني هذا الجزء الثالث ـ وهو بخط يدي ـ شيخنا العلاّمة الصوفي سيدي محمد البقالي ـ شفاه الله وبارك في عمره ـ فسلمته له، فصوّره. وإذا بي أفاجأ بنسخة منه مضروبة على الآلة الكاتبة بين يدي شيخي الإمام سيدي عبدالحي.

فاستفسرني فأخبرته بأن هذا الطبع ليس من عملي وأنا منه بريء، وأعلمته أن هذا الجزء محفوظ عندي وهو على ورق الساحبة فاعتذر.

ومن العجب أن أحدهم تطاول على إخراجي «للجؤنة» وادعاه لنفسه دون حياء! لكن افتضح أمره لأنه لم يتفطن إلى أن عناوين فقرات الكتاب هي من بدواتي وليست ـ كما زعم ـ من أصل الكتاب! فإن تكن قرصنة في ميدان العلم فهذه، وإلا فلا. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

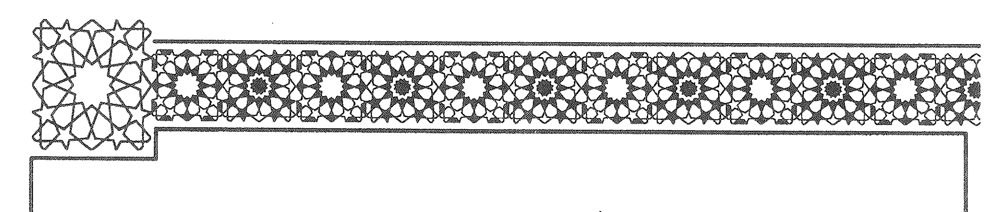
تليق به. وكم أتأسف على مصنفات شيخنا الإمام وهي قابعة في ظلمة النسيان والإهمال!

وأخيراً.. لا بدّ من كلمة شكر لمن ساهم في إخراج هذا الكتاب ضرباً على الآلة الكاتبة وطبعاً على الساحبة، هو عمل أقدمت عليه رغم العوائق والموانع خدمة للعلم، واعترافاً لحق شيخنا الإمام علينا.

وحسبنا الله ونعم الوكيل...

طنجة في ٢١ جمادى الأولى
١٤٠٢ = ١٧ - ٣ - ١٩٨٢





بسم الله الرحمن الرحيم

حكم اللحم المستورد من أوروبا النصرانية
أو
الردّ القوي على ابن العربي والقرضاوي
للإمام الشيخ عبدالحي بن الصديق

الحمد لله القائل في محكم تنزيله: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾.

والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحابته ومن اتبع سنته إلى يوم الدين.

وبعد.. فقد ظهر من سنتين كتاب «حكم اللحم المستورد من أوروبا النصرانية» ضمن سلسلة «النفائس»[1] التي نذرت على نفسها أن تنشر المؤلفات المتميزة بدراستها وأبحاثها الإسلامية الجادة. وما أن نفذت طبعته الثانية حتى انهالت على مؤلفه الإمام الشيخ سيدي عبدالحي بن الصديق - رعاه الله - طلبات ملحة على أن يطبعه ثالثة، فكانت هذه الطبعة التي ارتأى

(١) هذه السلسلة أصدرتها «دار الشباب للطباعة» بالقاهرة، واستهلتها بنفيسة شيخنا الإمام العلاّمة المحدّث سيدي عبدالعزيز بن الصديق: «فتح القريب المجيب بشرح بدأت بذكر الحبيب» وهي مقطعة الإمام القطب أبي الحسن الششتري رضي الله عنه.

شيخنا الإمام أن تظل كما أخرجها أول مرة دون أن يزيد فيها شيئاً، لأنها مختصرة من أصل كتاب حافل، ولو قيض الله سبحانه وتعالى نشره كاملاً في الناس لعمت الفائدة، لأنه طرفة علمية نفيسة، ورائعة من روائح البحوث الفقهية التي يتحف بها شيخنا الإمام المكتبة الإسلامية.

والكتاب ردّ شيق ممتع على فتوى العلاَّمة الإمام الشيخ القاضي أبي بكر بن العربي المعافري ـ رحمه الله ـ حول طعام أهل الكتاب؛ وتحليل دقيق معارض رأي العلاَّمة الشيخ الدكتور يوسف القرضاوي الذي استنهج سبيل ابن العربي وتقلده في كتابه الشهير «الحلال والحرام في الإسلام»[1].

فالكتاب ـ إذاً ـ ردّ وتحليل لمسألة فقهية فرعية ربما يعتقد من لم يألف منهجية[2] شيخنا في البحث أن الموضوع ـ في حد ذاته ـ لا يقتضي منه أكثر من ورقات لا تربو على العشر، بيد أن الكتاب قاربت صفحاته التسعين! لكن من ساير كتبه ورافقها علم أنه ـ رعاه الله ـ يحرص الحرص كله على ألا يدع ـ في الموضوع المعالج ـ صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، ولذلك يدسم بحثه، ويمحِّصه، ويحصِّنه، ويغوص في ينابيع صافية من علوم التفسير وفنونه، والحديث ومصطلحه، والفقه وأصوله، وغيرها من مجدات البحث ومقتضياته التي هي كالسِّراج للمُدلِج ينير له الطريق حتى لا يتيه في بيداء الاغترار ببريق الشهرة، ولا يُؤسر في شرك الإعجاب بالمكانة العلمية الشخصية! ومن هنا يلوح السر فيما رامه شيخنا حين بدأ في مستهل الكتاب بكشف النقاب عن بعض أخطاء ابن العربي ـ رحمه الله ـ الذي خالف فيها جمهور العلماء مخالفة صريحة، وهي مستقاة من كتبه «كالسراج» و«الأحكام» ليميط بذلك عنه تلك الهالة التي أضفتها عليه شهرته الواسعة وكأنه لا يُمسُّ بنقد، ولا يدنى من قوله بتصحيح أو تصويب! حتى إذا ما تيقن القارىء ـ في قرارة نفس ـ أن ابن

---

(١) انظر: الباب الثاني منه وخاصة ما يتعلق بذبائح أهل الكتاب ـ اليهود والنصارى ـ صحيفة ٥٨ من الطبعة الخامسة ١٩٦٩، منشورات المكتب الإسلامي.

(٢) ألمعت إلى بعض خصائص منهجية في تقديمي لكتابه القيم «نقد مقال»، وفي ترجمتي له.

العربي عالم جهبذ من ذوي البَسْطة والرسوخ غير أنه يصيب ويخطىء كغيره من حَضَنة العلم وأربابه، واستأنس بهذه الحقيقة التي تختفي تحت سرّ «التقديس»، وتكمن غالباً من وراء وطأة الشهرة ـ وهي ملاذ الاغترار الذي كثيراً ما يبعث على الجمود والرّقي الفكري ـ انبرى شيخنا الإمام إلى جلب الموضوع ليُشرّحه تشريحاً علمياً تتدفق منه سيول هادرة من التحقيق والتحليل والتصويب. ويريد شيخنا أن ينبه ـ باقتفائه هذا المنحى ـ على أن أقوال العلماء مهما ارتقت مداركهم في معارج العلوم، ومهما أحاطت بهم «هالة التمذهب»، فإنها ستظل أقوالاً ومفاهيم تخضع للبحث والنظر والتصحيح قبل الإذعان لها، والأخذ بزمامها.

ولقد عهدنا من منهج شيخنا الإمام أنه يخلق اللذة العلمية في نفس القارىء، ويحبب إليه طرق البحث الرصين على أوسع نطاق، ويدفعه في زحفات حثيثة هادئة متماسكة الإيقاع إلى استيعاب فروع الفقه وقواعد أصوله التي ربما تنفر منها نفسه وتمجّها، ويستثقله عقله ويدحضها، لأن هذا الصنف من العلم قد يبدو صعب المنال، عسير الإدراك، عَصيّ الطوع، وعْر التطبيق، ينفث من حوله اليأس والقنوط في صيغ يراها من لم يمارسها متناثرة تارة، متشابكة تارة أخرى، لا توازن فيها ولا تناسق! فتأتي كتب شيخنا الإمام لتطارد هذا اليأس، وتطرح هذا القنوط، ولتشرق في خلده وإدراكه رغبة توّاقة إلى المزيد من الرواء من هذا المنهل «الصدِّيقي» الصافي الرقراق الذي يجد فيه خلاصاً لبعض قضاياه الشائكة، وتجسيداً لضالته المنشودة.. والحق أن ما يلصق بالفقه وأصوله من سمات الجفاء والغموض إنما آفاته تكمن في طريقة ذاك العرض العقيم الذي يبدو ـ في كتب المتأخرين خاصة ـ كأنه ألغاز وأحاجي وطلاسم في قواليب جامدة متزمتة جاثية في بؤرة التقليد الآنس! ولو عرض على الناس بأسلوب شيق تواكبه الأدلة، وتعززه البراهين من أصولها المعتبرة على غرار نهج شيخنا الإمام لانمحى هذا الجفاء منه أصلاً! ولذا نرى شيخنا ـ رعاه الله ـ يقتفي بأسلوبه العلمي الدقيق سبيل الإمتاع والإقناع معاً عند معالجته فروع هذا العلم وعناصره الحية في تسلسل منطقي فقهي ـ حواراً ومناقشةً وتحليلاً ـ تدعمه

النقول الصحيحة، والأدلة الساطعة ليفضي آخر المطاف إلى نتائج تمتلىء بها النفس إعجاباً، ويركن إليها العقل استئناساً وقد أبصر كيف يتلاشى الرأي المخالف عروة عروة، وتنهار قواعده الواهية على أنقاضها!

وحسبي هنا أن ألفت نظر القارىء الكريم إلى أن شيخنا الإمام عندما تعرض لمعنى طعام أهل الكتاب أتى بثمانية أدلة ترجح آيات التحريم على آيات التحليل، ثم فند نظرية ابن العربي من نفس كلامه، وبيَّن تناقضه بدقة محكمة، فكان ـ كما يقال ـ من ذَنَبه خَنْقُه! وأيضاً فقد أبطل جواب الشيخ القرضاوي مبيناً فساد جمعه بين قولي ابن العربي المتناقضين وذلك في أحد عشر وجهاً جاءت غاية في الوضوح، وفي التطبيق السليم المدهش لِأَدَقِّ القواعد الأصولية.

وأريد ألا أفيض في سرد ملامح هذا البحث القيم الخطير من حيث ارتباطه بصميم حياة مئات الآلاف من المسلمين القاطنين في الغرب المسيحي، وألا أقحم نفسي في تعداد تفاصيله، فمن الأليق أن أترك القارىء الكريم يقف بعينه على مضامن هذا البحث المشرق ليتلذَّذ به، وليتمتع بمنهجية في التحليل والتصويب لا يكاد يظفر بها غالباً إلا في كتب المتقدمين من فحول أئمتنا الأعلام كابن حزم، وابن القيم، وابن تيمية، وابن دقيق العيد، والشوكاني، وعبدالحي اللكنوي وأضرابهم.

ولكني أود منه أن يتفضل بالوقوف على كتاب «أحكام الذبح واللحوم المستوردة من الخارج» ـ وهو عبارة عن مجموعة فتاوى لعدد من كبار العلماء أمثال الشيخ محمد بن إبراهيم، والشيخ الداعية عبدالعزيز بن باز، والشيخ عبدالرزاق عفيفي، وعبدالله بن غديان، الذي أصدرته الجمعية العربية السعودية للثقافة والفنون[١]، وأن يمر أيضاً على فتوى مماثلة للشيخ الإمام الدكتور عبدالحليم محمود[٢] ـ رحمه الله ـ ويطل على رأي الشيخ عبدالقادر

---

(١) يقع الكتاب في ٦٣ من الحجم المتوسط ـ طبعة أولى ١٩٧٩ ـ إدارة الثقافة، الرياض.

(٢) «الفتاوى» ج٢/٢٢٠.

عطا[1] ـ رحمه الله ـ ويتأمل جواب الشيخ الدكتور أحمد الشرباصي[2] في طعام أهل الكتاب، ثم يمعن النظر في معالجة هؤلاء العلماء الفحول لهذا الموضوع الذي شغل الناس والفقهاء منذ زمن، وليقارن بينها في روية وأناة، فسيدرك ـ لا محالة ـ أن فتاويهم لا تبل لظامئ غليلاً، وأن البون جد عريض بينها وبين بحث شيخنا الإمام الذي أبان فيه من سعة أفق، وملكة تحصيل، ودقة نقد، وعمق تحليل ما يبهر العقول. ولا تحسبني أني ألقي القول جزافاً، كلا، فبالمقارنة يستبين الحق، وينجلي الصواب، ويلمس تفاوت المدارك. . .

وإشارة أخيراً يقتضيها الموضوع نفسه، وهي أن للمصلح العالم سيد أحمد خان الهندي كتاباً أسماه «أحكام طعام أهل الكتاب» مال فيه إلى حل طعام اليهود والنصارى! ولا عجب من جرأة رأيه، فقد كان ـ غفر الله له ـ يحث المسلمين في برمجة «إصلاحه» على التشبه بالإنجليز في عاداتهم، وأساليب معيشتهم، داعياً في حماسة وقوة إلى هذا التقليد الشنيع، وإلى هذه التبعية المذلة[3].

بارك الله في إنتاج شيخنا الإمام سيدي عبدالحي بن الصديق، وأجزل له المثوبة.

طنجة في ٣ شوال ١٤١٤هـ = ١٦ مارس ١٩٩٤م

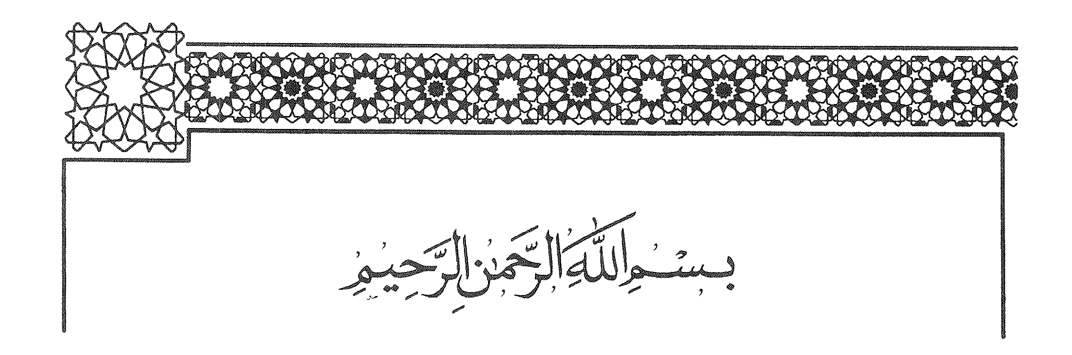


---

(١) «هذا حلال وهذا حرام» ص١٥٤.

(٢) «يسألونك في الدين والحياة» ج١/٤٥٣.

(٣) «الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية في الأقطار الإسلامية» ـ أبو الحسن الندوي. صحيفة ٦٧.



نقد مقال
في مسائل علم الحديث والفقه وأصوله وتفضيل بعض المذاهب
للإمام الشيخ عبدالحي بن الصديق

أحمد الله رب العالمين، وأصلي وأسلم على خاتم الأنبياء والمرسلين، سيدنا ومولانا محمد، وعلى آله وصحابته ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين.

أما بعد:

فهذه طبعة ثانية[1] لهذا الكتاب الرائع «**نقد مقال**» بعد أن نفذت طبعته الأولى من بضع سنين وعزَّ تداوله بين الناس.

وما أحسبني في حاجة إلى التعريف بمؤلفه، فشيخنا الإمام العلاّمة

---

(١) لما عقد شيخنا الإمام العزم على طبع كتابه «نقد مقال» طبعة ثانية طلب مني أن أعدّ له تقديماً، وأمهلني أياماً ثلاثة، فتهيبت، ثم توكلت على الله وكتبت! ولما قرأته عليه بحضور ثلة من خلص رفقائه نشط له، ودعا لي بالتوفيق والبركة.. ثم ذهبنا إلى مطبعة صديقي السيد عبدالحق بخات مدير المطابع المغربية والدولية ـ طنجة، وتوافقنا على لوازم الطبع، غير أن المنية أدركت شيخنا الإمام والكتاب على وشك أن يوضع قيد الطبع، فالله أسأل أن يقيض لهذا الكتاب القيم المتين من يتكفل بطبعه لجزالة مباحثه، وغزارة مادته، وجليل فوائده، وسديد منهجه الذي يعد مدرسة صديقية قائمة الذات.

المحقق سيدي عبدالحي بن الصديق ـ رعاه الله ـ قد عرَّف به إنتاجه المتميز الذي هو ضمان علوّ كعبه في دقة التأليف، وأضفى عليه من حُلل الثناء والتنويه ما يستحق، وإن كان شيخنا ـ كما أعرفه ـ يطوي في تواضع العالم محاسن ما حباه الله به من فكر ثاقب، وحصاة رزينة، مع اطلاع واسع دقيق. ومن لازمه ملازمتي له التي أنافت على عقود أربعة، ما إخاله إلا وقد تنبه إلى خاصيَّة قلما تُلمس في غيره، ذلك أنه ما من مسألة علمية تُلقى عليه، أو تَنزو بذهنه إلا وأمعن في فحصها بمعيار الاحتراس، وتعمق فيها بميزان الدقة، وقلَّبها ذات اليمين وذات الشمال على محكِّ الأدلة والقواعد ليخلص بها آخر المطاف إلى التعريف بحقيقتها صواباً من خطأ، وخطأً من صواب. ولعمر الحق، إنه ليبهرك بتدفق منهله أصيلاً نافعاً، وبمتين منهجه سليماً أخَّاذاً، بين الصُّوى، واضح المعالم، يرسم لُمَعاً من غرر الفوائد ومحكم الحقائق.

وهذه الخاصية التي يشهد له بها ـ كما قلت ـ من لازمه عن كثب أو كُتب أيضاً، تقودني إلى أن أعطف ـ ولو في إيجاز ـ إلى بسط جوانب من «نهجه الصديقي» الذي طالما بثَّه في تلامذته، وغرسه فيهم، ورعاه بعناية وقد زخرت به مؤلفاته ورسائله، منهج يرتكز أساساً على الشمولية، والاستقراء، والموضوعية، والتجديد البنَّاء.. ومن أبرز مميزاته:

١ ـ التماس الأدلة من معاقلها المعتبرة عند الجمهور: الكتاب والسنة والإجماع والقياس.

٢ ـ تماسك البراهين في خط محكم متين لا ينفصم حتى إذا ما أطلق حكماً نهائياً فلم يكن أبداً عارياً من الحجج، غُفْلاً من العلل.

٣ ـ تعمق في أسباب الإقناع بأسلوب يرتاح له القارىء إذ يرى فيه المنهج القويم لطبيعة التشريع وروحه، وأيضاً التسلسل المنطقي عند إثبات الأدلة وتحليلها وترتيبها، ليفضي كل ذلك إلى نتائج وأحكام ينقاد لها كل عقل يرتجي وجه الصواب.

٤ ـ السعي إلى تحرير الفقه الإسلامي مما علق به من أصفاد الجمود،

وقيود التقليد التي عطلت سير ابتكاراته واجتهاداته قروناً من الزمن، وجعلت منه قواعد راسخة وأصولاً صلبة كأنها أفرغت في قوالب من حديد تأبى الليونة واليسر، وتكابر الإنصاف والصواب، ويعادي سدنتها من يجحدها وينبو عنها! وقد استطاع شيخنا الإمام بمهارة مقدماته البيانية أن يزلزل بعضها بقواطع الأدلة ومتين البراهين التي كشفتها على العراء، وأزالت عنها قدسية التسليم المطلق والرضا الأعمى، وجردتها من هالة التبجيل الصرف، وأبدتها ـ لمن ألقى السمع وهو شهيد، وكما هي في الواقع ـ قيوداً سريعة التصدع، وأصفاداً سهلة الانقضاض، لا تصمد لأيسر رَيْدة حق، ولا تتمنَّع عن بصيص لمعة صواب، لأنها قد استندت إلى ركن غير سديد.

٥ ـ مجانبة ما ألفه غالبية الفقهاء في عصور الجمود والضآلة الفكرية من أساليب رتيبة ركيكة غامضة غثَّة سقيمة يكسوها الجفاء، وتعلوها عناكب التقليد، تلك الأساليب الفجَّة لم تعد تقنع أبسط القراء معرفة، فيعرضون عنها في ضجر وامتعاض، فكيف بمن انفتحت مداركهم على أفانين من مجدات العصر الحديث، واتسعت حصيلتهم في ميادين العلوم حتى اغتر غير قليل منهم بكل فكر وافد مُراوغ ـ فانزلقوا في بؤرته وغرقوا في أوحالها إلى شحمة آذانهم ـ وبكل مذهب زائف برَّاق يحمل في ثناياه سُمّاً دفيناً ناقعاً يفتك بالإسلام وحضارته وعلومه وأخلاقه، هؤلاء المستغربون الغُرّ أخذتهم العزة بالإثم، فأصبحوا لا ينظرون إلى الفقه الإسلامي إلا شزراً، معرضين عنه في استخفاف وتهكم بأصحابه دون تمييز بين الغث والسمين، وفي تهزُّؤ وسخرية بمواضيعه دون إدراك بين جليلها وسقيمها.

٦ ـ مقاومة شديدة لظاهرة الجمود على النصوص الواهية.

٧ ـ بعث لحيوية النصوص التشريعية على ضوء الكتاب والسنة كي لا تظل القضايا الفقهية ضحية تقليد لا حياة فيه، ولتنفك الفتاوى من شرك الضحالة، والتمحّل، والتزمت، والتعصب المذهبي الشنيع.

٨ ـ صوت متماسك لمنهجية تطبيق القواعد الأصولية المعتبرة عند تفسير النصوص.

٩ ـ إحياء مدرسة ذاتية قوامها الاستقلال الفكري والتجديد في طرق البحث وسبل التحليل، والالتزام بالضوابط التي تمليها سلوك المناقشة البناءة والموضوعية على غرار مدرسة السلف الصالح التي ارتضاها أئمتنا الأعلام وقاموا بتطبيقها.

١٠ ـ الحرص على أن تفرغ المواضيع المطروحة للبحث في إطارها الصحيح لتثير في عقل القارىء، ووجدانه بواعث الارتياح، ودواعي الاطمئنان إلى جدية البحث ونزاهته.

١١ ـ اتخاذ كل قوي من الدليل، وكل واضح من البرهان، وكل ناصع من الحجة نصب الأعين حتى تبدو أعمدة البحث متينة البنيان، رصينة التأسيس، بينة المعالم، تُفضي حتماً إلى حكم لا يدانيه محتمل من الظن، ولا يلامسه مفترض من الرأي، ولا يقوى عليه مشهور أو راجح من القول، أعمدة معتبرة نقلاً وعقلاً.

١٢ ـ نشل علم أصول الفقه من الغثاء الذي لحق به على مر الأزمنة، واستئصال الأوشاب من قواعده.

وهنا أريد أن أشير إلى أن شيخنا الإمام جبل لا يُتوقَّل إلى مَصاده في علم أصول الفقه الذي أَلاَنَه الله له كما ألان الحديد لسيدنا داود عليه السلام، فكتبه تعد في هذا الفن تطبيقات نيرة لقواعده التي أسلس قيادها، فأحياها بحسه الأصولي الفقهي، وأضفى عليها رشاقة أخاذة، وطلاوة ممتعة تَنبِض حركة في معترك المواضيع التي يعالجها قلمه.

١٣ ـ مجانبة إقحام عقل القارىء بكثرة النقول، وإثقال ذهنه بلفيف من الاستطرادات وفيض من الأقوال التي غالباً ما يشكو منها، لذا يكتفي شيخنا الإمام بإيراد أهم النصوص دلالة، وأوثقها برهاناً، وأقواها صحة على صلب الموضوع ليلمسها القارىء في ثبات، ويركن إليها في يقين.

١٤ ـ رفع لواء الثورة على التعصب والمكابرة، لأن القصد الذي يسعى من ورائه كلُّ منصف من العلماء هو ملاحقة الصواب ومناصرته، لا

الاعتلاء على شفا جُرف هارٍ إذ لا يجابه بالعناد إلا من قعد به الجهل في بؤرة التقليد الأعمى البغيض.

وتجدر الإشارة في هذا الصدد بالذات إلى أننا إذا ما أحسننا ـ في بعض الأحايين ـ بشحنة من الانفعال تتمالك قلم شيخنا الإمام، وزيادة من الحماس تتناثر منه، فإنما هي غضبةُ الحق التي تدرأ نزوات الباطل من الأقوال، وسورةُ الأمانة العلمية التي تقتحم ـ وبشدة ـ مسالك المراوغة البحتة، والخداع الصُراح، وفورة اليقين التي تطرد مفاسد الزائف من الآراء، والمعوج من الفِكَر التي تحاول أن تطمس معالم الدلائل والشواهد الناطقة بالصدق.. وهذه «الثورة الصديقية» هي ـ في الواقع ـ تحريض العقول على التفكير الحرّ المتزن.. ولا غرو، فإن الحث على هذا التفكير المتمسك بروح التشريع هو ـ أولاً وقبل كل شيء ـ فريضة إسلامية غفل عنها كثير من المقلدة.. ومن هنا كان شيخنا أحرص ما يكون تلهفاً على رضا الصواب، ومؤيداً لصولة الحق، وأشد ما يكون إنكاراً على صلف المكابرة، وتحاملاً على هوى التعصب المذهبي.

فهذه ـ إذاً ـ بعض السمات المميزة لمنهج شيخنا الإمام وهي تطفو ـ كما أسلفت ـ على جلّ مؤلفاته التي تختلف منحىً وموضوعاً، وترتبط بحياة الناس دنيا وأخرى[1].

ولا مراء في أن منهجه هذا يعدّ يقظة من يقظات السموّ في التحقيق العلمي، ومما يزيده رسوخاً في نفس كل من تبصّر في كتبه أن مؤلفاته لم تُعقب عليها أقلام العلماء ـ على اختلاف مشاربهم المذهبية ـ إلا بكريم التنويه، وجليل التقدير برغم ما تحمله من نقدٍ صريح ـ لا يخلو من حرارة في القول ـ لكثير من أصول مذهبهم وفروعه، ودحضٍ ركين صارم لمزاعمهم وأوهامهم.. ويقيني أنهم لو لمسوا فيها غير إشراقات الحق، وغير دلائل الصواب، وغير سبل الإنصاف الذي هو قبلته في كل ما يكتب، لما ثنوا عنان أقلامهم عن الردّ، ولقالوا، ثم قالوا.. ولكنهم

---

(١) انظر: كشف تآليفه في ترجمتي له.

جنحوا إلى السلم، وأمسكوا عن إثارة زوابع لا تغني من علم، وخيراً فعلوا، لأنهم وضعوا موازين القسط في محلها وإليها احتكموا؛ وكما قال ابن عباس رضي الله عنهما: «لم يمل إلى المغالبة إلا من أعياه سلطان الحجة»[1].

وبعد هذا الاستطراد الذي اقتضاه المقام، فماذا عن كتاب «نقد مقال»؟ بدءاً أشير إلى أن مجلة «العربي» الكويتية نشرت مقالاً[2] لأستاذنا الكبير العلاَّمة الأديب فضيلة الشيخ سيدي عبدالله كنون[3]، كان له صدىً دويّ. وبعدما قرأته ـ وقد أوقفتني في تأمل وتساءل مضامن من فقراته ـ أطلعت عليه شيخنا الإمام علّني أفوز بتعليقاته عليه وتعقيباته الهادفة، فتصفحه ولاحت له منه ـ أول وهلة. مآخذ وعثرات عرَّفني بعضها وكأن لسان حاله يقول:

إذا المشكلات تصدَّيْن لي كشفتُ حقائقها بالنظَرْ
وإن برزتْ في مَخِيل الصوا بِ عمياءُ لا يجتليها البصَرْ
مُقنَّعةٌ بخفيِّ الشكو كِ وضعتُ عليها صحيحَ الفِكَرْ[4]

ثم عقد العزم على أن يتصدى له بالنقد الصريح نصرة للحق، وإظهاراً للصواب، ومساندة للإنصاف.

وحريّ بمن يجرد قلمه في «معترك الفحول» أن يتحلى بجلال العلم ونزاهته، وبوزانة الفكر وسداده، وببَزلاء الرأي ونضجه، وبشروط التحقيق وأدلته، وأن يكون ذا لسان حي صادق[5] تزكيه أمانة العالم الذي لا يخشى

---

(١) «البصائر والذخائر» لأبي حيان التوحيدي ج٩/١٨٣.
(٢) في عددها ١٥٢ ـ يوليو ١٩٧١.
(٣) توفي رحمه الله يوم ١٠ يوليو ١٩٨٩، كان زميل مولاي الوالد ـ تغمده الله بواسع الرحمة ـ في تلقيهما الدروس العتيقة على أبيه العلاَّمة الصوفي الشيخ سيدي عبدالصمد كنون في العشرينات.
(٤) «الأمالي» للقالي ج٢/١٠١.
(٥) تلويح إلى اسم شيخنا الإمام.

في الحق لومة لائم، ولا تصده عنه شهرة القائل وعريض سمعته. وشيخنا الإمام ممن تتعاطف فيه هذه الصفات. فنراه كيف انبرى بمجهر الناقد المتبصِّر يتتبع تلك القضايا التي تطرق إليها العلاَّمة الشيخ كنون في مقاله ذاك ولم يحالفه فيها الصواب، فجاء ردّه عليها نقداً مثيراً شيقاً غاية في نصاعة البحث العلمي الموضوعي احتواه مجلد ضخم تعسَّر نشره كاملاً أمام تكاليف الطبع الباهظة. وحرصاً منه على ألاَّ يظل الكتاب قامعاً بين مخطوطاته الأخرى، ومراعاةً منه لتعميم الفائدة، رأى أن يختصره، فاختصره. وصدر الكتاب في طبعته الأولى[1]، فتداولته الأيدي، وتناقلته الألسن في محافل العلم وحلقاته. ووقف عليه أستاذنا الشيخ كنون، وهو الشغوف بالاطلاع على الجديد في دنيا الكتب بحكم مركزه العلمي المرموق[2]، وباعتباره أحد رجال الفكر والدعوة في الإسلام، وبكونه طرفاً معيناً في موضوع الكتاب، وهو أيضاً الحريص على التصدي للدُّخلاء على العلم كاشفاً عن مغالطاتهم وفَرَضِياتهم، داحضاً تضليلاتهم وادعاءاتهم، مفنداً الزائف من أقوالهم، والمعوجَّ من آرائهم في الدراسات والبحوث الإسلامية والأدبية واللغوية وغيرها. وهذه كتبه تعدّ خير شاهد على هذا المسلك الجليل الذي ارتضاه لنفسه، وقيَّد به جهاده. وإني لعلى يقين ـ لما أعرفه من مواقف أستاذنا

---

(١) وذلك سنة ١٩٨٨ بمطبعة البوغاز في ١٩٩ صفحة من الحجم الكبير.

(٢) عمل رحمه الله في عديد من المجامع والمنتديات الإسلامية والعربية، فهو:
- عضو مؤسس في المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي.
- عضو بمجمع البحوث الإسلامية ـ القاهرة ـ.
- عضو بالمجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية «مؤسسة آل البيت» ـ عمان.
- عضو عامل بمجمع اللغة العربية ـ دمشق ـ.
- عضو عامل بمجمع اللغة العربية ـ القاهرة ـ.
- عضو بأكاديمية المملكة المغربية.
- عضو بالمجلس العلمي الأعلى ـ المغرب ـ.
- الأمين العام لرابطة علماء المغرب منذ تأسيسها.
- عضو المجلس العلمي بالقرويين.
- رئيس المجلس العلمي الإقليمي بطنجة.

الشيخ كنون ـ أنه لو كان رأى في «نقد مقاله» أدنى عزوف عن جادة الصواب، وأصول النظر، وضوابط البحث، لجرَّد يراعه، ولما تأخر لحظة عن الردّ، ولفتح باباً أخرى من «معاركه»[١]، ولخاض لججها بكل قواه، ولكنها أخلاقية العالم الضليع المتمكن أمام إشراقة الحق، فإذا ما رأى طلعة «الصدق» أومأ إليه بتحية التقدير التي هي أسمى تعبير عن كريم منصب العلم، وشريف منزلة العلماء[٢].

ويجدر التنبيه إلى أن القارىء لن يعثر في طي الكتاب على لمحة من شطط التعالي، ولا على عبارة من صلف التنكيت بل ـ عكس هذا ـ سيقف على ضرب من السلوك الرفيع الذي ينبغي أن يسود بين العلماء عند مطارحة القضايا واختبارها على مِحَك البحث الرصين، بل يرى كيف يتلمس شيخنا الإمام بعض العذر لما وقع فيه أستاذنا الشيخ كنون من عثرات وهفوات، فنجده يقول مثلاً: «ومن عجب العجاب أن نرى مثل الأستاذ كنون. .» أو يقول: «إن الأستاذ كنون كتب مقاله بدون نظر وبحث. . .» ولعله فعلاً قد كتبه عن عجل، فهو فضلاً عن إشرافه على مجلة «لسان الدين»[٣] وجريدة «الأنوار»[٤]، و«الميثاق»[٥]، و«الإحياء»[٦] قد نُشرت له ـ على مدى ستة عقود ـ مقالات في أشهر الصحف والمجلات العربية والإسلامية، وأيضاً

---

(١) «معارك» أحد مؤلفات الشيخ كنون.

(٢) أخبرني شيخنا الإمام أنه بعد نشر كتابه «نقد مقال» صادف ذات مساء بحي مرشان الشيخ كنون رحمه الله على متن سيارته الرسمية، فلوح إليه برأسه ويده تحية منه، فردها شيخنا عليه تحية وسلاماً. وهذا الصنيع من أخلاق نبلاء العلماء وإن امتد بينهم حبل النقد العلمي. وطلعة «الصدق» إشارة إلى هذا اللقاء، و«الصدق» تورية مرشحة إلى اسم شيخنا الإمام سيدي عبدالحي بن الصديق.

(٣) «لسان الدين» جريدة كانت تصدر بتطوان، وأول عدد لها كان في يوليو ١٩٤٦.

(٤) «الأنوار» جريدة صدرت بتطوان سنة ١٩٤٦، تطبع بالمطبعة المهدية.

(٥) «الميثاق» جريدة لسان رابطة علماء المغرب، صدر أول عدد لها في فبراير ١٩٦٢ ـ طنجة.

(٦) «الإحياء» مجلة إسلامية جامعة نصف سنوية، تابعة لرابطة علماء المغرب، أول عددها صدر في ماي ١٩٨١.

الجامعية والمجمعية منها.. هو «صحفي» إذاً، وعادة الصحفي التعجل، وفي العجالة عثرات! ومن بين عثراته في هذا المقال:

- أن الإمام مالك يحكم العقل في النقل إذا اشتبه عليه الأمر ليصل إلى مراد الشارع![1].

- أن الباحثين المعاصرين مستشرقين وغيرهم قد لاحظوا على علماء الحديث أنهم لم يتناولوا متون الأحاديث بالنقد والتصحيح كما تناولوا أسانيدها![2].

- أن أهل الأمصار من أتباع مذهب مالك جعلوا من العمل عندهم أصلاً من أصول المذهب![3].

وهلم جرا من الأقوال والآراء التي سطرها قلم أستاذنا الشيخ كنون، ونافح عنها، فتصدى لها شيخنا الإمام، وتتبعها شبراً شبراً، وفندها عروة عروة، ولم يذر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها عليه، وصدع بها أمام القارىء مستنداً على الصريح من الأدلة، والبيِّن من البراهين، كاشفاً عن ضعفها بميزان القواعد العلمية حتى بدت واهية لا تستقيم على ساق سليم لتظل - كما هي - مجرد أقوال وآراء لا يعتدّ بها لأنها لا تهتدي بهدي مقاصد الشريعة.

وعلى هذا النسق الدقيل يسير أسلوب شيخنا الإمام في كل ما يكتب ويناقش.. تراه يترصد لكل دعوى يقيمها الخصم، وينقضّ على كل خطأ سها عنه ولم يتنبه له، فيحصره في إطاره، ثم يتفرغ لتفنيده تدريجياً بحقائق ملزمة، ولم يزل به حتى يحمله قهراً على الاعتراف بخطئه، وإلا أوقعه في تناقض من حيث لا يدري.. ثم يضع القلم ويطوي الموضوع وكأنه لم يترك بعده قالة لقائل..

---

(١) انظر: «نقد مقال» الطبعة الأولى ١٩٨٨ صحيفة: ٩٧.
(٢) نفس المصدر ص١١٢.
(٣) نفس المصدر ص١٣٣.

وفي هذا الحقل الخصب لا إخال القارىء الكريم - وبين يديه هذا الكتاب - إلا في متعة علمية وهو يتلقَّى سيلاً من الأمثلة على مخالفة المذهب لنصوص تشريعية معتبرة[1] .. أو يساير - في إعجابه - التحليل العميق المتزن لحقيقة المذهب الوسطي[2] .. أو يقف - في ارتياح - على بيان أنواع الاجتهاد وطبقاته، والرد على من زعم أن اجتهاد الإمام مالك رضي الله عنه اجتهاد مطلق[3] .. أو يتتبع - في تمعّن - خطى النقد العلمي المتريث لعمل الأمصار عامة، والعمل الفاسي خاصة[4] .. أو يجني - في تلهُّف - ثمرات علمية عند مسايرته قواطع البينات التي تدحض دعوى توجيه الحكم أو الفتوى بالقول الضعيف أو المجهول[5]. ثم ما ألطفه من تحليلٍ للسبب في تقديم الإمام مالك رضي الله عنه العمل على الحديث الآحاد الصحيح! ثم ما أروعها من معالجة لمسألة مراعاة الخلاف[6].

وهكذا تمضي رحلة القارىء الكريم في هذه المتعة العلمية صفحة تلو صفحة، وموضوعاً تلو موضوع، فتأخذ بلبه، وتحرك فكره، وتبعث فيه نزوة البحث المتحرر من قيود التقليد المتحجّر العقيم، وتضعه على محجة الهدى، وسبيل الرشاد.

وبعد.. فهذه لمحة خاطفة لبعض المواضيع الدسمة التي عالجها شيخنا الإمام - رعاه الله - في كتابه هذا القيم، وقد تجسم فيه جانب ضافٍ من مميزات المنهج الصديقي وخصائصه عند دراسة القضايا التشريعية، وإن تراني أطلت الوقوف بعض الوقت في إبراز سماته، فقصدي أن أعرِّف - ولو اختصاراً - بفعاليته في مسالك البحوث الفقهية، لأنه ينير الطريق السويّ نحو

---

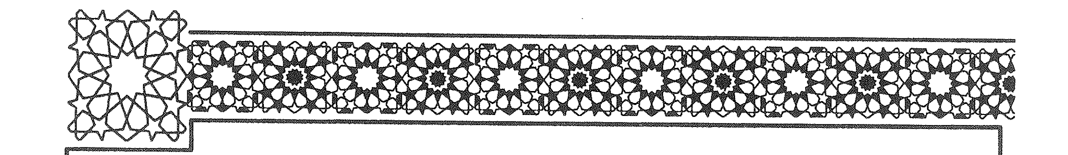
(١) نفس المصدر ص١٥٦.
(٢) نفس المصدر ص٣٣.
(٣) نفس المصدر ص١٣٢.
(٤) نفس المصدر ص١٣٣ - ١٧٧.
(٥) نفس المصدر ص١٤٦.
(٦) نفس المصدر ص١٢٨.

رضا الصواب.. أوَ لسنا نقول صادقين: أحسن الله إلى من يدلنا على وجه الصواب؟

فحسناك اللَّهم إلى شيخنا الإمام العلاَّمة المحقق سيدي عبدالحي بن الصديق.. ورحماك اللَّهم وغفرانك على أستاذنا الكبير العلاَّمة الأديب الشيخ سيدي عبدالله كنون.. إنك سميع مجيب.

طنجة في ٢٢ رجب ١٤١٤هـ = ٥ يناير ١٩٩٤م





بسم الله الرحمن الرحيم

الإفادة
بطريق حديث النظر إلى علي عبادة
للإمام الشيخ عبدالعزيز بن الصديق

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على مولانا رسول الله وآله الأطهار وصحابته الأخيار ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

سبع وثلاثون سنة مضت على تأليف هذا الكتاب[(١)]، وكأنه وليد الأمس القريب.. ولا يكاد القارىء ينطلق في أولى صفحاته حتى يحس بأنه أَمامَ عالم جليل القدر، ومحدث طويل الباع، وناقد راسخ القدم، بصير بفنه، ويدرك تمام الإدراك ـ آخر المطاف ـ أن المؤلف ـ وهو من أحفاد الزهراء عليها السلام ـ لم يسلك سبيل التعصب والغلو لسيدنا عليّ ـ كرّم الله وجهه ـ بل رآه كيف يحلل كل مسألة بمجهر العلم والأمانة، وبأسلوب الباحث الفاحص المتزن الذي يبتعد عن نزعات النفس وخذلان

---

(١) في منتصف سنة ١٩٨٢ طلب مني شيخي الإمام العلاَّمة المحدث الكبير سيدي عبدالعزيز بن الصديق عليه رحمة الله وغفرانه، أن أطبع له على الساحبة نسخاً من كتابه «الإفادة بطرق حديث النظر إلى علي عبادة» ـ وهو من بواكير إنتاجه ـ ففعلت، وقدمت له بكلمة قرأتها عليه قبل طبع الكتاب فرضي بها، ودعا لي بالتوفيق، ورغب في أن يُصدر بها مؤلفه هذا النفيس.

العاطفة، لأن غايته وجه الحق، وقصده إبراز الحقيقة.

وهذا دأب شيخنا الإمام وأستاذنا الجليل العلاّمة المحدث الكبير سيدي عبدالعزيز بن صديق ـ بارك الله في عمره ونفعنا بفيض علمه ـ أقول: هذا دأب شيخنا في كل ما يكتب ويحرر ويفتي.. إنه يبرهن لكل مسألة بالدليل حتى لا يدع سبيلاً للشك، ولا منفذاً للارتياب، فيسد بذلك كل مدخل على نزعة التضليل، ومجازفة الهوى لأن الدليل المعتبر ترتاح إليه النفس، ويذعن له العقل، فهو ميزان معرفة الحق من الباطل، والصحيح من الزائف، والصواب من الخطأ. فتراه ـ ومتين الحجج ونواصعها على سِنَّة قلمه ـ يناقش أعلاماً كابن عدي، وابن معين، وابن الجوزي وغيرهم، فيضع أقوالهم في ميزان الحق، ثم يردّ ما خف منه ردّاً متقناً يمرُّه على محك العلم، ويفند دعواهم بصراحة هادئة ونقد سليم. ألم تسمعه يقول: «نحن لا نحب أن نوصف بالغلو والإفراط، بل نعطي لكل ذي حق حقه لأن رائدنا الإنصاف والوصول إلى الحقيقة».. ويقول: «الوصول إلى الحقيقة غاية كل إنسان».

إن منهجه في البحث ـ وهو على درب المدرسة الصديقية ـ منهج واضح لا التواء فيه، ولا تحايل، ولا تمويه. ومن الصعب أن يرتقي إلى هذا المستوى الرائد من ركن في دائرة المذهبية المغلقة لا يرى «الحق» إلا في بؤرتها، ولا يلتمس «الصواب» إلا في مدارها، حتى أنه لا يستطيع أن يحيد عنها قيد فتر، متمسكاً بتفاهة الباطل وهو يراه في قرار نفسه باطلاً، معرضاً عن صواب الحق وهو يراه في يقين خلده حقاً!! إنه الخذلان في دركه الأسفل! فمن حبس نفسه وقيد عقله في دائرة «قدسية المذهب» لم يتورع في أن يقتفي ـ دفاعاً عن نزعته ـ سبيل التمويه والتعمية، والمراوغة، فينساب في مهاوي التضليل والتحيل، ويقتحم طريق الجرأة والعناد، ويرى في التحدي أنسب مقصد لغرض ترهاته التي يتخذها العامة سبيل الرشاد!!

إن الفقيه إذا غَوى وأطاعَهُ	قومٌ غَوَوْا معه فضاع وضيَّعَا
مثلُ السفينة إن هوتْ في لُجَّةٍ	تَغرقْ ويغرق كلُّ ما فيها معَا

وهذا موقف يخجل منه - والله - كل ذي لب رزين، ويرفضه رفضاً كل ذي بصيرة ويقظة.. فلم يا ترى هذا التعصب البغيض للخطأ؟ ولم هذا التقليد المتطرف للباطل؟ لم لا نأخذ بناصية الحق - والحق ضالة المؤمن - وندع ما يخالفه مهما كانت صولة قائله من «حراس المذهب الأوفياء»؟! فالأئمة - رضوان الله عليهم - قد اجتهدوا ما وسعهم الاجتهاد فالأجر يجانبهم سواء أصابوا أو أخطؤوا، ولكن الوزر كل الوزر على من تابع الخطأ، وأصر عليه عناداً ومكابرةً ومخالفةً للحق وهو به عليم.

ومهما يكن، فشيخنا الإمام ممن يزنون القول بميزان الحق، ويضعونه تحت مجهر الصواب، ويتبعون سبيلهما.

وحسب القارىء الكريم - تطبيقاً للمنهج الصديقي السليم - ما سيقف عليه في هذا الكتاب النفيس من دِقّة البيان، وصحيح الاستدلال، ووثيق النظر عند تحليل قضايا حساسة، منها على سبيل المثال لا الحصر:

- أن الأسبقية لا تفيد الأفضلية.

- وأن الطعن في الراوي لكونه شيعياً طعناً بارداً تافهاً لا يخضع لقواعد الجرح والتعديل، طعناً لا يجرؤ عليه إلا من ركب رأسه، أو من يتأجج صدره بالحقد والعداوة لآل البيت الأطهار.

- وأن خلافة سيدنا علي - كرّم الله وجهه - لمولانا رسول الله ﷺ كخلافة هارون لموسى عليهما السلام.

- وأن الصواب مع الدليل وإن عارضته الأغلبية.

وغير ذلك من البيانات الممتعة التي تعززها ثوابت البراهين وقواطع الأدلة.

«فالإفادة» كتاب - على صغر حجمه - جم الفائدة، جليل النفع لا يُستغنى عنه في بابه.. لقد جمع فأوعى...

ولأعد إلى شيخنا الإمام في شيء من لمحات عن حياته:

هو العلاَّمة المحدّث الواعية جمال الدين أبو اليسر سيدي عبدالعزيز بن الصديق، ينتهي نسبه الشريف إلى المولى إدريس بن سيدي عبدالله الكامل بن سيدي الحسن المثنى بن سيدي الحسن السبط بن سيدنا علي وسيدتنا فاطمة الزهراء، بنت سيدنا ومولانا رسول الله ﷺ.

وأمه هي الشريفة السيدة الزهرة حفيدة الإمام القطب الشهير سيدي أحمد بن عجيبة صاحب «البحر المديد في تفسير القرآن»[١]، و«إيقاظ الهمم بشرح الحكم» وغيرهما من تآليفه القيمة.

وُلِدَ شيخنا الإمام سنة ١٣٣٨هـ بطنجة في بيت يزخر بأرومة نبوية طاهرة، ويتعطر بنفحات الأخلاق الصوفية السامية.

بعد حفظه القرآن الكريم انكب على طلب العلم برعاية والده وإشاراته وتوجيهاته، فبانت عليه أمارات الفطنة والذكاء وهو يفع.. ولما توفي والده ـ رحمه الله ـ سنة ١٣٥٤هـ توجه إلى القاهرة فاعتام مجالس الدرس لكبار علماء الأزهر أمثال الشيخ عبدالمعطي الشربيني، والشيخ محمود إمام، والشيخ عبدالسلام غنيم الدمياطي، والشيخ محمود عزت وأضرابهم[٢]، فأخذ عنهم النحو، واللغة، والأصول، والفقه، والتفسير، والحديث وغيرها من العلوم، إلا أن نفسه تاقت إلى الحديث، فمال إلى هذا المنهل النبوي الصافي حفظاً وبحثاً وروايةً ودرايةً. وقد وجد في شقيقه الحافظ الحجة الشيخ الإمام سيدي أحمد ـ تغمده الله برحمته ـ مرتعاً خصباً نال منه بغيته ـ وكان كثير المطالعة في المسانيد والأجزاء المخطوطة منها والمطبوعة، حتى اعتلى مرتبة سامقة في علوم الحديث وصناعته تشهد له بذلك مؤلفاته، كما شهد له بالبراعة فيه أفذاذ علماء الأزهر الذين تداولوا مقالاته وردوده المنشورة في مجلة «الإسلام» وغيرها.

وفي سنة ١٣٦٧هـ عاد إلى بلده، واتخذ من الزاوية الصديقية ملتقى

---

(١) طبع أخيراً في ثمانية أجزاء بتحقيق د.عمر أحمد الراوي ـ دار الكتب العلمية، بيروت.

(٢) انظر: كتابه «تعريف المؤتسي بأحوال نفسي».

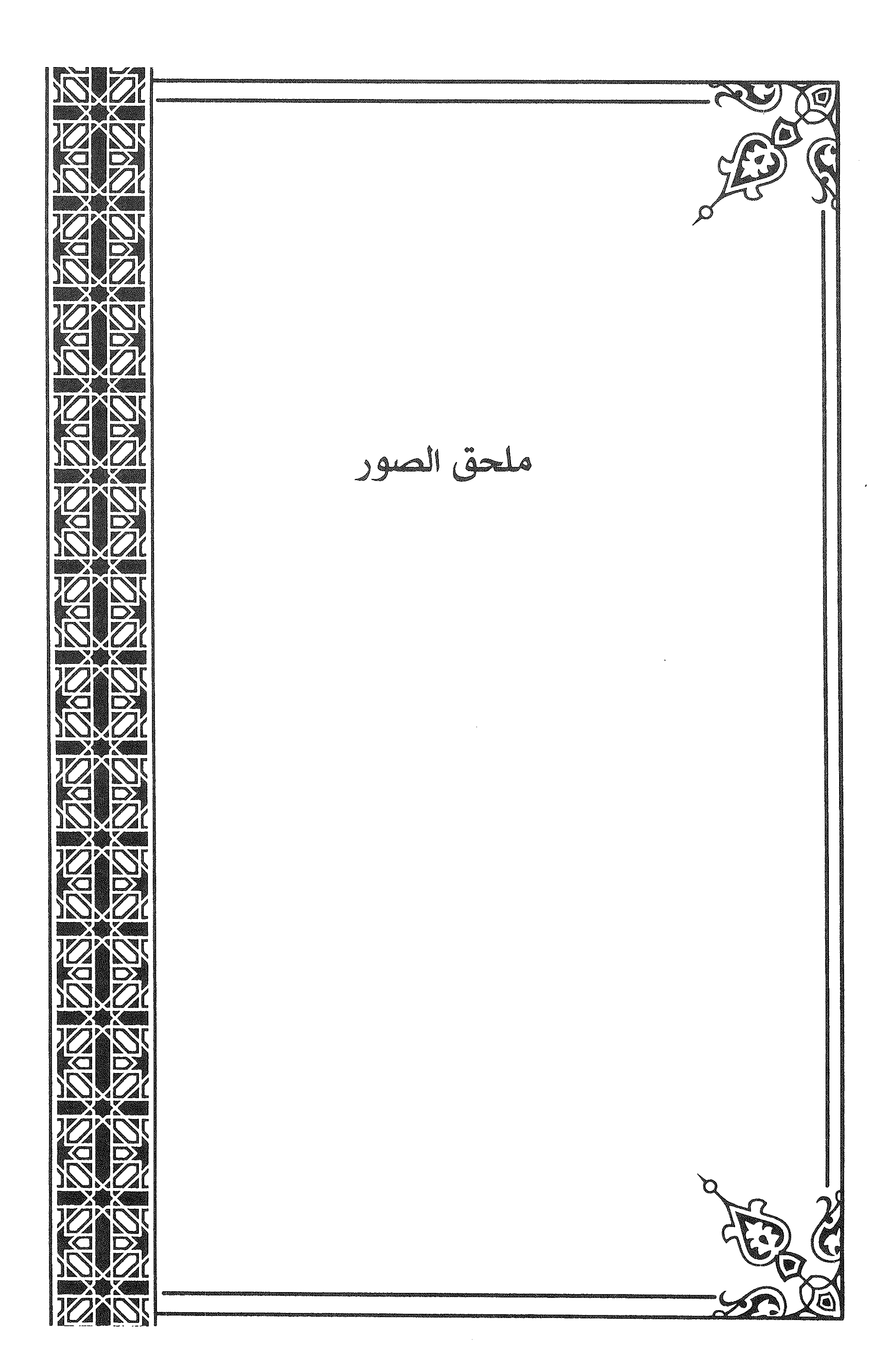
لطلبة العلم ينهلون منه دروساً في شتى الفنون وخصوصاً الحديث ومصطلحه، وتمتاز دروسه بدقة التوجيه، فيدفع عن طلبته ما علق بذهنهم من مفاسد الآراء، ويذكي فيهم روح البحث وحرية التفكير مع دعم المسائل العلمية بالحجج والأدلّة، كما اتخذ الزاوية منبراً للخطب، ورحاباً لحلقات الذكر والتصوف.. وهو إلى جانب كل هذا يواصل عمله في التأليف، وقد ساهم إلى حد الآن بتصانيف قيمة في إنماء المكتبة الإسلامية[1].

وبعد.. فهذا كتاب «الإفادة» سيجد فيه القارىء غزارة علم ممتعة، وسيظفر بمنهجية تطبيق فن الحديث.

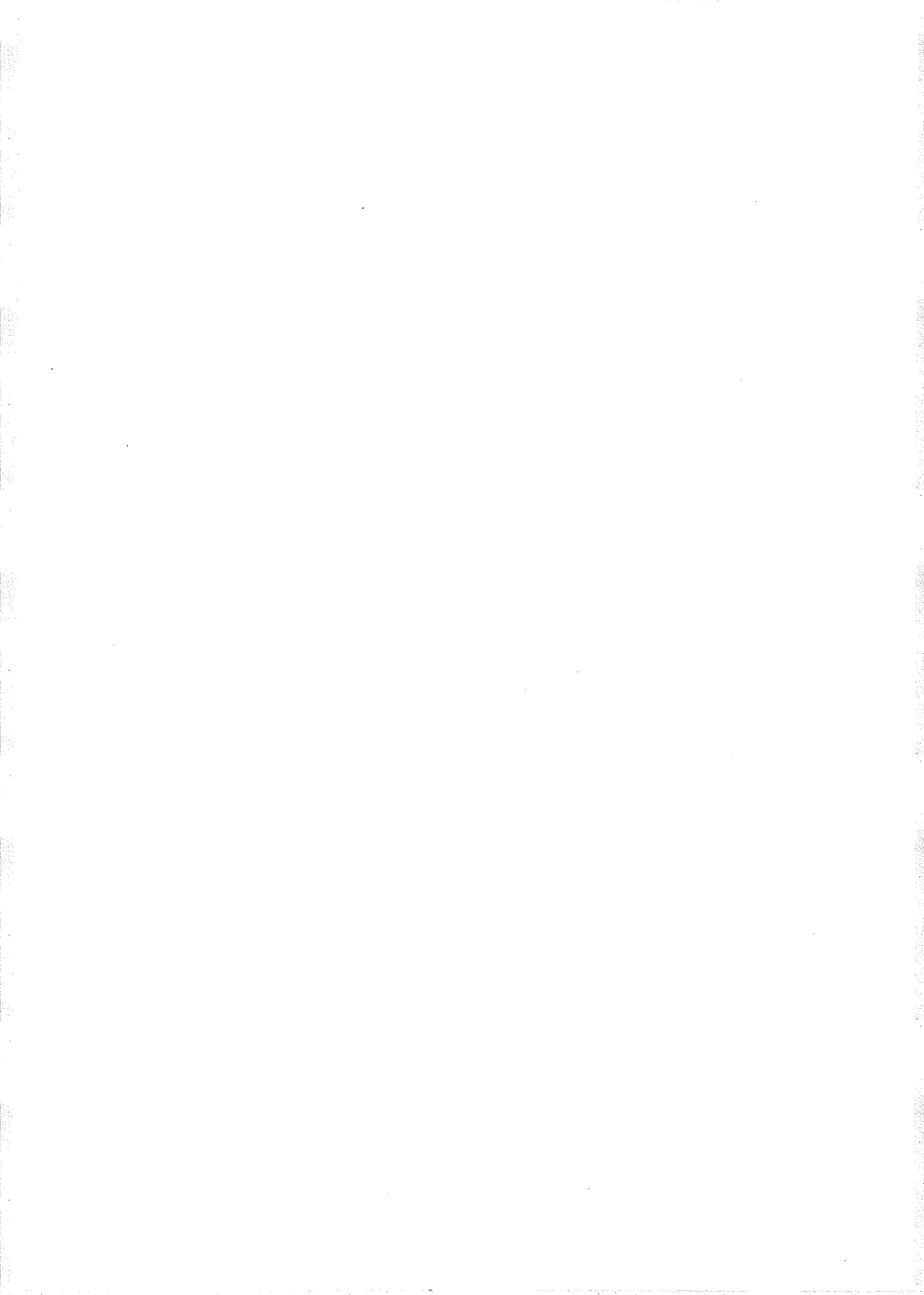
طنجة في ٤ شوال ١٤٠٢هـ

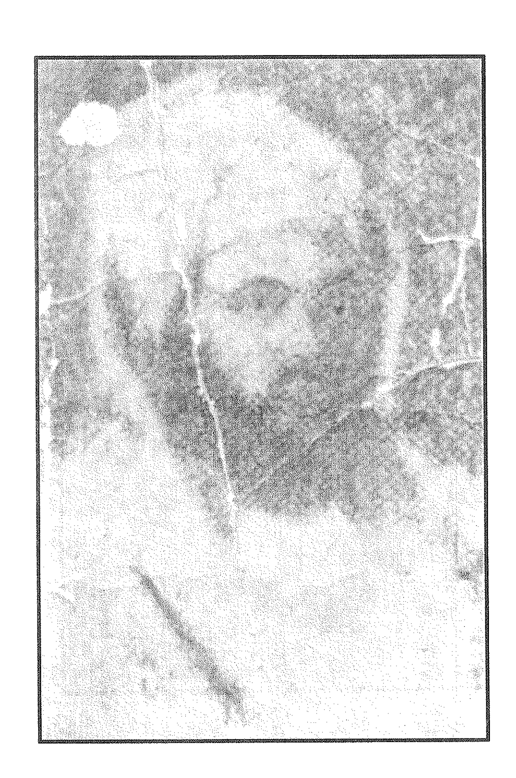


(١) عدلت عن ذكر ما سطرته من أسماء كتبه في هذا التقديم، فانظرها في ترجمتي له من هذا الكتاب.

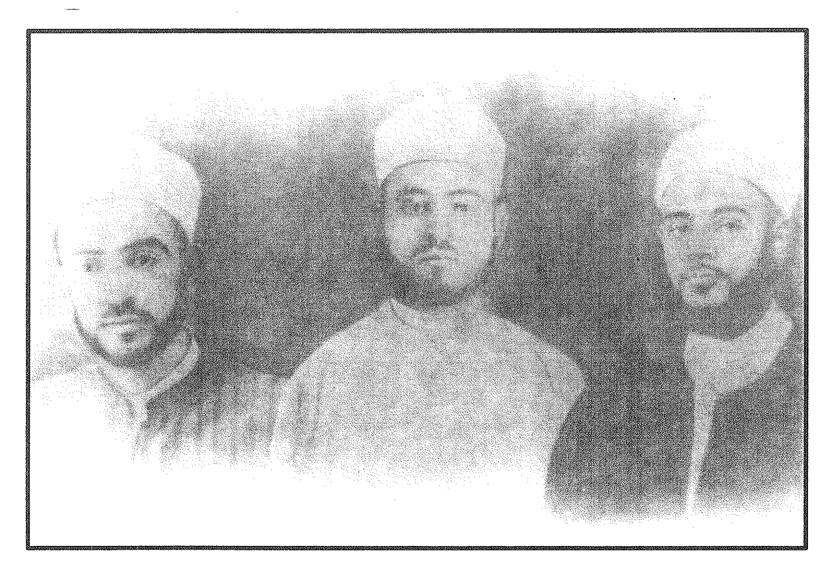


ملحق الصور





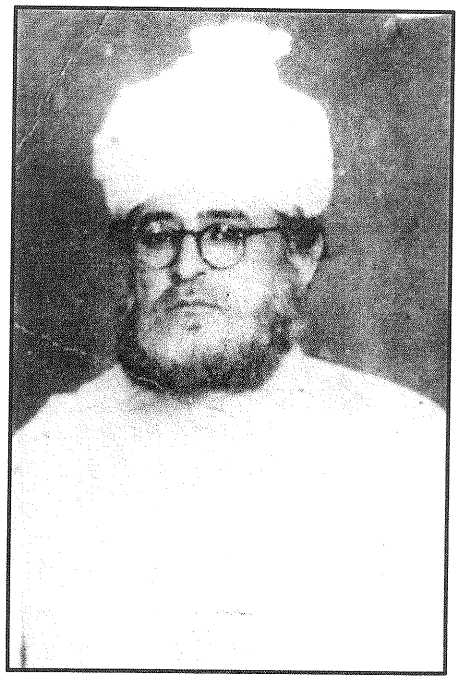
الإمام سيدي محمد بن الصدّيق ريحانة، طنجة المتوفى سنة ١٣٥٤هـ



أيام الشباب في القاهرة، الشيخ الزمزمي، سيدي أحمد، سيدي عبدالله



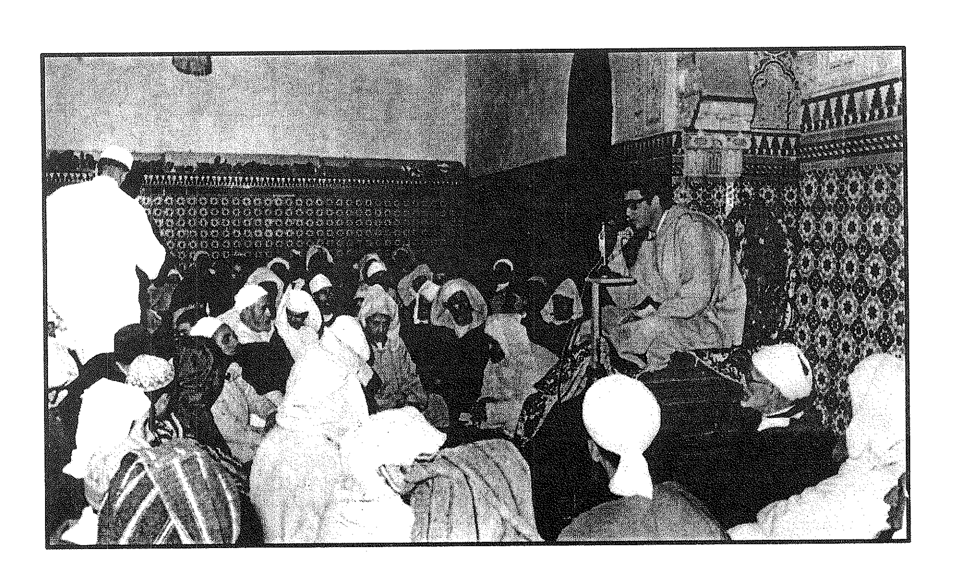
السيد أحمد في آخر شبابه في طنجة



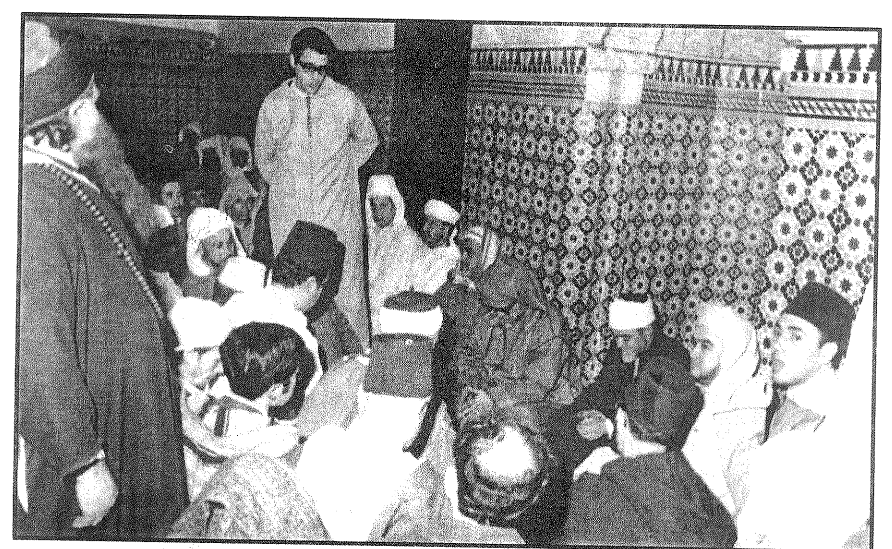
سيدي أحمد آخر حياته في السودان



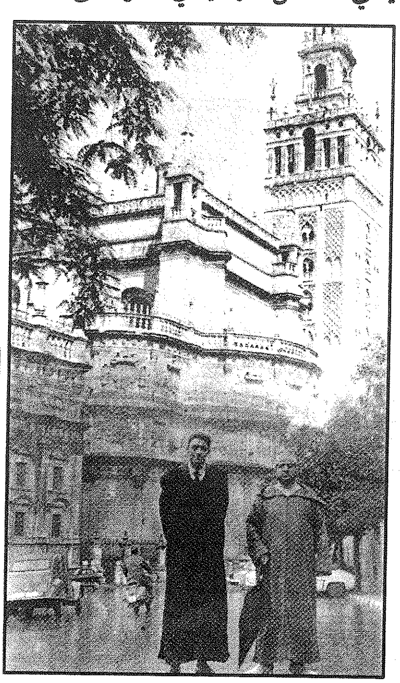
صورة نادرة تبدي الشيخ الحافظ سيدي أحمد بن الصديق يتوسط جمهوراً غفيراً جاؤوا لملاقاته بميناء طنجة سنة ١٩٤٦ وعن يمينه شقيقه الشيخ سيدي عبدالعزيز بالزي الأزهري وعن شماله شقيقه سيدي عبدالحي



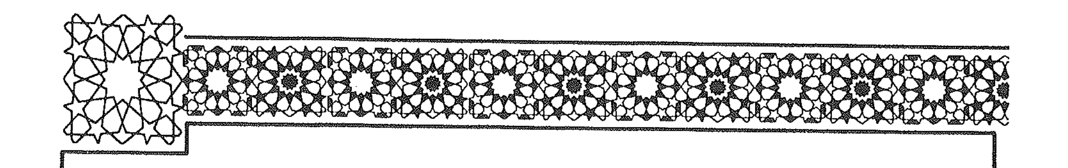
كلمة ألقيتها بالزاوية الصديقية سنة ١٩٧٧ بمناسبة حفل تكريم الشيخ سيدي عبدالله بن الصديق الذي يبدو بجانب الكرسي بجلابيته البيضاء



كلمة ترحيب بمناسبة قدوم الشيخ سيدي عدالله بن الصديق من مصر يوم ١٥ يناير ١٩٧١ ألقيتها بالزاوية الصديقية. ويظهر في الصورة الشيخ سيدي عبدالله في المحراب بزيّه الأزهري، وعن شماله شقيقه الشيخ سيدي عبدالحي، وعن يمينه الشيخ سيدي عبدالعزيز ثم إخوته الثلاثة سيدي الحسن، وسيدي المرتضى والدكتور سيدي إبراهيم

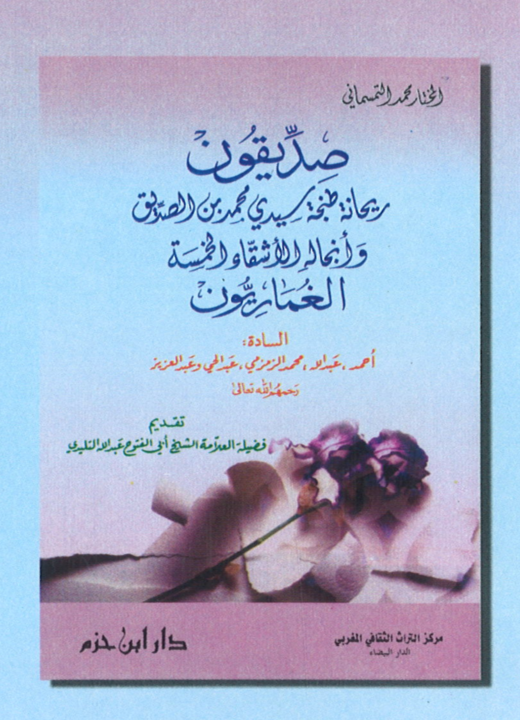


مع الشيخ سيدي عبدالعزيز بن الصديق في مدينة إشبيلية الإسبانية إثر سفر قمنا به إلى مدن أندلسية في يناير ١٩٦٣



فهرس الموضوعات





المختار محمد التمسماني
صديقون
ريحانة طنجة سيدي محمد بن الصديق
وأنجاله الأشقاء الخمسة
الغماريون
السادة:
أحمد، عبد الله، محمد الزمزمي، عبد الحي وعبد العزيز
رحمهم الله تعالى
تقديم
فضيلة العلامة الشيخ أبي الفتوح عبد الله التليدي
مركز التراث الثقافي المغربي
الدار البيضاء
دار ابن حزم



ISBN 9953-81-411-2
9 789953 814117